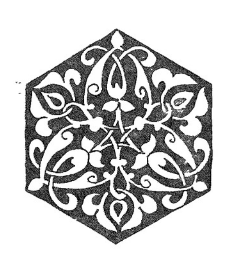


الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي

الدكتور زكي محمد إسماعيل

شركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي

الدكتور زكي محمد اسماعيل
أستاذ الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع المساعد
كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



حقوق الطبع محفوظة لشركة
مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع
جده ص . ب : ٨٢٦٧ ـ ت : ٦٥٣٣٤٤٨
الرياض ص . ب : ٢٩٣٤ ـ ت : ٤٠١٥٢٤٩-٤٠٤٠٨١٤
الدمام ص . ب : ٦٤٩٥ ـ ت : ٧١٤٣٤
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

مقدمـــة

تشكل الأنثروبولوجيا « علم الانسان » فرعا هاما فى محيط الدراسات الاجتماعية والإنسانية لما تتعرض له من موضوعات هامة تعالج قضايا الإنسان من حيث بعديه الفيزيقى والثقافى الاجتماعى معا ، ورغم أن مادة الأنثروبولوجيا أصبحت تدرس فى كليات الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية بالجامعات العربية إلا أنها تعالج من منطلق متأثر فى عرضه وضرب أمثلته وتطبيقاته الميدانية بالدراسات الأوروبية والأمريكية ، وقليلا ، بل نادرا ما يشار إلى مدى الصلة الوثيقة بين الدراسات الأنثروبولوجية والأثنوجرافية ، وبين إسهامات العلماء المسلمين العرب الأوائل والذين كان لهم فضل السبق فى معالجة مثل هذه الدراسات من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم عبر تجوالهم ورحلاتهم العديدة ، كما أنه من القليل النادر عرض الدراسة الأنثروبولوجية من منطلق إسلامى الاتجاه فى مجال الشرح والتفسير والتحليل ، لهذا فان المؤلف يأمل أن يكون هذا الكتاب بداية متواضعة تهدف لسد الفراغ فى هذه الناحية ، كما يتطلع أن يجد فيه القارىء منطلقا لعرض الحقائق الأنثروبولوجية لا من حيث اتصالها بالفكر الغربى وحده ، وانما من حيث اتصال هذه الحقائق بالفكر الإسلامى كذلك دون أى تعسف أو حشو أو افتعال ، كما يأمل أن يلمس فيه القارىء إبراز دور العلماء المسلمين العرب فى مجال الدراسات الأثنوجرافية التى سبقوا بها الأوربيين من خلال ما قاموا به من رحلات عديدة أسفرت عن دراسة منهجية لقيم وعادات وتقاليد وشعائر وأنماط سلوك المجتمعات التى رحلوا إليها ودرسوها ، وليس هذا الاعتراف بالفضل أمرا جديدا ، وانما شهد به المنصفون من الأنثروبولوجيين الأوربيين والأمريكيين أنفسهم

أمثال الأنثروبولوجى الأمريكى كارلتون س كون C. S. Coon فى دراساته العديدة ومنها بحثه بعنوان « أنثروبولوجيا للعرب » والذى اشترك به فى مؤتمر الثقافة الاسلامية بجامعة برنستون منذ أكثر من ربع قرن ، أشاد فيه بالدراسات الأثنوجرافية التى قام بها المسلمون العرب ونادى بضرورة أن تكون هناك أنثروبولوجيا خاصة بالعرب حيث يجدون على حد تعبيره « تحليل المواد الأنثروبولوجية أمرا مألوفا لهم » وحيث ينتهون إلى أن الاسلام الذى يتسم بالتسامح والعالمية يتعاطف مع الدراسات الأنثروبولوجية التى تهدف إلى هذه الغاية .

وسيجد القارىء فى هذا الكتاب أنه حين يتحدث عن أنماط الثقافة مثلا وسماتها ومركباتها ، فهو لايتحدث عنها بعيدة عن طبيعتها ونوعيتها فى الثقافة الاسلامية ودورها فى المجتمع الاسلامى . ولايكفى أن يتعرض الكتاب لموضوع الانتشار الثقافى من حيث مفهومه وعناصره واتجاهاته ومتغيراته دون الاشارة إلى إنتشار الثقافة الاسلامية ووقوفها فى وجه التبشير المسيحى والدوافع التى تؤدى إلى انتشار المد الاسلامى ، وحين يتناول الكتاب شرحا للمنهج الأنثروبولوجى وطريقة دراسة المجتمع فهو يشير فى المجال التطبيقى إلى مدى ما يمكن أن يفيده الداعية الإسلامى من استخدامه لهذا المنهج حتى تكون الدعوة من منطلق علمى منهجى يعتمد فيه الداعية على دراسة ثقافة وبناء ولغة المجتمع دراسة منهجية تحقق للدعوة الوصول إلى هدفها بأيسر السبل وأقربها إلى الدخول فى دين الله . ويقع الكتاب فى أحد عشر فصلا . وينقسم إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول : « الأنثروبولوجيا الموضوع والمنهج » ويضم خمسة فصول . يعرض الفصل الأول لمفهوم الأنثروبولوجيا وخصائصها وأقسامها وفروعها والعلاقة بين مفاهيم الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا والاثنوجرافيا ، ويتناول الفصل الثانى عرضا سريعا لجهود المسلمين العرب فى دراساتهم الأثنوجرافية وأصالة هذه الدراسات وأهمية الرحلة وأغراضها فى الإسلام بصفة عامة .

كما يتناول مقارنة بين منهج العلماء المسلمين والمنهج الأنثروبولوجى الحديث ومدى تأثر مفكرى الغرب بالدراسات الأثنوجرافية للعلماء المسلمين ، ويستعرض الفصل الثالث : موضوع الأنثروبولوجيا وصلتها بالعلوم الأخرى سواء كانت طبيعية أم إنسانية ، أما الفصل الرابع فيتناول بالشرح والتحليل أهم مناهج البحث الأنثروبولوجية . وفى الفصل الخامس يعرض الكتاب للطريقة الأنثروبولوجية لدراسة

المجتمع ، ومدى تطبيقها فى مجال الدعوة الإسلامية • أما القسم الثانى : « الأنثروبوجيا بين الاتجاهين الثقافى والوظيفى » فيضم ستة فصول • ففى الفصل السادس « الأنثروبولوجيا الثقافية » يتطرق الكتاب لشرح مفهوم الأنثروبوجيا الثقافية وأهم مفاهيمها كالثقافة والنمط الثقافى والعلاقة بين الثقافة والحضارة وخصائص الثقافة والعلاقة بين الثقافة والعوامل الجغرافية ، أما الفصل السابع فيعرض لموضوع الانتشار الثقافى من حيث تحديد مفهومه وعناصره وعملياته ونتائجه ومواقفه ، ثم يتناول موضوع الانتشار الثقافى والتبشير وموقف الدعوة الاسلامية بالشرح والتحليل • وفى الفصل الثامن « الثقافة والشخصية » يعرض الكتاب لموضوع هام وهو موضوع الأنثروبولوجيا النفسية حيث يحدد مفهوم الشخصية فى الدراسات الأنثروبولوجية وعلاقتها بالثقافة ، وأثر الشخصية الإسلامية فى الثقافة ، وفى الفصل التاسع « الثقافة والفولكلور » يعرض الكتاب لشرح مفهوم الفولكلور ومواده والمقصود بعلم الفولكلور والعلاقة بين الأنثروبولوجيا والفولكلور والأسس الميدانية لدراسته ووسائل جمع مادته • ودليل العمل الميدانى لدراسته • أما الفصل العاشر « المدخل الأنثروبولوجى الثقافى لدراسة التربية » فيتناول موضوعا هاما فى محيط الأنثروبولوجيا التربوية ، وهو موضوع جديد فى الفكر الأنثروبولوجى قليلا ما تناوله الأنثروبولوجيون بالعرض والشرح والتحليل ، وهو يعالج إمكان استفادة المنهاج المدرسى من المعطيات والتحليلات الثقافية لمجتمع ما ، ودور المدرسة فى المجتمع البدائى كنمط ثقافى تقدمى فى مجتمع غير تقدمى وأسس العلاقة بين الثقافة والتربية ، أما الفصل الحادى عشر والأخير « البناء الاجتماعى والوظيفة » فيعرض للاتجاه البنائى الوظيفى فى الدراسات الأنثروبولوجية عرضا سريعا ، ويقارن بينه وبين الاتجاه الثقافى ويشير التحليل الأنثروبولوجى لمفاهيم البناء والوظيفة ليس عند الأنثروبولوجيين المعاصرين فحسب ، وانما لدى العلامة العربى المسلم « عبدالرحمن بن خلدون » وفكرته عن طبيعة المجتمع والتضامن الاجتماعى والتى تماثل مفهوم « البناء الاجتماعى » الذى يتردد فى الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة كاتجاه مستقل ، كما يشير إلى معنى الوظيفة وعلاقتها بالبناء •

ويأمل الباحث أن يكون هذا الكتاب منطلقا لدراسات عديدة يشارك فيها الزملاء المتخصصون لربط الدراسات الأنثروبولوجيا والاجتماعية بالفكر الاسلامى صياغة

وتحليلا لبيان أثر المفكرين المسلمين ودورهم الطليعى الحضارى من ناحية ، والاستفادة من توظيف المنهج العلمى فى أسلوب الدعوة الاسلامية والوقوف فى وجه التبشير المسيحى من ناحية أخرى ٠

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والصواب ٠٠

دكتور زكى محمد اسماعيل

القسم الاول

الانثروبولوجيا

ـ الموضوع والمنهج

الفصل الاول

- حول مفهوم الأنثروبولوجيا ·
- خصائص ومميزات الأنثروبولوجيا ·
- أقسام الأنثروبولوجيا وفروعها ·
- العلاقة بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا والأثنوجرافيا ·

تعتبر الأنثروبولوجيا من أحدث الدراسات فى العلوم الانسانية إذ لاتزال تجتاز القرن الأول أو يزيد قليلا من عمرها الأكاديمى اذا وضعنا فى الاعتبار أن العالم « راوخ » Rauch كان أول من استخدم مصطلح أنثروبولوجيا Anthropology عام ١٨٤١ بمفهوم يختلف عن مفاهيمه السابقة التى كانت تتضمن معنى فلسفيا يتصل بدراسة النفس ثم اقتصر على دراسة السلالات ، وقد حدد راوخ موضوع الأنثروبولوجيا بأنه « دراسة المؤثرات الخارجية التى يخضع لها العقل ، والتغييرات التى تتم بمقتضاها » أما العالم الأمريكى فرانز بواس F. Boas فيرى أن الأنثروبولوجيا

تدرس الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا حيث يشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية دون تحديد زمانى أو مكانى ، ويعرفها العالمان الأمريكيان لينتون R. lainton وهيرسكوفتش Herskovits بأنها « دراسة الانسان وأعماله »(١) .

وقد استطاع العلامة الأنجليزى هادون Haddon أن يرجع تاريخ استخدام اصطلاح أنثروبولوجى إلى الحضارتين الأغريقية والرومانية اذ لاحظ أن الفيسلوف أرسطوا استخدم هذا الاصطلاح ليشير إلى « الشخص الذى يتحدث عن نفسه « ٢ » وفى عام ١٥٠١ م ظهر هذا الاصطلاح كعنوان لكتاب المفكر هاندت Hundt يتحدث فيه عن الأنثروبولوجيا كعلم يدرس خصائص جسم الانسان من ناحيته التشريحية ، وان ظهر هذا الاصطلاح لأول مرة فى اللغة الانجليزية فى عام ١٦٥٥ م فى كتاب بعنوان « الأنثروبولوجيا التجريدية Anthropology موضوعه الطبيعية البشرية من زاويتها النفسية والتشريحيــــــة وظل هذا منتشرا حتى أصبح للأنثروبولوجيا مفهومها فى القرن التاسع عشر ـ كما أشرنا .

والواقع أن كلمة « أنثروبولوجيا » مشتقة من كلمتين يونانيتين هما : أنثروبوس Anthropos بمعنى « الانسان »ولوجوس Logos وتعنى الكلمة أو الموضوع أو الدراسة ، وبهذا تصبح الأنثروبولوجيا « دراسة الانسان » أو « علم الانسان » على أساس أن المنهج المستخدم فى الأنثروبولوجيا هو المنهج العلمى ومن هذا المعنى الاشتقاقى لاصطلاح « أنثروبولوجيا » يتضح أن موضوع هذا العلم هو « الانسان » فالانسان هو المحور الأساسى والإطار الذى يحدد موضوعات هذا العلم بصرف النظر عن الزمان والمكان .

---

1. Hultkrantz, A and Baggar, ***International Dictionary of Regional European Ethnology and Folkore,*** Vol I, Copenhagen 1960

(١) والاشارة إلى الترجمة العربية بعنوان « قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور » ترجمة محمد الجوهرى ، وحسين الشامى دار المعارف القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

2. Haddon, A. ***History of Anthropology,*** London (Rev-Ed 1927 pp. 20-25.

فهما لايقيدان موضوعه بمعنى أن الأنثروبولوجيا تدرس الانسان وأسلافه الأوائل وأصوله منذ أقدم فترات التاريخ وما قبل التاريخ لافى بقعة معينة من العالم وإنما فى كل أنحاء العالم وذلك من خلال حفرياته وآثاره المختلفة فيزيقية وغير فيزيقية ، ولهذا كان موضوع هذا العلم واسعا ومترامى الجوانب من حيث اهتمامه بالجنس البشرى ككل أى من حيث دراسة أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم ومحتوى ثقافاتهم وتطورها ، وكيفية انتشارها وكل منتجاتهم المادية والرمزية والفكرية والاجتماعية ، وإن كانت الأنثروبولوجيا فى بداية أمرها اهتمت اهتماما خاصا بدراسة المجتمعات البدائية أو بمعنى أدق « شبه البدائية » مما دعا بعض الأنثروبولوجيين أن يقروا أن دراسة هذه المجتمعات التى يقال عنها « بدائية » هى أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الانسانية الأخرى كعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافيا البشرية وعلم النفس .. الخ ، واذا صح هذا الرأى فى غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فانه لم يعد رأيا مقبولا فى القرن العشرين حيث بدأت تنتشر الدراسات الأنثروبولوجية فى المجتمعات غير البدائية خاصة فى القرى ومجتمعات البدو الرحل والمجتمعات المتمدينة كالمجتمع الأمريكى والروسى والصينى ، ودراسة عمليات الصراع أو الامتزاج بين الحضارات التى تتضاءل سماتها أو تغير معالمها أو تتلاشى كلية فى حالة الهجرة أو الحروب .. الخ .

وان ظل اهتمام الأنثروبولوجيا حتى الآن بدراسة المجتمعات الصغيرة أو المحدودة الكثافة .. بصرف النظر عن درجة تحضر هذه المجتمعات ـ هو من أهم الملامح التى تميز الدراسة الأنثروبولوجية فى القرن العشرين .

وعلى أية حال فانه يمكن القول بأن الأنثروبولوجيا ليست العلم الوحيد الذى يدرس الانسان فالعلوم الانسانية المختلفة تشترك معها فى دراسته كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم التشريح والجغرافيا البشرية والسياسية وعلم الاقتصاد وعلم الأديان .. الخ ، ورغم هذا فان الأنثروبولوجيا تنفرد بسمات منهجية فى دراسة

الانسان تحدد ملامحها ، وتميزها بالتالى عن كل هذه العلوم ومن أهم هذه الخصائص ما يلى :

١ ـ الأنثروبولوجيا تدرس المجتمع ككل متكامل « ١ » ولهذا تستخدم المنهج الكلى Holistic Method كمنهج علمى فى دراستها ، فمثلا حين قمنا بدراسة النسق التربوى بقبيلة الشلك فى جنوب السودان دراسة حقلية أنثروبولوجية اقتضى ذلك أن نقوم بدراسة سائر الأنساق الاجتماعية بذلك البناء الجماعى كالنسق السياسى والعقائدى والشعائرى والاقتصادى ٠٠ الخ وذلك لتشابك هذه الأنساق وارتباطها ببعضها البعض فى بناء قبلى متماسك ، ومن خلال هذه الخاصة تختلف الأنثروبولوجيا عن علم السياسة الذى يستقل بدراسة الإنسان كعضو فى حكومة أو مواطن فى دولة وعن علم الاقتصاد الذى يختص بدراسة الإنسان منتجا أو مستهلكا أو موزعا فى مجتمع ما ، وعن علم الاجتماع الذى يدرس الإنسان باعتباره محورا للنظم والظواهر الاجتماعية التى يدور حولها دراسة علم الاجتماع لاسيما فى المجتمعات غير البدائية ، كما تختلف الأنثروبولوجيا عن علم النفس الذى يدرس الانسان من حيث سلوكه المكون لشخصيته كعضو فى مجتمع يؤثر فيه ويتأثر به ، وعن التاريخ الذى يدرس الإنسان فى الزمان والجغرافيا التى تدرسه فى المكان ، ولا تقتصر الأنثروبولوجيا على دراسة الإنسان من حيث بعده الاجتماعى والثقافى فحسب وإنما تتناول الإنسان من حيث دراسة بعده الفيزيقى الذى يشمل خصائصه التشريحية وتطور تلك الخصائص على مر التاريخ الفيزيقى للإنسان . (٢)

وليس معنى هذا أن الأنثروبولوجيا تنفصل بدراستها عن العلوم الانسانية الأخرى بل على العكس ترتبط بها ارتباطا عضويا وثيقا ، بل أن الأنثروبولجى لايستطيع أن يصل إلى نتائجه وتحليلاته بدون معرفة خاصة بتلك العلوم الانسانية ، صحيح أنه ليس بلازم ولايمكن أن يكون الأنثروبولوجى متخصصا فيها كلها ، وانما

1. Hoebel., E. Adamson. Anthropology. ***The Study of Man***, McGraw Hill, N.Y. 1966. P. 5.
2. Kroeber, A. ***The Subject of Anthropology***, Fried, M.H., ***Readings in Anthropology***, Thomas N.Y. 1959, Vol. I, P. 3.

لابد له من الالمام بها والوقوف على أحدث نتائجها وتطورها ، ولهذا تتفرع الأنثروبولوجيا نفسها إلى فروع متعددة من خلال صلتها بهذه العلوم كالأنثروبولوجيا السياسية والأنثروبولوجيا النفسية أو « الثقافة والشخصية » والأنثروبولوجيا التربوية ٠٠ الخ ، كما تتفرع الأنثروبولوجيا الفيزيقية هى الأخرى إلى عدة فروع تتصل بتخصصها فى دراسة الانسان الفيزيقى « كالاركيولوجيا » علم الآثار وعلم القياس البشرى « الأنثروبومترى » ٠٠ الخ ، وكل من هذه الفروع المتعددة تغذى الأنثروبولوجيا العامة بالعناصر الأساسية التى تستمد منها تحليلاتها وتفسيراتها لوضع مفهومها الشامل والمتكامل عن الانسان ٠

٢ ـ تهتم الأنثروبولوجيا باستخدامها للمنهج المقارن **Comparative Method** فى دراستها وهو المنهج الذى يركز على المقارنة بين المجتمعات المختلفة عند دراستها للوصول إلى النتائج أو التعميات التى توصل إليها هذه الدراسة،ويرى « هوبل » أن المنهج المقارن هو أنسب المناهج التى تستخدم فى دراسة الأنثروبولوجيا ، ولهذا يرفض أية تعميات ينتهى إليها الباحث من خلال دراسة مجتمع واحد أو حتى مجتمعين أو ثلاثة من طبيعة واحدة فى البناء أو الثقافة ، ويرى أن المقارنة المنهجية الجادة لاتتم الا فى إطار نماذج متعددة من المجتمعات المختلفة فى أبنيتها وأنساقها وثقافاتها حتى يكون التعميم قائما على مستوى عال من التجريد « ١ » وعلى الأنثروبولوجى الفيزيقى أن تكون دراسته فى ضوء المنهج المقارن الذى يتناول أكبر عدد ممكن من النماذج البشرية قديمها وحديثها ليتأكد من الخصائص الفيزيقية العامة لأنواع البشر ، القديم منها والحديث ، البدائى والمتحضر ، وذلك للوقوف على الخصائص الفريدة التى يتميز بها نموذج إنسانى ما عن النماذج الأخرى من الناحية البيولوجية ويرى العالم الأنثروبولوجى البريطانى راد كليف براون **Radcliffe Brown** أنه بدون استخدام المنهج المقارن والتركيز عليه فى الدراسة العلمية المنظمة فان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تصبح مجرد دراسة « وصفية تاريخية » **Historiography** لاترقى إلى مستوى

1. Hoebel, E.A. Ibid. P. 7.

الدراسات المنهجية العلمية ، وان كان ينظر إلى إستخدام المنهج المقارن فى الدراسات الأنثروبولوجية بحذر وبحيث يكون المنهج بعيدا عن الاستنباط النظرى مرتكزا على أساس الاستقراء الحقلى(١) •

٣ ـ من أهم خصائص الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية المعاصرة اعتمادها أساسا على البحث الحقلى Field Research أو المعايشة الميدانية للنموذج المختار للدراسة بعد أن انتهى عهد « الأنثروبولوجيا النظرية » « أو أنثروبولوجيا » الكراسى المريحة Armchairs اذا أصبحت الدراسة الميدانية فى الأنثروبولوجيا تقوم مقام المنهج التجريبى فى علوم الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات • واذا كان للعالم فى هذه العلوم معملة التجريبى Experimental Laboratory فان معمل الباحث الأنثروبولوجى هو مجتمع الدراسة الذى يختاره بدقة ليحدد من خلاله إطار بحثه فى ضوء الفروض النظرية التى يمتحن صحتها من خلال منهجه الحقلى •

ولا مجال للقول الآن بأن الدراسات الأنثروبولوجية ونظرياتها عرضة للتغير تبعا لما يجد من اكتشافات اجتماعية وإنسانية أو لما ينقصها من دقة العلوم الطبيعية ، وذلك لأن نظريات العلوم الطبيعية نفسها عرضة للتغير فى اطار التقدم العلمى الراهن بحيث يمكن القول بأن قوانين هذه العلوم هى الأخرى ليست لها صفة الثبات والاستقرار فى عالمنا المتغير الذى حطم بأبحاثه العلمية الفضائية والكونية عديدا من النظريات العلمية السابقة فى مجال المادة والكون ، واذا كانت الرياضة وقوانيها هى المثل الأعلى للدقة العلمية فان هناك من العلماء اليوم من يطعن فى تلك القوانين ، ويؤكد أن أفكارنا عن العدد والمكان الهندسى ليست أفكارا قبلية « أى لاتخضع للتجربة » كما نادى الفيلسوف « كانط » Kant من قبل بل يرون أنها أفكار مستمدة من حواسنا أساسا ولهذا تخضع للحس التجريبى ولا تستعصى عليه ، ومن هنا فلا مجال للطعن فى نتائج العلوم الاجتماعية بصفة عامة والبحث الأنثروبولوجى بصفة خاصة ، فقد كان ألفريد هادون A. Haddon رئيس بعثة جامعة كامبردج لمياه ميلانيزيا فى نهاية القرن التاسع عشر وهو أول

1. Radcliffe Brown, A.R., ***Method on Social Anthropology***. Chicago, 1958. P. 109.

الأنثروبولوجين الحقليين كان من علماء الحيوان ، وبدل أن يجرى هو وأعضاء بعثته تجاربهم على الأحياء المائية فوجئوا بأقوام من البشر تختلف عاداتهم وأنماط سلوكهم وطبيعة ثقافتهم اختلافا تاما عما شهدوه ، من قبل ، الأمر الذى استهواهم وصرفهم عن هدفهم الأصلى إلى دراسة هذه النماذج البشرية التى تختلف تماما من حيث بناؤها الاجتماعى وأنماط ثقافتها عن العالم المتحضر مما جعله هو وأعضاء بعثته يتحولون من علماء أحياء مائية إلى علماء فى الأحياء البشرية ، وقد وضع « هادون » بعد ذلك أصول الأنثروبولوجيا الاجتماعية على أساس المنهج الحقلى الميدانى الذى يلزم الباحث بدراسة البناء الاجتماعى دراسة علمية موضوعية عن طريق الملاحظة الموجهة ، ويرى بعض علماء الاجتماع أنه باستخدام هذا المنهج الأنثروبولوجى فى دراسات علم الاجتماع يمكن الوصول إلى نتائج موضوعية سليمة لأن عملية فحص الوقائع أو اثبات فرض ما للوصول إلى قانون أو تعميم لا يعد أمرا صعبا وانما تكمن الصعوبة فى الوصول إلى نتائج صحيحة [1] ولن تصح النتائج إلا بمعايشة المجتمع نفسه من خلال منهج علمى موضوعى ميدانى ٠

٤ ـ من أهم الخصائص التى تميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من العلوم الانسانية اختيارها لنوعية معينة من النماذج المجتمعية التى تدرسها ، وقد كان النموذج المختار للدراسة الأنثروبولوجية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل وبداية القرن العشرين هو المجتمع الذى يوصف بأنه بدائى Primitive Society لأنه مجتمع صغير نسبيا ومحدود الكثافة تسهل دراسته دراسة كلية شاملة ، كما كان فى نظر الأنثروبولوجيين من الأوربيين والأمريكيين يعد مرآة تعكس ثقافة وبناء مجتمع الانسان الأول ولم يكن اختياره لهذا فحسب وانما لأسباب ودوافع استعمارية وتبشيرية تتعلق بالسيطرة على هذه المستعمرات من ناحية وتحويلها إلى مجتمعات مسيحية من ناحية أخرى ، كما كان للنزعة العنصرية أو فكرة التفوق

(١) على احمد عيسى ٠ تصور جديد للاتجاهات النظرية والعلمية لعلم الاجتماع فى الوطن العربى ، حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى ٠ الجزائر ١٩ ـ ٢٦ مارس ١٩٧٣ ص ٤٠٥ ـ ٤١٧ ٠

العنصرى أثرها الكبير فى التركيز على دراسة هذه المجتمعات لمحاولة اثبات أنها مجتمعات تمثل الدرك الأسفل من البناء الحضارى بينا تمثل مجتمعاتهم هم أى مجتمعات الرجل الأبيض قمة هذا البناء الحضارى فى العالم ، بيد أنه فى غضون القرن العشرين ومع بداية حصول هذه المجتمعات على استقلالها وانفتاحها على الحضارات والثقافات الأخرى ، وانكماش المد الاستعمارى وما صحبه من تضاؤل هذه المجتمعات التى قيل عنها انها بدائية بدأت الأنثروبولوجيا تطرق فى دراساتها مجتمعات أخرى ولكنها محدودة الكثافة كمجتمع القرية ومجتمع البدو ومجتمع المصنع والمجتمعات الحرفية والمهنية فى المدن الكبيرة ، أى أن الأنثروبولوجيا فى القرن العشرين لم تعد تقتصر فى دراستها على المجتمعات المتخلفة حضاريا وانما تطرقت لدراسة المجتمعات المتخلفة وغير المتخلفة ولكنها استبقت أمرا هاما هو أن تكون هذه النماذج المجتمعية صغيرة الحجم محدودة الكثافة وذلك ليمكن دراستها دراسة كلية متكاملة بالمنهج الأنثروبولوجى ٠

٥ ـ من أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الانسانية الأخرى أنها تدرس الانسان من جانبيه الفيزيقى والاجتماعى الثقافى معا ، ومن أهم خصائص هذين الفرعين ما يلى ٠

أ ـ الأنثروبولوجيا الطبيعية Physical Anthropology

وتدرس جسم الانسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه أو من حيث أسلافه وأجداده الأوائل وكيفية انتشاره ، وأحيانا يطلق على هذه الشعبة اصطلاح علم الأحياء البشرية Human Biology وتدرس الانسان كأحد أعضاء المملكة الحيوانية اذ تهتم بتاريخ وتطور وطبيعة تركيبه الفيزيقى منذ أقدم العصور حتى الآن كما تهتم بدراسة الخصائص المميزة للسلالات البشرية وتفاوتها من حيث لون البشرة أو شكل الشعر أو طول القامة أو حجم الرأس أو لون العينين ٠٠ الخ محاولة أن تجد تفسيرا لهذه الاختلافات فى النهاية أى أنها تهتم بتتبع تاريخ الخصائص والصفات الجسمية والسلالات البشرية للإنسان مما جعل علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية يبحثون فى كل مكان عن أية آثار للانسان القديم ومقارنة أشكاله بالاشكال الحالية للإنسان الحديث ،

ورغم أن هناك فجوات لم يتمكن العلماء من ملئها فى إطار دراستهم لتاريخ الانسان الفيزيقى الا أن هذا العلم استطاع أن يجيب على عديد من الأسئلة التى كانت تراود الانسان منذ القدم وتحاول الكشف عن متى وأين ظهر أقدم مخلوق بشرى ووصف هذا المخلوق وتحديد مدى تشابهه أو تنافره مع غيره من مخلوقات الله تعالى ومدى تغير أو تطور صفاته الجسمية خلال الأزمنة المتعاقبة ، وينتمى هذا القسم فى تخصصه الأكاديمى إلى العلوم الطبيعية حيث يهتم بدراسة علم التشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وعلم العظام Osteology ومورفولوجيا الانسان « أى البناء الانسانى » Human Morphology وعلم الأنثروبومترى « مقاييس جسم الانسان » Anthropometry وعلم جراحة الانسان « ١ » Human Sereology ولهذا يدرس فى كليات الطب والعلوم وان كان يدرس أحيانا فى كليات الآداب والعلوم الاجتماعية فى أقسام الأنثروبولوجيا ٠

ولقد أثبتت دراسات الأنثروبولوجيا الفيزيقية أن الانسان يمتاز ـ على اختلاف ـ سلالاته بوحدة تركيبه الأساسى ، كما يمتاز باتساق هذا النباء البشرى ، وإن كان يختلف فى بعض السمات الخارجية لتلك السلالات كلون البشرة وطول القامة وشكل الوجه وحجم الأنف ٠٠ الخ وهو اختلاف يرجع إلى طبيعة الأيكولوجيا البشرية Human Ecology أى إلى طبيعة البيئة التى يعيش فيها الانسان الذى ينتمى إلى فصيلة واحدة هى فصيلة الانسان العاقل Homo- Sapiens وهذا مصداق قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ٠

ومن الأهمية أن نشير إلى أن نتائج الأنثروبولوجيا الفيزيقية أثبتت أن الانسان بوضعه الراهن أصبح يحتل موضعا فريدا فى المملكة الحيوانية اذ رغم اتفاقه مع معظم الحيوانات لاسيا الثديية منها فى عديد من السمات والخصائص العضوية إلا أنه يتميز

1. Bahanan, P. ***Social Anthropology***, Holl, Rinehart and Winston N.Y. 1963, P.3.

(٢) الحجرات الآية ١٣ ٠

عنها ويتفوق عليها بعديد من الصفات التى ينفرد بها وهى :

١ ـ التركيب المخى الفريد الذى يتميز بتعقيد معين ودقة بالغة فى تركيبه الفيزيقى .

٢ ـ الوقوف والمشى منتصبا وفى وضع معتدل ، وما يتبع ذلك من تركيب مميز لقدم الإنسان يساعده على هذا الاعتدال .

٣ ـ الانسان يمتاز بأن له حوضا أكثر اتساعا وأقل عمقا من الحيوانات .

٤ ـ السيقان الطويلة بالنسبة للجسم وطول الذراعين معا .

٥ ـ السلسلة الفقرية المرنة التى تمكن الانسان من الاستقامة والانثناء معا وذلك بفضل طواعيتها ومرونتها .

٦ ـ التركيب الفريد الخاص باليدين وبه أمكن للإنسان أن يستخدمهما لتبادل الأشياء المختلفة وليس للمشى كما لدى الحيوانات .

٧ ـ ثنائية الأبصار ، وبها يمكن للانسان أن يشاهد الرؤية المزدوجة يمينا ويسارا وأماما بمالا يتوفر لدى الحيوانات ولقد ترتب على هذا أن أصبح للانسان وضعه الفريد فى المملكة الحيوانية فأصبح أينما وجد وكيفما كانت حضارته يملك العديد من الأدوات والآلات التى يستخدمها فى حياته وله نظام بسيط أو معقد للحصول على غذائه وتنظيم اجتماعى وثقافى معين ، وصدق الله تعالى اذ يقول :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

ولاتقتصر شعبة الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى دراستها على تتبع تاريخ وتطور الخصائص والصفات الجسمية للانسان ، وانما تتعدى ذلك إلى دراسة الطرق والوسائل التى أمكن للانسان أن يتكيف بها لبيئته[1] ، كما تهتم بدراسة مدى تأثير البيئة على الانسان من الناحية الفيزيقية ، ومن ناحية أخرى تدرس التفاعل بين القبائل والأمم

(٢) مفهوم البيئة هنا لايقتصر فحسب على البيئة الطبيعية وحدها كالأرض والبحر والفضاء وانما يشمل ما تتضمنه البيئة من كائنات حية تشارك الانسان معيشته مستأنسة أو متوحشة وهى سابقة على الوجود الإنسانى نفسه كما تشمل المملكة النباتية فى سائر أشكالها وأنماطها ..

والسلالات المختلفة عن طريق الهجرة أو التزواج أو الحروب وأثر هذا التفاعل فى التكوين الفيزيقى للانسان ، كما تدرس مدى العلاقة بين تركيب الانسان الجسمى وبين عدد من الصفات أو المتغيرات الأخرى كالمزاج والذكاء والشخصية العامة .

وفيما يتعلق بانسان ما قبل التاريخ فان الأنثربولوجيا الفيزيقية تعالجه من خلال بقايا الانسان العظمية متحجرة كانت أم غير متحجرة ، وهو ما يسمى بعلم العظام كما أشرنا .

أما الأجناس المعاصرة فقد اتسع ميدان دراستها فأصبح يشمل سائر أعضاء الجسم الداخلية بطرق علمية حديثة كطرق التشريح المقارن ، كما أصبحت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تستخدم أسسا احصائية متفقا عليها ، بعضها توزيعى وبعضها نسبى والبعض الآخر يستخدم طريقة المتوسطات ، كما تشمل الكشف عن أثر التشابه والاختلاف فى وظائف أعضاء الجسم بين الأجناس البشرية المختلفة حين تعرضها لبعض العمليات البيولوجية كتمثيل الغذاء أو سرعة النبض أو نسبة النمو .. الخ .

وبهذا لم تعد دراسة الأنثروبولوجيا الفيزيقية قاصرة على مجرد تصنيف وتطور الصفات الفيزيقية للانسان عبر التاريخ البشرى كماكان شأنها فى القرن التاسع عشر ، وانما اتسع مجالها منذ ثلاثينات هذا القرن فأصبحت تهتم بدراسة عمليات النمو والوظائف العضوية من خلال منهج مقارن ، كما ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية دراسات تتعلق بدراسة فصائل الدم وعلم الأجنة مما جعلها تزداد عمقا فى الدراسات التى تتعلق بطبيعة الاختلافات التطورية بين الانسان عبر الزمان والمكان معا ، ومن أحدث البحوث التى شملتها الأنثروبولوجيا الفيزيقية دراسة موضوعات مثل التكيف مع الحياة فى الارتفاعات العالمية ، ومشكلة انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى[(١)] .

ومن الأهمية أن نشير إلى أن البحث فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية بمناهج العلم

1. Bearls, R.L. and Hoijer, *K. Introduction to Anthropology*, N.Y. 1971.

(٢) والاشارة هنا إلى الترجمة العربية بعنوان « مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة » ج ١ للدكتورين محمد الجوهرى والسيد الحسينى دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ نيويورك . مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٦ ص ١٧ .

التجريبية لهو من الأمور الهامة التى يحاول العلماء أن يجيبوا بها على عديد من التساؤلات المطروحة عن بدء الخلق وهى من الأمور التى حثنا الله تعالى على الاهتمام بها والنظر فيها :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ ﴾ (١) .

وفى آية أخرى :

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (٢) .

وفى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٣)

ب ـ الأنثروبولوجيا الاجتماعية : Social Anthropology

إذا كان الأنثروبولجيون البريطانيون من أنصار الاتجاه الوظيفى يسمون هذا الفرع بالانثروبولوجيا الاجتماعية ويحددون موضوعها بدراسة الانساق والنظم الاجتماعية فى علاقاتها وترابطها مع بعضها البعض فى شبكة العلاقات الاجتماعية فان الأنثروبولوجين الأمريكيين أنصار الاتجاه الثقافى يسمون هذا الفرع « بالأنثروبولوجيا الثقافية » Cultural Anthropology والثقافة هنا فى أبسط معانيها هى طريقة أو أسلوب معيشة مجتمع ما أيا كانت درجته من الحضارة ، ولهذا يركزون على دراسة عادات وشعائر وتقاليد وأنماط سلوك هذه المجتمعات وسائر ما ينتجه الأفراد من وسائل مادية وغير مادية وسنتناول فى كتابنا هذا تفصيلا لأسس ومناهج ونتائج هذا الفرع من الأنثروبولوجيا وعلاقته بالعلوم الانسانية والاجتماعية .

---

(١) العنكبوت الآية (٢٠)

(٢) سورة نوح الآية (١٤)

(٣) المؤمنون الآية (١٢)

الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا [1] والاثنوجرافيا [2]

إختلطت المفاهيم الثلاثة مع بداية التفكير الأنثروبولوجي المعاصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين كان المفهوم التقليدى للأنثروبولوجيا يشير إلى أية دراسة تتعلق بنشأة الأجناس البشرية وثقافاتها ونظمها الاجتماعية وخصائصها الفيزيقية ، كما يشير المفهوم إلى الأراء المستنبطة من مخلفات الكائنات البشرية التى عثر عليها فى الحفريات ، هذا فضلا عن النظريات والأفكار الشائعة عن عادات وأساطير وتقاليد الجماعات البدائية ، ومدى ارتباط ثقافاتهم ونظمهم البنائية بالبيئة الطبيعية ، ومن هذا المنطلق كان مفهوم الأنثروبولوجيا مفهوما فضفاضا يشتمل على المظاهر الفيزيقية والنفسية والاجتماعية للإنسان متى وأين وجد مما دعا للخلط بين المصطلحات الدلالية لكل من الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا والأثنوجرافيا ..

الأثنولوجيا Ethnology

تعنى الأثنولوجيا دراسة الشعوب والسلالات العرقية دراسة تاريخية مقارنة تتم عبر الزمان وتبحث فى الأصول الأولى للنوع الانسانى العاقل Homo - Sapiens وتطوره حتى العصر الحاضر ، ولهذا فهى تهتم بالمقارنة والتحليل من خلال نظرة تاريخية ، ويدخل فى اطار الأثنولوجيا دراسة أصول الحضارات والمناطق الثقافية ، وهجرة الثقافة وانتشارها من منطقة إلى أخرى والسمات النوعية لكل من هذه الثقافات ، وقد اختلط مفهوم الأثنولوجيا بمفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية عند العلماء البريطانيين والأمريكيين والأوروبيين فى القرن التاسع عشر ، ويقول الأنثروبولوجى البريطانى ايفانز برتشارد « ان هذا ظل حتى ١٨٨٢ فى جامعة اكسفورد ، وحتى ١٩٠٠ فى جامعة كامبردج ، وحتى ١٩٠٨ فى جامعة لندن .

---

(١) الأثنولوجيا (علم السلالات البشرية) .

(٢) .لأثنوجرافيا (وصف الشعوب) .

أما الأثنوجرافيا Ethnography

فتعنى « وصف الشعوب » أو وصف الثقافات أو أنها الدراسة الوصفية للثقافات المختلفة التى تتعلق بالشعوب البدائية بصفة خاصة ، ويعرفها الأنثروبولوجى الأمريكى هوبل A. Hoebel بأنها « ذلك القسم من الأنثروبولوجيا الذى يختص بالتسجيل الوصفى للثقافات « أما وينيك Winick فيعرفها بأنها دراسة الثقافات المختلفة دراسة وصفية غير تفسيرية فى المقام الأول وقد نشأت الأثنوجرافيا من خلال كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يسجلون كل ما يشاهدون عن الجماعات المتخلفة حضاريا ، واليهم يرجع الفضل فى اتساع نطاق الدراسات الأثنوجرافية ، وان لم تكن كتاباتهم تلك تقع فى اطار الدراسات المنهجية المنظمة ، وانما تتم من خلال تسجيل المشاهدات والملاحظات فى هذه المجتمعات بدافع من حب الاستطلاع والاحتفاظ بالمادة المدونة .

ومن هذا المنطلق فان الانصاف يدعو أى باحث منهجى ليقرر أن الدراسات الأثنوجرافية بهذا المعنى لم تنشأ لدى المفكرين الأوربيين فى العصر الحديث كما يقرر معظم الأنثروبولوجيين - إن لم يكن جميعهم - وإنما نشأت الدراسات الأثنوجرافية بهذا المفهوم لدى العلماء المسلمين العرب قبل أن يعرف اصطلاح الأثنوجرافيا أو الأنثروبولوجيا على مسرح الفكر المعاصر بحوالى خمسة قرون على أيدى الرحالة العرب أمثال المسعودى والمقدسى والإدريسى وابن حوقل وابن فضلان وابن بطوطة[(١)] وابن جبير وغيرهم كما سنشير بالتفصيل فى الفصل التالى ، فلقد كان لهؤلاء الرحالة أثر كبير فى جميع المادة الأثنوجرافية من البلاد والممالك التى زاروها وكتبوا عنها ، ووصفوا عاداتها وتقاليدها وأنماط ثقافاتها سواء كانت تلك المجتمعات بدوية أم غير بدوية قروية أم مدنية ، بينما اقتصرت الدراسات الاثنوجرافية بالمعنى الحديث على المجتمعات البدائية وهى التى تعتمد على البيئة الطبيعية الى أقصى حد ممكن والتى يسودها حرف الرعى والصيد والزراعة

(١) زكى محمد اسماعيل ، ملامح الدراسات الأنثروبولوجية فى تراث المفكرين المسلمين ، مجلة العلوم الاجتماعية العدد الأول - الرياض ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ص ص ٥٩١ - ٣٢٥ .

البسيطة كما ترتبط بنظام معين للقرابة ويكاد ينعدم التخصص وتقسيم العمل فيها الا فيما يتعلق بالسن والنوع كما يسودها الاعتقاد فى السحر والخرافات والأمية وانعدام التراث المكتوب والتفكير العلمى المنهجى ، وإذا كانت الدراسات الأثنوجرافية أو تلك التى لها الطابع الاثنوجرافى عند الرحالة المسلمين تسجل الأنماط الثقافية لسائر المجتمعات التى جابوها بقصد جمع المادة العلمية وتسجيلها وتحليلها فان معظم الدراسات الاثنوجرافية فى العصر الحديث قام بها مبشرون مسيحيون ولهذا كانت أبعد ما تكون عن الدراسة العلمية الموضوعية ، كالدراسات الأثنوجرافية الخاصة بالجماعات الأفريقية المتخلفة التى قام بها الأساقفة والمبشرون أمثال الأسقف كالواى Calaway والأسقف شميدت ، وان تطورت الدراسات الأثنوجرافية بعد ذلك على يد المتخصصين فى الأنثروبولوجيا أمثال جوند Jund فى دراسته عن الحياة فى قبائل جنوب أفريقيا[1] ودال Dale عن دراسته فى بعض شعوب روديسيا الشمالية[2] وذلك فى بداية القرن التاسع عشر ، وقد تبع ذلك عديد من الدراسات الأنثروبولوجية الهامة فى أفريقية كايفانز برتشارد E. Pritchard فى دراساته المركزة فى جنوب السودان ابتداء بالسحر والشعوذة فى قبائل الزائدى بجنوب السودان فى ١٩٢٧ ودراسة العلامة شابيرا Shapera عن قبائل البتشوانا Bechuana وفورتس Fortes عن التالينزى Tallenis فى ساحل الذهب ونادل Nadel عن النوبا فى نيجيريا ، والتساؤل الذى كثيرا ما يطرح فى هذا المجال هو لماذا كان التركيز على دراسة المجتمعات البدائية السمة التى تميزت بها الدراسات الأثنوجرافية لاسيا فى بداية عهدها فى العصر الحديث ، والاجابة على هذا التساؤل تحمل عديدا من العناصر أهمها أن هذه الجماعات مهددة بالزوال والانقراض من خريطة الشعوب المتخلفة أو التى يقال عنها أنها بدائية نتيجة المد الحضارى الذى يزحف بسرعة على هذه المناطق وما يجاورها نتيجة استقلال معظم هذه الشعوب بعد فترة طويلة من الاستعمار ، كما أن فى دراستها الوقوف على أقرب

---

1. Jund. ***The Life of a South Africa Tribe***, 1912.
2. Dale. ***The Ila -Speaking People of Northern Rhodesia***, 1920

الملامح للحياة الأولى التى مرت بها البشرية منذ أقدم العصور ويمكن مشاهدتها ودراستها فى الوقت الحاضر كما أنها مجتمعات تمتاز ببساطة تكوينها المورفولوجى وصغر مساحتها الأمر الذى يسهل معه دراستها دراسة شاملة متكاملة ، كما أنها جماعات ليس لديها تراث مكتوب يمكن الاحتفاظ به أو الإفادة منه مما يدعو لدراستها دراسة علمية اثنوجرافية .

وعلى أية حال فان دراسة هذه الجماعات شبه البدائية دراسة اثنوجرافية ثم دراسة أنثروبولوجية تحليلية فيما بعد كان له أهمية علمية تنحصر فيما يلى :[٣] .

١ ـ كانت هذه الدراسات حجر الأساس فى نشأة علم الاجتماع الذى استفاد منها كثيرا فى فروضه وتحليلاته ومقارناته بالمجتمعات المتحضرة والقروية معا .

٢ ـ ساعدت الدراسات الاثنوجرافية المؤرخين لاسيما التطوريين منهم على تتبع التطور التاريخى للحضارة الانسانية اذ أن هذه الجماعات المتأخرة ظلت بمعزل عن التيارات الحضارية مما جعلها ـ بمعنى ما ـ تمثل الأشكال والنماذج الأولى للنظم الاجتماعية فى أبسط عناصرها وتكويناتها .

٣ ـ مهدت هذه الدراسات لكثير من العلماء الاجتماعيين فهم ومحاولة تفسير الظواهر والمشكلات الاجتماعية فى الجماعات المتمدينة ، بل وساعدت فى الوصول إلى قوانين وتعميمات اجتماعية توضح تطور هذه النظم من ناحية ، والتنبؤ بما قد تصادفه من عقبات من ناحية أخرى .

٤ ـ ساعدت هذه الدراسات فى حالات كثيرة على تطبيق المنهج العلمى فى البحث الاجتماعى باعتبارها حقلا خصبا للتجربة الاجتماعية مما جعلها تسهم فى إحلال الدراسة الواقعية التجريبية موضع الدراسة الظنية الاستنباطية .

٥ ـ أسهمت هذه الدراسات فى تصحيح الكثير من الأوهام والأفكار الظنية المتداولة والسطحية عن هذه الشعوب والتى امتلأت بها كتب القصص والأساطير لفترة طويلة من الزمن .

---

(٣) أحمد الخشاب ، دراسات أنثروبولوجية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢٦ وما بعدها .

٦ ـ كان لهذه الدراسات فضل تصحيح بعض الآراء الافتراضية التى تصورها المفكرون لاسيا بعد أن خضعت هذه الدراسات للتحليلات العلمية الواقعية وبعد أن عايش الأنثروبولوجيون هذه المجتمعات لفترات طويلة درسوا فيهـا أنمـاط سلوكهـم وعناصر ثقافاتهم وطبيعة بنائهم الاجتماعى ٠

٧ ـ أصبحت هذه الدراسات ـ بعد أن خضعت للمنهج العلمى ـ منطلقا هاما بل وأساسيا للدراسات المقارنة فى الفكر الاجتماعى برمته ، فمثلا أصبحت دراسة النظم الاجتماعية المختلفة ، فى علم الاجتماع السياسى أو التربوى أو الحضرى أو الدينـى لاتبدأ الا من منطلق هذه الدراسات الأثنوجرافية للمجتمعـات البـدائية كأسـاس للمقارنة والتحليل معا ٠

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأثنولوجيا

كلا الفرعين يعتمد فى دراسته وتحليله وتعمياته على المعلومات الأثنوجرافية لمجتمع أو ظاهرة ما من ظواهره،ولكن بينما تنهج الأثنولوجيا منهجا تاريخيا انتشاريا فى تحليلاتها عن طريق تتبع الظاهـرة إلى أصولهـا التـاريخية الأولى وكيفية انتشارهـا فان الأنثروبولوجى الاجتماعى لايهتم بهذا النهج التاريخى وانما يهتم بدراسة الظاهرة دراسة بنائية وظيفته «هنا» «والآن» أى فى مكان وزمان معينين غير عابىء بالتسلسل التاريخى للظاهرة فهو تاريخ فرضى تخمينى لايعتد به ، ويضرب «ايفانز برتشارد» مثالا على ذلك بظاهرة عبادة أرواح الموتى ، أو عبادة الاسلاف[١] ، حيث يؤول الأنثروبولوجى الاجتماعى تلك الظاهرة ويحللها فى ضوء النظم الاجتماعية الأخرى كنظام الأسرة وبناء العائلة ونظام القرابة إلى غير ذلك من النظم التى تتصل بالظاهرة على اعتبار أنها من عناصر النسق الاجتماعى العام للجماعة التى تنتشر فيها تلك العبادة ، فى الوقت الذى يدرس الأثنولوجى هذه الظاهرة على اعتبار أنها جزء من الثقافة العامة ولهذا فهو يركز فى دراسته على الأفعال والعادات والممارسات التى يباشرها معتنقو هذه الديانة تجاه

(١) ايفانز ريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة الدكتور أحمد أبـوزيد منشـأة المعـارف الاسكنـدرية ١٩٦٠ م ٠

الأرواح التى يعبدونها أو يتقربون إليها عن طريق تقديم القرابين ، والطقوس وغير ذلك من أمور تعتمد على التحليل والتخمين ، كما يلجأ الأثنولوجى إلى التفسير والتحليل والتبرير الاستنباطى والنفسى فى علاج هذه الممارسات .

وإذا كان علماء الأثنولوجيا لاسيا الانتشاريون أو أصحاب المدرسة الانتشارية Diffusionists يتتبعون أغلب عناصر الظاهرة الثقافية فى عديد من الجماعات ثم يحللون الظاهرة إلى أبسط أشكالها ويستخلصون من ذلك موطنها الأصلى على اعتبار أنها توجد فى أبسط مظاهرها فى هذا الموطن ، فانه من هنا يمكن اعادة بناء التاريخ الثقافى لتلك الظاهرة ، وقد كان هذا شأن معظم الأثنولوجيين الأوائل أمثال سيرجيمس فريزر Sir James Frazer خاصة فى أشهر مؤلفاته : « الغصن الذهبى » The Golden Bough وكذلك سيرادوارد تايلور Edward Tylor فى مؤلفه الشهير « الثقافة البدائية » Primitive Culture وتمتاز مؤلفات هذين العالمين بأنها احتوت على وصف عادات وممارسات وطقوس اجتماعية مستمدة من مصادر متنوعة وفى بيئات وأزمنة وجماعات مختلفة بهدف إظهار مدى شيوعها ومقدار عموميتها وأوجه التشابه والاختلاف فيما بينها فى مختلف العصور ، فمثلا فى عقيدة » الطوطمية » Totemism والتى تسود فى كثير من أشكال التجمعات الانسانية المتخلفة والمنعزلة حضاريا والتى تتركز فى اتخاذ القبيلة أو الجماعة رمزا لها تقدسه ، وتعتقد أنها منحدرة عنه ، وهذا الرمز قد يكون حيوانا أو نباتا أو جمادا أو ظاهرة طبيعية[1] فقد اختلف علماء الأثنولوجيا فى تحديد الأصل الأول لهذه العقيدة عند البدائيين فاميل دوركايم E. Durkheim عالم الاجتماع الفرنسى يرى أن هذا الشكل من العقيدة البدائية ظهر أول ما ظهر لدى القبائل الأصلية الاسترالية ، بينما يرى العالم الأمريكى فرانز بواس F. Boas أنه يمكن تلمس أصل هذا الشكل لدى الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين ، أما العالم

---

(١) هذه الديانة تنتشر بين السكان الأصليين لاستراليا ولها رواسب لدى شعوب الساميين فى كل من شمال أفريقيا ووسطها وفى مدغشقر وجزر الملايو وبولينزيا واندونيسيا والفلبين والهند الصينية والصين والهند راجع كتاب الطوطمية ـ أشهر الديانات البدائية للدكتور على عبدالواحد وافى ـ أصدرته دار المعارف فى سلسلة أقرأ العدد ١٩٤ .

الأسكتلندى روبر تسون سمث R. Smith فيرى أن هذا الشكل من العقيدة ظهر أول ما ظهر عند قبائل العرب فى الجاهلية ·

ويرى عالم الأثنولوجيا فى دراسة الظواهر وتتبعها التاريخى واطارها الانتشارى دليلا على تحرك السلالات وهجرة الثقافة واتصال الشعوب ببعضها البعض على امتداد التاريخ الثقافى للانسان بينما يرى عالم الأنثروبولجيا الاجتماعية فى هذه الظواهر مايوضح جانبا من الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب من ناحية ، كما يرى أن تلك العادة ذات ارتباط وثيق بالبناء الاجتماعى الكلى لهذا الشعب من ناحية أخرى ، ولا يهمه ان كان هذا المجتمع قد استعارها من مجتمع آخر أو انحدرت إليه من الاسلاف اذ لايمكن بالتأكد من ذلك ، وحتى ولو أمكن هذا فان العالم لايعرف بالتحديد متى وكيف ولماذا حدثت هذه الظاهرة ·

واذا اتخذت بعض شعوب شرق أفريقيا الشمس رمزا للاله فان عالم الأثنولوجيا يرى فى هذه العقيدة أثرا من آثار العبادة المصرية القديمة فى هذه الشعوب الأفريقية بينما لايهتم الأنثروبولوجى الاجتماعى بهذا الفرض لأنه لايمكن إثباته ، وانما يركز اهتمامه على معرفة العلاقة بين هذه الرمزية الشمسية وبين النسق الكلى للعقيدة وللعبادة عند أفراد الشعب ، وقد اهتم الأثنولوجيون وركزوا على بعض الظواهر لدراستها فى المجتمعات البدائية كظاهرة وأد البنات Infacide والثأر Vendetta والزواج الاغترابى Exogamy وهو الزواج من خارج وحدة القبيلة أو العشيرة ·

ومعنى هذا أن المنهج يختلف فى كل من الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، الأول منهج التاريخ النفسى أو الانتشار التاريخى والآخر منهج وصفى اثنوجرافى يعتمد على الدراسة الحقلية من ناحية والتحليل البنائى الوظيفى للمعلومات الأثنوجرافية من ناحية أخرى ·

الفصل الثانى

أثر المسلمين العرب فى الدراسات الأثنوجرافية

- جهود العلماء فى دراساتهم الاثنوجرافية وأصالتها ·
- أهمية الرحلة وأغراضها فى الاسلام ·
- أمثلة من جهود العلماء المسلمين فى دراساتهم الاثنوجرافية كالمقدسى والادريسى والبيرونى وابن جبير وابن بطوطه وابن خلدون وغيرهم ·
- مقارنة بين منهج العلماء العرب والمنهج الانثروبولوجى الحديث ·
- مدى تأثر مفكرى الغرب بدراسات الاثنوجرافيين العرب ·

اعتاد معظم المؤرخين للدراسات الأنثروبولوجية ـ ان لم يكونوا جميعا ـ أن يبدأوا فترة تأريخهم للدراسات الأنثروبولوجية بالقرن الثامن عشر بالنسبة للأنثروبولوجيا الاجتماعية التى تركز على دراسة البناء الاجتماعى والنظم والانساق الاجتماعية فى ترابطها وتشابكها ككل مترابط ، وذلك فيما يشيرون إليه عند كل من مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) وسان سيمون Saint-Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) وأوجست كومت Auguste Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) وغيرهم بينما يؤرخون للأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology وهى الفرع الذى يجعل من « الثقافة » منطلقا للتحليل والتفسير الأنثروبولوجى ، وذلك بنشأة مفهوم الثقافة Culture نفسه وتحديد

مفهومه على يد العلامة الأنجليزى تايلور فى عام ١٨٧١ م ٠

ونحن لا نتفق مع هؤلاء لأن النظرة الموضوعية المنصفة تحدد السبق للرواد المسلمين العرب قبل هؤلاء العلماء الأوربيين بما يزيد عن خمسة قرون ، فقد قام هؤلاء المسلمون العرب بدراسات اثنوجرافية على جانب كبير من الأهمية من خلال رحلاتهم المتعددة التى جابوا فيها الممالك وزاروا مختلف الأمم والأصقاع وكتبوا عنها فى دراسات منهجية ذات طابع اثنوجرافى أصيل ولم تقتصر كتاباتهم على مجرد الوصف العابر لعادات وقيم وتقاليد وأنماط هذه الشعوب فحسب ، وانما تعدت ذلك إلى الشرح والتحليل والتفسير تضمنتها عديد من الكتب والأسفار التى حملت الينا هذا الرصيد الأثنوجرافى الضخم ، وقد ترجم العديد من هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية وقرأه العلماء الأوربيون فاستفادوا منه وكتبوا عنه وتأثروا به ـ واذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتسم بالطابع النظرى ، وتعتمد على الاستنباط والنقل عن العلماء السابقين أو الرحالة والمبشرين أو رجال الادارة أو حكام المستعمرات مما جعل الأنثروبولوجيين المحدثين يطلقون عليهم « أصحاب الكراسى المريحة » Armchair Anthropologists أو علماء المكتب Savonts du Bureau فان الأثنوجرافين العرب لم تصدر كتاباتهم وتحليلاتهم من مثل هذا الاطار النظرى الاستنباطى وانما كانت كتاباتهم ـ فى أغلبها ـ نتاجا لمشاهداتهم وملاحظاتهم التى توفروا عليها من خلال رحلاتهم العديدة فى شتى الممالك والبلدان والأقطار ، ولم ينقصهم دقة الوصف الأثنوجرافى أو منهجية التحليل والتفسير فيما كتبوا ، فى الوقت الذى لم يكن قد ظهر فيه على مسرح الفكر اصطلاحات « الأنثروبولوجيا » أو « الأثنوجرافيا » أو « الأثنولوجيا » ٠

ولن نحاول هنا أن نستقصى دراسات كل الأثنوجرافيين المسلمين فهم كثير ، واستقصاء مثل هذه الدراسات وتحليلها يحتاج إلى كتاب كامل ، ولكن حسبنا أن نشير إلى ملامح من دراساتهم الاثنوجرافية التى تعبر عن أفكارهم موضوعا ومنهجا وغاية ٠

والواقع أن الباحث فى تراجم علماء المسلمين العرب يقف على العديد من الأسماء الاسلامية التى بلغ أصحابها القمة فى شق الأقطار والتجوال فى الفيافى والقفار بغية

طلب العلم ونشره ومجالسة أعلامه من ناحية ودراسة الأقاليم وعادات الأمم وقيمها وثقافاتها من ناحية أخرى[1] ومن هؤلاء الامام الشافعى والحافظ بن عسكر وأبى بكر بن العربى وأسد بن القرات ، وللعلامة العربى عبدالرحمن بن خلدون فصل فى « مقدمته » الشهيرة استهله بقوله « ان الرحلة فى طلب العلم مزيد كمال من التعلم » وختمه بقوله « فالرحلة لابد منها فى العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقى عن الرجال » ، وليس هذا بغريب على الاسلام وهو الذى دعا إلى الرحلة فى طلب العلم والتفقه فى الدين . قال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [2] .

ومن أهم أغراض الرحلة فى الاسلام أخذ العبرة وتمثل العظة من خلال استقراء أحوال الأمم الماضية والتبصر فيها ، قال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3]

ولم تكن الرحلة فى الاسلام ترمى إلى مجرد العظة والاعتبار بالسابقين الأولين فحسب ، وانما تهدف إلى دراسة أحوال الأمم الحاضرة[4] ، لقياس الحاضر بالغائب ، واللاحق بالسابق ، وبهذا يشمل هدف الرحلة الدراستين الأثنوجرافية والأثنوجرافية أى التاريخية والوصفية معا ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [5] .

---

(١) راجع بحثنا بعنوان « ملامح الدراسات الأنثروبولوجية فى تراث المفكرين المسلمين » مجلة كلية العلوم الاجتماعية عدد ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م الرياض ص ٣١٣ وما بعدها. حيث اعتمدنا فيه على هذا العرض

(٢) التوبة (١٢٢) .

(٣) الأنعام (١١) .

(٤) محمد الخضر حسين « أثر الرحلة فى الحياة العلمية والأدبية » محاضرات المجتمع العربى بدمشق ج ٣ دمشق ١٩٥٤ ص ٣١٧ - ٣٣٠ .

(٥) النساء الآية ١٠٠ .

ولقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام على الرحلة فى طلب العلم مهما كان بعد المسافة ومشاق الطريق حيث قال « **أطلب العلم ولو فى الصين** » ، ثم ان من فرائض الاسلام مالايؤدى الا بالرحلة نقصد الحج إلى بيت الله الحرام ، ففى تلك الرحلة الطيبة يقف الحاج على أهم العناصر الأثنوجرافية الأثنولوجية التى تزخر بها الثقافة الاسلامية فى اطاريها المادى والروحى معا ، ويتمثل ذلك فى طبيعة الديار المقدسة كالحرمين الشريفين والكعبة والصفا والمرة وبئر زمزم وشعاب مكة المكرمة وعرفات وجبل الرحمة والمدينة المنورة ومنى والمزدلفة ٠٠ الخ ، كما تتمثل العناصر الروحية فى الابتهالات والأدعية والصلوات عند أداء المشاعر وما إلى ذلك من شعائر روحية يتقرب بها الحاج إلى الله تعالى فى أشهر معلومات حيث ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ ﴾ (١) ، واذا كان العرب قبل الاسلام يهتمون بالرحلة لهدف اقتصادى هو التجارة كما فى رحلتى الشتاء والصيف ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ (٢) ، فان الرحلة فى الاسلام تعدت التجارة إلى أهدافها الدينية والعلمية معا لاسيا فيا يتعلق براوية الحديث والتثبت منه ، فجابر بن عبدالله الأنصارى حين سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن أنس يروى حديثا عن رسول الله ﷺ اشترى بعيرا ثم شد رحله وسار إلى الشام فسمع الحديث عن عبدالله وقفل راجعا إلى المدينة ، ولم يعتبر العرب الرحلة عاملا هاما فى تهذيب الطباع وممارسة الحياة وسعة الأفق وما إلى ذلك إلا لكثرة ما يصادفه الرحالة فى رحلته من مشاق تقوى فى نفسه الصبر والحلم ومعاملة الناس بالحسنى والتغاضى عن اساءتهم أو الحقد عليهم ، يقول « بديع الزمان الهمزانى » فى كتاب كتبه لأبى القاسم العرجى يدل على أنه خبر معترك الحياة « فانى وان كنت فى مقتبل السن والعمر قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر » ويقول أحد الشعراء العرب ينصح الرحالة :

إن ترمك الغربة فى معشر ... تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم مادمت فى دارهم ... وأرضهم مادمت فى أرضهم

---

(١) البقرة الآية ١٩٧

(٢) سورة قريش ١ ، ٢ .

وهى نصيحة توجه للأنثروبولوجى الحقلى المعاصر حين يجرى بحثا فى مجتمع يواجه فيه صعوبة جمع المعلومات لتوجسه خيفة من الغريب الوافد ، وفقد الثقة به ، لهذا كان طبيعيا أن تظهر فى الثقافة العربية وآدابها ما يسمى « بأدب الرحلة » والذى يقابل فى الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة ما يسمى « بأسس البحث الميدانى » ولهذا يحمل التراث العربى العديد من وصايا الحكماء العرب للمسافرين والرحالة والتى تدور حول الاحتفاظ بالخلق الكريم وحسن المعاملة مع الآخرين •

وعلى أية حال فان الرحلة لم تكن فى الاسلام للترف أو لمجرد حب الاستطلاع أو التجوال فى الآفاق شرقا وغربا ، فمن هؤلاء الرحالة من تعرض لدراسة النظم الاجتماعية والقرابية والأيكولوجية « أى التى تهتم بعلاقة الانسان بالبيئة » ، وذلك من خلال وصف الحياة المتعددة الأبعاد للأمم التى رحلوا اليها بل من هؤلاء من تعدى مرحلة الوصف الأثنوجرافى إلى مرحلة التحليل المنهجى ، واذا كان الأنثروبولوجى البريطانى المعاصر « ايفانز برتشارد » يرى – فى القرن العشرين أن الأنثروبولوجى لن يصل إلى دراسة حقلية جادة لنموذج دراسته مالم يتعلم لغته المحلية ليجعل من نفسه موضوعا متصلا بثقافة المجتمع موضع الدراسة عن طريق الملاحظة العلمية لمختلف مناشطة اليومية ونظمه الاجتماعية • نقول أن الأثنوجرافيين العرب فطنوا إلى هذه الحقيقة قبل ايفانز برتشارد بقرون عديدة ، فالمقدسى[1] ، يصدر كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » بقوله عن طبيعة المواد الأثنوجرافية التى تضمنها كتابه « وما تم لى جمعه إلا بعد جولانى فى البلدان ، ودخولى أقاليم الاسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقها ، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ، وتفتيشى عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطنى فى الألسن

---

(١) هو أبوعبدالله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى •

والألوان حتى رتبتها ، وتدبرى فى الكور حتى فصلتها ، وبحثى عن الأخرجة حتى أحصيتها[١] » .

وبهذا يعرف المقدسى القارىء بمنهجه الأثنوجرافى تعريفا جامعا مانعا ، فهو لايجمع مادة كتابه عن طريق النقل أو القراءة أو الحكاية أو الرواية أو السماع كما كان يفعل النظريون من أنثروبولوجيى القرن التاسع عشر ، وانما اعتمد على الدراسة الحقلية الجادة ، فهو يخالط العلماء ويجالس الفقهاء ويختلف إلى الأدباء يناقشهم ويتعلم منهم ويأخذ عنهم ، وفى نفس الوقت يشتغل بالتجارة ويمسح الأرض ويتعلم لغة القوم ، ويفطن إلى الأجناس فيعرفها ، وفى اطار هذا المنهج العربى الأصيل ينصح الأنثروبولوجيون المعاصرون الباحث الميدانى بألا يكون مجرد مسجل لما يسمع أو ملاحظ لما يرى ، وانما عليه أن يأخذ دورا ما ـ ما أمكنه ذلك ـ فى البناء الاجتماعى الذى يدرسه ، فيشارك أفراده طقوسهم وشعائرهم وطعامهم وخيامهم ، وأن يتعلم لغتهم ليفهم بعمق وعن كثب أفكارهم من خلال تعبيرهم هم عن تلك الأفكار . ثم يقول المقدسى فى مقدمة كتابه « اعلم أنى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية ، وتحريت جهدى الصواب ، واستعنت بفهم أولى الألباب ، وسألت الله عز اسمه أن يجنبنى الخطأ والزلل ، ويبلغنى الرجاء والأمل ، فأعلى قواعده وأرصف بنيانه وما شاهدته وعقلته ، وعرفته وعلقته ، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان »[٢] .

وبهذا يتحرى العالم المسلم الدقة المنهجية فيؤكد أنه تحرى الصواب فى كتابه ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأنه وصل إلى ما وصل إليه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ورغم هذا يقرر بمنطق العالم الحصيف المتواضع أنه قد يكون وقع فى خطأ غير مقصود لزم التنويه به والاشارة إليه فيقول « ثم لا أبرىء نفسى من الزلل ، ولا كتابى من الخلل ، ولا أسلمه من الزيادة والنقصان ولا أفلته من الطعن على كل حال ، وبعد فان

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن المحروسة ، مطبعة بريل ١٩٠٩ ص ٢ .

(٢) المقدسى ، المرجع السابق ص ٣ .

شرحنا الأسباب التى شرطناها فى الخطبة[١] ، يتفاوت فى الأقاليم ولا يتساوى لأنا انما نذكر ما نعرف ، وليس هو علم يطرد بالقياس فيتساوى وانما يدرك بالمعاينة والخبر فينهى[٢] ، ويعتبر المقدسى من رواد الأتنوجرافيين العرب الذين وصفوا البحار والانهار ، وتعرضوا لأسماء البلدان واختلافها والأقاليم وخصائصها والمواضع المختلف فيها وأقاليم العالم ومركز القبلة وجزيرة العرب والتى يقول انه بدأبها لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبى عليه الصلاة والسلام ومنها انتشر دين الاسلام ، وفيها كان الخلفاء الراشدون ، والأنصار والمهاجرون ، وبها عقدت رايات المسلمين ، وقويت أمور الدين[٣] .

ثم يتحدث عن العراق والشام والمغرب ، ويصف الأنهار ومعابرها وشعابها بما يدل على كثرة التجول ودقة الوصف وعمق المعرفة بأحوال البلاد وتاريخها وبيئاتها وعادات أهلها .

واذا كان المقدسى يركز كتاباته على النواحى الأيكولوجية للأقاليم التى زارها وعاش بينها ، وخبر ناسها فان عالما آخر كالبيرونى[٤] ، يركز فى بعض مؤلفاته على دراسة الهند دراسة اثنوجرافية شاملة وذلك فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة للعقل أو مرذولة »[٥] ، واذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ـ كما يقولون ـ فان هذا العنوان يدل فعلا على ما يحتويه الكتاب من وصف اثنوجرافى خصب شامل لمختلف السمات والمركبات والخصوصيات والعموميات الثقافية للهند سواء ما يتفق منها مع المنطق العقلى أو مالم يتفق ، فالكتاب يحتوى على مقدمة وثمانين بابا أو بحثا يبدأ الباب الأول فى ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نعقده من الحكاية عنهم وينتهى بالباب الثمانين فى ذكر أصولهم المدخلية فى أحكام النجوم والاشارة إلى أصولها فيها

---

(١) يقصد بالخطبة مقدمة الكتاب .

(٢) المرجع السابق ص ٦

(٣) المرجع السابق ص ٦٧

(٤) هو أبوالريحان محمد بن احمد البيرونى الخوارزمى والمتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م .

(٥) الطبعة التى رجعنا اليها والمشار اليها هنا من السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية رقم (١١) والمصححة من النسخة القديمة المحفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس بمجموعة شيفر رقم ٦٠٨٠ طبعت بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد ـ الدكن ـ الهند ٧٧ هـ/٧٨

ويتحدث البيرونى عن الصعوبة التى واجهته فى دراسته للهند بسبب تعذر استشفاف أمورها لأجل القطيعة ، ويفسر أسباب القطيعة تلك فيما بعد باختلاف اللغة والديانة « والرسوم والعادات » فيقول « ومنها أنهم يباينوننا فى الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا وهيآتنا وينسبوننا إلى الشيطنة[1] ، وبهذا يقرر البيرونى طبيعة الاختلاف العميق بين الثقافتين العربية والهندية وما يعكسه هذا الاختلاف من صعوبات تواجه الباحث الميدانى وكيف أن هذا الاختلاف يؤثر فى طبيعة ردود الفعل إلى حد يكاد أن يخوف الهنود أبناءهم بالعرب من خلال اختلاف السحنة واللغة والزى ، وكأنما عنى الشاعر العربى البيرونى فى الهند بقوله :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

والواقع أن « البيرونى » فى كتابه هذا يجمع بين الأثنوجرافيا ، و« الأثنولوجيا » و « الأنثروبولوجيا » حين يحلل البناء الاجتماعى للهند ونظمه المختلفة الدينية والقضائية والعائلية والسياسية والطبقية ، وأنماطه الثقافية المتعددة ، وحين يتحدث عن الموجودات بأنواعها العقلية والحسية والروحية ، وهو لايقف عند مجرد الوصف وإنما يستخدم منهجا من أهم مناهج الأنثروبولوجيا هو« المنهج المقارن » **Comparative Method** حين يقارن بين هذه الأنساق **Systems** والأطر الثقافية فى الهند وما يشابهها أو يتصل بها عند كل من اليونان والفرس والعرب محاولا بالمنهج الانتشارى التاريخى ارجاعها إلى أصولها الأولى ثم لايقف عند حد المقارنة كغاية وإنما يستخلص من خلالها بعض التعميمات والنتائج كتفسير اختلاف اعتقاد الخاص والعام فى كل أمة بأن « طباع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق فى الأصول ، وطباع العامة يتوقف عند المحسوس ويقتنع بالفروع ولا يروم التدقيق » ويمثل لذلك بما بين خاصة الهند والمسلمين وعوامهم فى اعتقادهم بوحدانية الله تعالى[2] ، ومن تعمياته أن « التفكير لايخرج عن

(١) المرجع السابق ص ١٥
(٢) المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢٤ .

رموز النحله ومواضعات الناموس لدى الأمم كما يرجع اختلاف الأمم إلى اختلاف فى الظروف الاجتماعية العامة كاللغة والدين والسياسة والعادات والرسوم وغير ذلك ، وقد تناول البيرونى ـ بالتحليل والتفسير ـ ظاهرة اجتماعية هامة هى ظاهرة انغلاق المجتمع الهندى وعزلته بارجاعها إلى اختلاف هذا المجتمع عن الأمم الأخرى من حيث اللغة والعادات والرسوم والدين والسياسة ، وليس هذا فحسب ، وانما لاعتقاد الهنود بأنهم جنس أسمى من الأجناس الأخرى لدرجة الاعجاب والزهو بأنفسهم وانكار كل ما هو موجود خارج حدود أرضهم ، كما حاول « البيرونى » أن يربط سائر النظم الاجتماعية فى الهند والتى كانت سائدة فى عهده بالدين وهى حقيقة أكدها العلماء من بعده بالنسبة للمجتمع الهندى[1] ، كما حلل البيرونى تحليلا أنثروبولوجيا دقيقا البناء الطبقى فى الهند ، وذلك فى فصل بعنوان « فى ذكر الطبقات التى يسمونها ألوانا ومادونها » حيث ذكر أن هذه الطبقات أربع هى « البراهمة » أعلاها ثم « كشتر » و« بيش » وأخيرا « شودر » التى يعتبرونها أحط الطبقات ، وتحدث عن البناء والوظيفة لكل من هذه الطبقات ودورها فى البناء العام للمجتمع ولم يقتصر عند هذا الحد وانما حاول أن يصل إلى أصل النظام الطبقى فى الهند والغاية منه ، وذكر أن هذا التصنيف الطبقى لايشمل جماعة من أصحاب المهن المنحطة ـ فى رأى المجتمع الهندى حينئذ ـ الذين يسمون « أنتر » كالاسكافيين وصيادى السمك وقناصى الوحوش ٠٠ الخ ، كما أسهب البيرونى فى تناوله للدين عند الهنود فهو يتناول فى الباب الثانى اعتقادهم فى الله سبحانه ، ويؤكد بحثه بما رود فى أمهات كتبهم ثم يتحدث عن اعتقادهم فى الموجودات العقلية والحسية ، وينتقل إلى البحث فى آدابهم وكتبهم فى النحو الشعر[2] ، وفى ذكر معارف شتى عن بلادهم وأنهارهم وبحورهم، وبعض المسافات بين ممالكهم وحدودهم[3] ثم يخصص الباب السابع والعشرين عن « صور السماء والأرض عند المنجمين منهم » ٠

(١) المرجع السابق ص ١٠٤
(٢) المرجع السابق ص ١٣٢
(٣) المرجع السابق ص ١٥٦

وعلى أية حال فقد جمع البيرونى عند الهند فى « تحقيقه » كل ما يهم الأنثروبولوجى أنَ يقف عليه من شتى النظم الاجتماعية والسمات الثقافية فى بحثه الميدانى .

وإذا كانت تلك المادة الأثنوجرافية الخصبة التى يحتويها كتاب البيرونى عن الهند مما ينظر إليه الأنثروبولجيون المحدثون بعين الاعتبار والاهتمام ، فان مقدمة كتابه تعد مقدمة رائعة فى المثيودولوجى Methodology علم المناهج اذ يقول : « انما صدق القائل » ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده وفى مكان حصوله وبهذا يفضل الملاحظة أو العيان عن الخبر . فالخبر ليس صادقا بالضرورة اذ كثيرا ما يلحقه التحريف والزيف والكذب عن قصد أو غير قصد ، ومع هذا فانه لو توافر للخبر فى رأيه شروط الصدق على الدوام لكان فضله أعم من المشاهدة العيانية لأنها إن حققت الخبر فى مكان وزمان معينين فان الخبر لايمكن أن يتحقق بها فى الماضى ، وفى هذا يقول « ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذى لايتعدى آفات الزمان وتناول الخبر اياها وما قبلها من ماضى الأزمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخير لذلك الموجود والمعدوم معا[1] .

وإذا كان البيرونى اثنوجرافيا يعتمد على الوصف والمشاهدة العيانية فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » فانه فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » يبدو اثنولوجيا يتحدث عن « التواريخ التى تستعملها الأمم والاختلاف الواقع فى الأصول التى هى مبادئها ، والفروع التى هى شهورها وسنوها ، والأسباب الداعية لأهلها إلى غير ذلك ، وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها مما يعمل عليه الأمم دون بعض[2] .

ومن الرحالة العرب الذين أثروا الفكر العربى برحلاتهم الأثنوجرافية « ابن

(١) المرجع السابق ص ١

(٢) البيرونى ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية . طبعة بالاوفست ـ مكتبة المثنى ببغداد (بدون تاريخ) .

جبير »[1] والذى جاء كتابه « رحلة ابن جبير »[2] ثمرة رحلات ثلاث قام بها أهمها رحلة استغرقت ثلاث سنوات بدأها يوم الأثنين التاسع من شوال سنة ٥٧٨ هـ وختمها فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شهرم محرم سنة ٥٨١ هـ ·

وتعد رحلة « ابن جبير » سجلا شاملا لكل ما شاهد وعاين من عادات وقيم وثقافات البلدان التى زارها وطوف بها وهو يسجل ما حدث فى رحلته يوما بعد يوم ، ولا يترك شاردة ولا واردة مما رأى وعاين إلا كتب عنها وسجلها ، ومع هذا فابن جبير ليس مجرد حاك أو وصاف لما رأى وسمع فحسب ، وانما ناقد ومحلل لما يكتب ويسجل ، فهو يعرض بحس الناقد المسلم الخبير ماعلق بالدين الاسلامى من بدع وخرافات وأباطيل ليست من الاسلام فى شىء ، وحين يصف المسجد الحرام والبيت العتيق[3] ، وأبواب الحرم الشريف[4] أو يتحدث عن « ذكر مكة المكرمة وآثارها[5] وبعض مشاهدها « وما خص الله تعالى به مكة[6] يصل فى ذلك إلى قمة الروعة وغاية الابداع والموضوعية معا فهو يقول فيا آثر الله تعالى به مكة المكرمة « هذه البلدة المباركة ، سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية ، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكيا عن خليله ﷺ ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[7] وقال عز وجل ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[8] فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى اليها من

---

(١) هو أبوالحسن محمد بن احمد بن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى ، ولد فى بلدة شاطبة سنة ٥٣٩ وتوفى سنة ٦١٤ هـ ، وكان أول ما شغف به علوم الدين التى أخذها عن أبيه ، وأخذ القرآن عن أبى الحسن بن أبى العيس ، واشتهر فيا بعد برحلاته العديدة ·

(٢) الطبعة التى رجعنا اليها طبعة دار التراث ، بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ·

(٣) رحلة ابن جبير ص ٥٣ ·

(٤) المرجع السابق ص ٧٣ ·

(٥) المرجع السابق ص ٧٧ ·

(٦) المرجع السابق ص ٨١ ·

(٧) ابراهيم الآية ٣٧ ·

(٨) القصص آية ٥٧

الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة . فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى من كل مكان ، فهى أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ، ولو لم يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها فى يوم واحد فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب : كالمسك والكافور ، والعنبر والعود ، والعقاقير الهندية ، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة ، إلى الأمتعة العراقية واليمانية ، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية ، والبضائع المغربية ، إلى مالا ينحصر ولا ينضبط مالو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك فى ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام ، من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهى موجودة فيها مدة الموسم ، فهذه بركة لاخفاء بها وآية من آياتها التى خصها الله بها[1] .

وعلى هذا النسق الدقيق من الوصف الأثنوجرافى يسجل ابن جبير ما شاهده بالاسكندرية والقاهرة ويذكر ما بهما من أهل البيت رضى الله عنهم ومشاهد الأئمة العلماء والآثار الاسلامية بالقاهرة ومشاهده بالعراق وسوريا وصقلية وغيرها مما يدل على سعة اطلاعه وعمق خبرته بالشئون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة من الزمن ، وقد استرعت رحلات ابن جبير اهتمام المستشرقين لقيمتها العلمية ، فترجموا القسم المختص بصقلية إلى الفرنسية وطبع فى عام ١٨٦٤ م ، ثم طبع الكتاب كله لأول مرة فى ليدن عام ١٨٥٢ باضافة مقدمة وضعها المستشرق « رايت » ثم أعيدت طباعته عام ١٩٠٧ م .

واذا كان ابن جبير من الأثنوجرافيين المسلمين العرب الذين اهتموا فى رحلاتهم بتسجيل ثقافة البلدان التى زارها تسجيلا ينم عن أصالة فهم ودقة وعى واحاطة بطبيعة تلك المجتمعات ، فان « ابن حوقل »[2] ، مع أنه كان تاجرا الا أنه كان أحد

---

(١) رحلة ابن جبير ، مرجع سابق ص ٨٧

(٢) هو أبوالقاسم محمد بن على الموصلى الحوقلى البغدادى عاش فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى وكانت حرفته الأساسية التجارة .

الرحالة المثقفين الذين اتخذوا التجارة « وسيلة لفهم خصائص الأقاليم وطبائع الشعوب وتدوين ما يتعرفون اليه من ميزات الناس ونوادرهم وغرائبهم .

وقد أعجب ابن حوقل اعجابا كثيرا بكتاب « المسالك والممالك » لأبى اسحق الفارسى المعروف بالأصطخرى ، فكتبه من جديد محتفظا بعنوانه ونسبه إلى نفسه[١] ، ومع أن « صورة الأرض » يعد كتابا فى الجغرافيا والتاريخ ورسم البلدان والتحدث عن حدودها وتخومها وتضاريسها ومناخها ، الا أنه يحوى بين دفتيه من المعلومات الأثنوجرافية والأثنولوجية ما يدخله فى اطار الدراسات الأثنوجرافية العربية ، وقد قدم ابن حوقل كتاب الاصطخرى بعد تنقيحه ونسبته إلى نفسه ما يلى « هذا كتاب المسالك والممالك ، والمقاوز والمهالك ، وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والأزمان ، وطبائع أهلها ، وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها ، وذكر الأنهار الكبار ، واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار ، والنوادر والآثار » ويضاف إلى هذه التقدمة فى بعض النسخ ما يلى : تأليف أبى القاسم بن حوقل رحمه الله ، مختصر فى صور بلاد الاسلام وأخبارها بالكمال والتمام ، جمع الامام العالم أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى رحمه الله تعالى معول فيما جمعه على كتاب الأمام العالم أبى القاسم محمد بن خرداذبة وقدامة بن جعفر الكاتب ، تغمدهم الله برحمته ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم حسبنا الله ونعم الوكيل[٢] ، ويذكر ابن حوقل كيف تسنى له أن يجمع مادة كتابه أو بمعنى أدق كيف استطاع أن ينقح المعلومات التى وصلته من كتاب « المسالك والممالك » وكيف تحمل المشاق ووعثاء السفر ولاقى كثيرا من التعب والعنت فيقول « وقد ذكرت فى آخر كتابى

---

(١) النسخة التى رجعنا اليها بعنوان صورة الأرض لابن حوقل وهى الطبعة الثانية ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، بدون تاريخ ، وقد طبع هذا الكتاب مرتين فى ليدن الطبعة الأولى نشرت باسم المسالك والممالك والمفاوز والمهالك والطبعة الثانية التى نشير اليها نشرت بعد تنقيحها بعنوان « صورة الأرض » .

(٢) صورة الأرض لابن حوقل هامش ص ٧

هذا كيف تعاورتني الاسفار ، واقتطعتني في البردون ركوب البحار ، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها ، وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووصفت رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها من ذوى السلطان وأهل الامكان ، والمقدمين في كل ناحية وبلد الاحسان ، إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم .

ومن التراث العربي الاسلامي في هذا المجال ما خلفه لنا كل من « المسعودى »[1] ، وابن بطوطه[2] ، الأول في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهرى والثاني في كتابه رحلة ابن بطوطه، ويعد المسعودى موسوعة تاريخية اثنوجرافية فقد ألف كتابه « أخبار الزمان » في ثلاثين مجلدا فقدت كلها ماعدا مجلدا واحدا يوجد في مكتبة فينا الأهلية ويدعى « الكتاب الأوسط » وقد لقبه المستشرق دى كريمر De Kremer بـ« هيرودتس العرب » ورغم أن ابن خلدون يصحح الكثير مما ورد في تاريخ المسعودى إلا أنه يلقبه بـ« امام المؤرخين » وأحيانا يلقبه بـ« امام الكتاب والباحثين » والقارىء «لمروج الذهب ومعادن الجوهر»[3] يدرك أن المسعودى كاتب موضوعى واسع الثقافة رحب الأفق تتسم كتاباته بالطابع الأثنولوجى والأثنوجرافي الفضفاض ، ففى الجزء الأول من كتابه يتحدث عن المبدأ وشأن الخليقة ، ثم يتناول قصص الأنبياء

(١) هو أبوالحسين على بن الحسين المسعودى المعتزلى الشافعى ، من ذرية عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، مؤرخ ورحاله ، ولد في بغداد في أواخر القرن الثالث الهجرى وعاش في القرن الرابع الهجرى ، شغف منذ حداثته بالسفر والترحال ، جاب فلسطين وبلاد فارس وأرمينية والهند وبحر الصين ومدغشقر وزنجبار وعمان كما مر بانطاكية ودمشق ، وعاش سنواته العشر الأخيرة متنقلا بين مصر وسوريا ومات في الفسطاط سنة ٩٥٦

(٢) هو أبوعبدالله محمد بن ابراهيم اللواتى نسبة الى احدى قبائل البربر وهو المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين ولد في طنجة سنة ٧٠٤ (١٣٠٤ م) ومكث بها حتى الثانية والعشرين وكانت أولى رحلاته للحج ثم قام بتجوال في بلدان العالم المعروفة في أيامه فزار مصر وسوريا وجزيرة العرب وأفريقيا الشرقية وآسيا الصغرى وروديسيا الجنوبية والهند والصين والأندلس والسودان كما قام برحلات ثلاثة استغرقت زهاء تسع وعشرين سنة أ طولها رحلته الأولى التى زار فيها المشرق والمغرب معا وتوفى سنة ٧٧٩ هـ

(٣) الطبعة التى رجعنا اليها هى الطبعة الثانية جزء أول ونان نشرتها دار الأندلس للطباعة والنشر ببيروت ١٣٩٢ هـ /١٩٧٣ م ضبطها وقدم لها يوسف اسعد داغر .

عليهم السلام وما قبل فى ذلك وأهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد وجمل من أخبار الهند[٥] وآرائها وبدء ممالكها وذكر البحار وأنواعها والملوك وأخبارهم وما قيل فى ذلك وينتقل فى الجزء الثانى إلى ذكر الصقالبه ومساكنها وأخبار ملوكها والأفرنجة والجلالقه وملوكها، وما يتصل بذلك، وعاد وثمود ومكه وأخبارها، وبناء البيت وممن تداوله من جرهم وغيرها، ثم ينتقل إلى ذكر جوامع من الأخبار ووصف الأرض والبلدان وتنازع الناس فى المعنى الذى من أجله سمى اليمن يمنا والعراق عراقا والشام شاما والحجاز حجازا، وينتقل إلى ذكر ديانات العرب وآرائها فى الجاهلية وتفرقها فى البلاد، وذكر ما ذهبت إليه العرب فى القيافة والزجر، والقيافة والسانح والبارح، وغير ذلك • ثم ينتقل إلى ذكر مولد النبى عليه الصلاة والسلام وحياته إلى مبعثه ثم هجرته وجوامع مما كان فى أيامه عليه الصلاة والسلام إلى وفاته ثم ذكر الخلفاء الراشدين وما حدث فى عهودهم وعهود العرب من بعدهم •

وإذا كان الوظيفيون من الانثروبولوجين يتحدثون فى دراساتهم الحديثة عن « النسق الايكولوجى » أو « الايكولوجيا الانسانية » Human Ecology ويشيرون بذلك إلى تتبع العلاقة المتبادلة بين الانسان وبيئته العامة وأثر هذه العوامل البيئية فى النظم الاجتماعية على أساس أنها دراسة مستحدثة، واذا كان علماء الاجتماع يتحدثون عن « المورفولوجيا الاجتماعية » La Morphologie Sociale أو « علم البنية الاجتماعية » الذى يعالج أثر البيئة الجغرافية فى الظواهر الاجتماعية على أنه فكر مستحدث، فانه يمكننا القول بأن التراث العربى الاسلامى قد تحدث عن هذه الأفكار بجلاء ووضوح وبين العلاقة بين البيئة الطبيعية والانسان فيما يذكره المسعودى من أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين فتح العراق والشام ومصر كتب إلى حكيم من حكماء العصر يقول[١]، أنا اناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار ـ فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثره الترب والأهوية فى سكانها •

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤

فكتب إليه ذلك الحكيم « أعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساما ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فما تناهى فى التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته واحراقه لمن دخل فيه ، وما تناهى مغربا أضر سكانه ، لموازاته ،ماأوغل فى التشـريق ، ثم يتحدث الحكيم عن الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق على أساس العلاقة بين الانسان والبيئة الجغرافية لكل من هذه البلاد إلى أن يقول « والأخلاق والصور ـ يا أمير المؤمنين ـ تناسب البلد وتحاذيه ، وتقاربه ، وتوافقه ، وتضاهيه ، وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه ولطف غذاؤه ، كانت صورة أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسس عليه بنيانه ، وكل بلد يزول عن الاعتدال ، انتسب أهله إلى سوء الحال(١) .

أما ابن بطوطة فقد اشتهر برحلاته التى طوف بها الشرق والغرب معا ، وكانت أغلب اقامته فى الهند حيث تولى القضاء عامين ، وفى الصين تولاه مدة عام ونصف عام حيث وصف كل ما شاهد كما تحدث عن الحكام والسلاطين والرجال والنساء وسائر أفراد المجتمعات التى زارها وركز على وصف الملابس والعادات والأخلاق والتقاليد وترتيب المأكل والمشارب ، كما سجل ما شاهد من حروب وغزوات وثورات وفتك بالسلاطين والامراء ورجال الدين ، كما زار بوحى من عاطفته الدينية كافة المساجد والزوايا فى البلاد التى زارها وتحدث عنها ، وكان أول من تحدث عنه جماعة الهنود المعروفين بالجوكية السحرة(٢) ، ووصف عاداتهم ونظمهم الاجتماعية وتصرفاتهم ومكاشفاتهم كما أخبر فى كتابه عن جماعة الاسماعيلية المعروفين بالفداوية وحصونهم وعاداتهم ، كما كان أول رحالة تغلغل فى أعماق افريقية وشاهد مجتمعاتها البدائية وتحدث عن طبائعهم وسماتهم الثقافية بما يحيلها إلى دراسات اثنوجرافية لاسيما اذا أدركنا أن ابن بطوطة كان دقيق الملاحظة يرغب فى أن يطلع على كل شىء غريب ، وأبى عليه منهجه الوصفى أن يصدق ما يسمع دون تمحيص وتدقيق ، لهذا كان يقف

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦

(٢) رحلة ابن بطوطة دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ص ٦ .

موقف الشاك فيا يقص عليه من بعض الروايات فيقدم لها بقوله « يزعمون » أوما يدور حول هذا المعنى ٠

وقد فاق كل هؤلاء العلماء فى دقة البحث والرواية وتحميص الحقائق وتصحيح التاريخ ودراسة العمران ، العلامة المسلم عبدالرحمن بن خلدون ، واذا كانت الدراسات العربية والغربية معا تحدثت عن ابن خلدون كمؤرخ وأول منشىء لعلم الاجتماع وصاحب سبق فى هذا الميدان الا أننا نتحدث عنه هنا كأنثروبولوجى وأثنوجرافى كان له فضل كبير فى هذا المضمار،وتتجلى أصالة ابن خلدون فى أنه لم يكن مجرد أثنوجرافى يجمع الحقائق من مشاهداته ورحلاته كالمقدسى وابن فضلان والأدريسى والبيرونى وابن جبير وغيرهم ممن أشرنا اليهم قبل ، ولكنه فطن من خلال مشاهداته ورحلاته ودراسته لأنساق ونظم وثقافة المجتمعات التى رحل اليها وخبر ناسها وعرف دقائق حياتها إلى أن هناك قوانين عامة تحكم المجتمع الانسانى ، كما فطن بثاقب فكره إلى أن الظواهر أو الحقائق الاجتماعية نفسها تختلف باختلاف الزمان والمكان[١] ، أى أنه قرر ما يمكن أن يطلق عليه النسبية الاجتماعية بمعنى أن مقاييس الخير والشر والفضيلة والرذيلة تختلف باختلاف المجتمعات ذاتها فما يراه شعب مباحا يراه آخر محظورا ، كما أنه كثيرا ما يختلف الحكم الاخلاقى على الشىء الواحد فى أمة واحدة باختلاف عصورها فمثلا كان وأد البنات أمرا مباحا فى الجاهلية ، وجاء الاسلام فحرم هذه العادة تحريما مطلقا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[٢] وفى آية أخرى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾[٣] ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[٤] ، ومن المستحيل أن نرى مجتمعين يتفقان كل الاتفاق فى نظام أو نسق اجتماعى واحد أو حتى

---

(١) على عبدالواحد وافى « عبقريات ابن خلدون » دار عالم الكتب للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م ص ٢٠١

(٢) التكوير ٨

(٣) الاسراء ٣١

(٤) الاسراء ٣١ ٠

5. Lewis Henry Morgan, ***Ancient History,*** Chicago. 1907.

نجد نظاما واحدا ظل عبر التاريخ كما هو دون تغير ما حتى فى أكثر المجتمعات جمودا والتى يقال عنها انها بدائية ٠

واذا كان مبدأ التطور الثقافى Cultural Evolutionism من الاتجاهات الرئيسية فى ميدان الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة ويعزوه الأنثروبولوجيين إلى هربرت سبنسر H. Spencer فى دراسته لتطور المجتمع الانسانى من البسيط إلى المعقد أو إلى أوجست كونت A. Comte الفرنسى (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) فى قانونه الشهير بقانون « الحالات الثلاث » أو إلى لويس مورجان L. Morgan (١٨١٨ ـ ١٨٨١) فى قانونه التطورى من المرحلة الوحشية الدنيا إلى المرحلة البربرية العليا ، أو إلى الأنثروبولوجى الأنجليزى ادوارد تايلور E. Tylor (١٨٢٢ ـ ١٩١٧) فى نظريته عن التتابع الحضارى ٠ إذا كان الأنثروبولوجيون المحدثون يعزون إلى هؤلاء وغيرهم فضل السبق فى المناداة بالنظرية التطورية فان ابن خلدون قد سبقهم جميعا بقرون عديدة حين قرر فى مقدمته أن الاجتماع البشرى لايستقر على حالة واحدة وانما يتغير ويتطور نتيجة ما يلحقه من الأحوال وفى هذا يقول : « ان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ٠ وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول[١] ٠

ولا يختلف منهج ابن خلدون عن المنهج الأنثروبولوجى فى جوهره فقد كان يبدأ بملاحظة الجزئيات ويصل منها إلى أحكام عامة أو قوانين كلية ، ولكنه فى مقدمته التى سجل فيها ما انتهى إليه من أفكار يسوق العديد من القضايا العامة والقوانين الكلية يصدر بها حديثه ثم يأخذ فى التدليل على صحة القانون بالحالات الجزئية التى ينطبق عليها أو التى استخلص منها هذا القانون ، وهو لا يقتصر فى صحة اثبات قانونه على ماشاهده واطلع عليه فى بطون التاريخ وانما يلجأ أحيانا إلى الاستدلال المنطقى متى

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة لجنة البيان العربى ، شرح وتعليق وتحقيق الاستاذ الدكتور على عبدالواحد وافى الطبعة الثانية ، ص ٣٩٩

كانت هناك عناصر يمكن الاقناع بها كدليل عقلى[١] ، تماما كما يعتمد المنهج المقارن Comparative Method فى الدراسـات الأنثروبولـوجية الحديثـة على أسـاس الانتقال من الجزء إلى الكل أو من الخاص إلى العام أى عن طريق استخدام المقارنة بين أنساق اجتماعية أو سمات ثقافية فى مجتمعات متشابهة أو غير متشابهة للوصول من تلك المقارنات إلى القانون العام أو التعميم .

واذا كان الاتجاه الوظيفى وهو من الاتجاهات الحديثة فى الأنثروبولوجيا المعاصرة يعتمد على أساس من تحليل النظام الاجتماعى فى ضوء ما يحدثه من وظائف اجتماعية فى محيط البناء الكلى،ومن هذا المنطلق يركزابن خلدون على دراسة الدين من حيث أهميته فى الضبط الاجتماعى ورقابته الفعالة على سلوك البشر أى من حيث وظيفته فى المجتمع ككل باعتباره أكبر« وازع » يراقب الناس فى السر والعلن[٢] ، ولايقف بهم عند حافة الحياة الدنيا وانما يتغلغل فى العمق الوجدانى متجاوزا الحياة الدنيا إلى عالم الغيب،وهكذا نرى ابن خلدون يفطن إلى هذه الحقيقة منذ أكثر من ست قرون ويتحدث عن أثر الدين فى السياسة وولاية الملك فيقول فى الفصـل السابـع والعشرين من المقدمـة « العرب [٣] لايحصل لهم الملك الا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة»«وإذا كان العرب كجماعات أومجتمعات لايقبلون أن يولى عليهم الا من كان ذا صفة دينية فما ذلك الا لأثر الدين العميق فى نفوسهم وسلطانه على قلوبهم » ، ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله « لأن العرب وهم سكان البادية أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسـة فقلما تجتمـع

---

(١) على عبدالواحد وافى « عبقريات ابن خلدون » مرجع سابق ص ٣٠٤

(٢) محمد عبدالمنعم نور« ابن خلدون كمفكر اجتماعى عربى » بحث ضمن أعمال مهرجان ابن خلدون أصدره المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٩

(٣) يقصد ابن خلدون بالعرب فى مقدمته الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بالرعى ويتخذون من الخيام مساكنهم وتعتمد حياتهم على الانتقال من مكان لاخر طبقا لطبيعة حياتهم وحياة أنعامهم وهم يقابلون سكان الحضر راجع عبقريات ابن خلدون مرجع سابق ص ٣٣٨ وما بعدها حيث يسوق الأستاذ الدكتور على عبدالواحد وافى عديدا من نصوص المقدمة التى تؤيد هذاالتفسير .

اهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم فيسهل انقيادهم واجتماعهم ٠٠ فاذا كان فيهم النبى أو الولى يبعثهم على القيام بأمر الله ويؤلف كلمتهم ٠٠ والعرب أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق الا ما كان من خلق التوحش ٠٠ فان كل مولود يولد على الفطرة » ٠

واذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة قد ترعرعت فى أحضان المجتمعات البدائية أو المتخلفة لدراستها دراسة حقلية منهجية شاملة بغية الوصول إلى القوانين أو المبادىء العامة التى تفسر طبيعة البناء والثقافة لهذه المجتمعات فان ابن خلدون أدرك بثاقب فكره ما لهذه المجتمعات من أهمية فى دراستها فأفرد لها فى مقدمته الباب الثانى من بحوثه الرئيسية الستة التى تدرس ظواهر الاجتماع الانسانى بعنوان « فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل » ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا[١] ، فرعيا وتعرض الفصول العشرة الأولى من هذا الباب للشعوب البدوية ونشأتها وطبيعة حياتها ونظمها الاجتماعية وتعرض الفصول التسعة عشر الأخيرة للحديث عن أنساق اجتماعية متعددة لهذه الشعوب وغيرها كالضبط الاجتماعى والنسق السياسى ، من هذه الفصول «فصل فى أن أجيال البدو والحضر طبيعية» وفصل فى أن «جيل العرب فى الخلقة طبيعى»«وفيه يقول:«قد قدمنا فى الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح ، والقيام على الأنعام ، وأنهم مقصرون على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كمالى ، يتخذون البيوت من الشعر أو الوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة[٢] ، وانما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه ، وقد يأوون إلى الغيران والكهوف ، وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة الا ما مسته النار ٠ فمن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الطعن ،

---

(١) المقدمة ـ ص ٥٧٧ وما بعدها

(٢) اى مزينة

وهؤلاء هم سكان المدن والقرى والجبال ، وهم عامة البربر والأعاجم ، ومن كان معاشه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن فى الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب فى الأرض أصلح بهم ويسمون شاوية ، ومعناه القائمون على الشاء والبقر[١] ، ويسترسل ابن خلدون فى تصنيف دقيق لجماعات إلبدو وطبيعة النظم الاجتماعية وطرائق المعيشة لكل منها ، ثم يتحدث ابن خلدون عن تطبيق نظريته فى التطور العمرانى فيسوق فصلا فى أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران ، والأمصار مدد لها[٢] ، ثم يعود فيتحدث بمنهج من أهم مناهج الأنثروبولوجيا المعاصرة ونقصد به المنهج المقارن الذى أشرنا اليه سابقا ويتخذه أساسا للمقارنة الأثنوجرافية بين العرب والبربر وزناتة بالمغرب ، والأكراد والتركمان والترك بالمشرق فيقول : « ألا أن العرب أبعد نجعة[٣] ، وأشد بداوة ، لأنهم مختصون بالقيام على الأبل فقط ، وهؤلا يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها[٤] .

ان هذا التحليل الدقيق تحليل أنثروبولجى بالدرجة الأولى ولا يتوفر عليه الا عالم كابن خلدون خبر حياة البدو والحضر فى زمانه وقارن بينهما ، وقام بمحاولة ناجحة لتنميط المجتمعات البشرية تنميطا يعتمد على خصائص هذه المجتمعات ، كما أنه فطن بثاقب حسه العمرانى إلى ما يسميه الأنثروبولوجيون المحدثون بنظرية « التغيير البنائى »[٥] ، وسبق بنظريته عديدا من الأنثروبولوجيين الذين تحدثوا عما يسمونه « بالشعوب البدائية » باعتبارها شعوبا جامدة لاتتغير لأنها تعيش بمعزل عن الشعوب المتطورة ولا تصل إليها أية تيارات فكرية أو ثقافية من الخارج . واذا أثبتت الأبحاث الحقلية فى مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية أخيرا أن هذه الشعوب « تتغير » بالفعل وأنها تختلف تماما عن الشعوب البدائية منذ آلاف السنين وان كان هذا التغير بطيئا ، اذا

---

(١) المقدمة ص ٥٧٩

(٢) المقدمة ص ٥٨٣

(٣) أى رحلة أو انتقال من بلد لآخر .

(٤) المقدمة ص ٥٨٢

(٥) راجع احمد أبوزيد التغير البنائى الفصل الخامس من البناء الاجتماعى ، ج ١ مرجع سابق ص ٢٤٤ وما بعدها .

قيس بتغير المجتمعات المتطورة • فلقد أدرك ابن خلدون هذا حين تحدث طويلا فى مقدمته عن نظريته فى التطور الاجتماعى وأوضح فى سياق تحقيقاته التاريخية أن للمجتمعات أجيالا تمر بها فهى تسير من البداوة إلى الملك إلى الحضارة أى لاتقف عند حد البداوة أو الملك مثلا وان كان لابد أن يلحقها الهرم فى النهاية لتعاود الكرة فى التطور مما جعل قانونه قانونا دائريا ، وقد أقر هذا التقسيم بعض أساتذة علم الاجتماع المشهورين ومنهم العالم الأمريكى بتريم سوروكن P. Sorokin

ويعد عالم الأنثروبولوجيا البريطانى ايفانز برتشارد من أقرب الأنثروبولوجيين الغربيين لابن خلدون من حيث منهج البحث وميدان الدراسة معا فكلاهما درس التاريخ وكلاهما درس عديدا من مجتمعات البدو،بل ان ايفانز برتشارد يدعو إلى استخدام المنهج التاريخى الذى يتحمس له ويدعو الدارسين للمجتمعات الانسانية إلى اتباعه ، بل وأعلن أنه عن طريق التاريخ وحده يستطيع أن يدرس المجتمعات دراسة أنثروبولوجية مركزة : وأن هدف التاريخ فى رأيه هو دراسة المجتمع[1] ، معارضا بذلك كلا من راد كليف براون ونادل Nadel, S.F. وغيرهما ممن اعترضوا على استخدام المنهج التاريخى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على أساس أن تلك الدراسة ينبغى أن تصنف وتحلل وتفسر ما يحدث « هنا والآن »[2] ، أى تدرس الواقع الاجتماعى فى الزمان والمكان ، وبهذا يعد الأنثروبولجى مؤرخا للحاضر لا لماضى الظاهرة وهذا هو الفرق فى رأيهم بين « منهج التأويل التاريخى » و « منهج التفسير الأنثروبولجى » فالتاريخ فرضى تخمينى غير قابل للتحقيق لاسيما فى المجتمعات البدائية التى لايعرف الباحث شيئا ما عن البدايات الأولى لها • الأمر الذى يوجب دراستها فى رأيهم دراسة واقعية منهجية كما تدرس العلوم الطبيعية •

ونحن نرى أن « ايفانز برتشارد » الذى تحمس للتاريخ ودعا إلى استخدام منهجه فى الدراسة الأنثروبولوجية الحقلية يتفق مع ابن خلدون فى رؤيته التاريخية وإن كان

---

1. Evans - Pritchard, ***Essays in Social Anthropology.*** Faber. PP. 21-28.
2. Nadel S.F. ***Foundations of Social Anthropology.*** London. 1951.

العالم العربى أكثر اعتدالا من الفريقين المتعارضين فى بريطانيا اذ جمع بين دقة كل من المؤرخ والعالم التجريبى معا من حيث منهجه فى تحرى الوقائع التاريخية وتمحيصها بعين الخبير الناقد الذى يتحرى قواعد التجنب للخطأ ثم هو يستعين بالمنهج العلمى فى دراسته للمجتمعات التى رحل اليها وعاش بها ، هذا المنهج الذى يعتمد على استقراء أحوال تلك المجتمعات ، كما يشير إلى ذلك ابن خلدون فى مقدمته معتمدا على الملاحظة من ناحية واستخدام المنهج المقارن من ناحية أخرى بين تلك المجتمعات وبهذا يجمع بين منهجى التاريخ واستقراء الوقائع معا وكأنه أدرك بثاقب فكره أن هناك وحدة فكرية فى « الميثودولوجى » أى علم المناهج وأنه باستخدام المنهجين التاريخى والاستقرائى معا يتحقق التكامل فى البحث والعرض والتفسير .. لهذا فانه فضلا عن آراء العلماء العرب فى ابن خلدون فان آراء علماء الاجتماع الغربيين والأمريكيين معا تبرز بوضوح أثر هذا العالم العربى العظيم ، والذى ترجمت مقدمته إلى معظم اللغات الحية وكان لها أثرها فى الفكر الغربى إلى حد كبير سواء كان تناول هذا الفكر تأييدا أو معارضة فقد كتب الأستاذ شميت N. Schmidt أستاذ اللغات السامية فى جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية يقول : « ان المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينها فاستعانوا بالوثائق التى كان قد اكتشفها ، والطرائق التى سار عليها ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلا » .

ويقول عالم الاجتماع لودفيج جمبلوفتش (١٨٣٨ ـ ١٩٠٩) :

« جاء عربى تقى قبل أوجست كونت بل قبل فيكو الذى أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوروبى فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة جعلت ما كتبه عبارة عما نسميه اليوم بعلم الاجتماع .

ويقول جاستون بوتول : « يوجد فى مؤلف ابن خلدون عمل مرموق من علم الاجتماع الوضعى يحتوى على القواعد الأساسية لمجتمع أفريقيا ا الشمالية حيث أن

جانبا كبيرا من الأوصاف التى أوردها تنطبق حتى الآن على الحياة الاجتماعية لهذه المنطقة(١) .

وبهذا يمكن القول بأن هذا التراث الضخم الذى خلفه علماء العرب فى الفكر الأنثروبولجى والذى ترجم معظمه إلى العديد من اللغات الحية بعد اضافة هامة فى مجال الفكر الغربى تأثر به وأخذ منه ووضعه موضع التحليل والمناقشة والتفسير ، وبهذا يتضح أن الدراسات الأنثروبولوجية والتى يدعى الأوروبيون والأمريكيون بأنها دراسات جديدة من حيث موضوعها ومناهجها سبقت منذ قرون عديدة بدراسات عربية اسلامية لاتقل عنها أصالة لاسيا وقد تمت فى عصر لم تكن فيه أدوات البحث الاجتماعى وطرق التواصل بين المجتمعات بمثل ماهى عليه الآن ٠

واليوم نرى أنه يمكن للدعوة الاسلامية أن تستفيد من المجال التطبيقى للدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة وذلك عن طريق البحوث الميدانية التى يقوم بها الباحثون المسلمون فى المجتمعات الاسلامية لاسيا النائية والمتخلفة أو تلك التى تحتاج للوقوف على جوهر الدين الاسلامى خاليا من الشوائب والبدع التى تلحق به ٠ فما أكثر البدع والخرافات التى أدخلت على الاسلام ، والاسلام منها براء ، وهذه البحوث الحقلية هى التى تجمع بالطرق المنهجية كل ما يتصل بتراث المجتمع المدروس وتحدد عناصر ثقافته وطبيعة النظم الاجتماعية به ، ومصادر تقاليده وعاداته وقيمه ٠ الأمر الذى يجعل من تلك العموميات والخصوصيات الثقافية مادة خصبة يمكن أن تخضع للفرز والتحليل فى ضوء الشريعة الاسلامية الغراء ٠

---

(١) انظر أعمال مهرجان ابن خلدون ، مرجع سابق، ص ١١٠ وما بعدها ٠

الفصل الثالث

الأنثروبولوجيا وصلتها بالعلوم الأخرى

- الفرق بين العلم والفن ·
- الأنثروبولوجيا بين العلم والفن ·
- صلة الأنثروبولوجيا بالعلوم البيعية ·
- صلة الأنثروبولوجيا بالعلوم الانسانية ·

(علم الاجتماع ـ علم النفس ـ الطب الاجتماعى ـ الرعاية الصحية ـ التربية)

لتتضح صلة الأنثروبولوجيا بالعلوم المختلفة إنسانية أو طبيعية ينبغى أن نشير أولا إلى أن العلوم على اختلاف أنواعها ، تنقسم إلى فرعين رئيسيين هما :

أولا : العلم النظرى ·

ثانيا : الفن التطبيقى ·

والعلم ـ أيا كان نوعه وهدفه ـ يطلق على دراسة مجموعة معينة من الظواهر هى موضوع هذا العلم فى محاولة للكشف عن حقيقتها ونشأتها وتطورها وتحديد وظائفها ، وبيان العلاقات التى تربطها فى مجال العلم نفسه أو تربطها بغيرها من العلوم المختلفة وذلك بهدف الكشف عن القوانين العامة التى تخضع لها ظواهر هذا العلم ، على أساس

أن القانون أو النظرية أو التعميم غاية أساسية لأى علم من العلوم ٠

أما اصطلاح الفن أو البحث التطبيقى فيطلق على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التى ينبغى أن يلجأ اليها الباحث للوصول إلى غايات وأهداف عملية ، فمثلا إذا كان العلم يتصل بدراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية كعلم الاجتماع فان فنه التطبيقى هو الاصلاح الاجتماعى واذا كان العلم يتصل بدراسة الظواهر الفيزيقية للانسان كعلم وظائف الأعضاء أو علم التشريح Anatomy فان غايته العملية أو فنه التطبيقى هو العلاج أو الطب ٠

أى أنه بينما يهدف العلم إلى غاية نظرية وصفيه تقريرية فان الفن يهدف إلى غاية عملية تطبيقية فاذا كان علم الاجتماع أو علم التشريح يرميان إلى وصف وتقرير طبيعة الظواهر الاجتماعية للأول والظواهر العضوية للأخير والوظائف التى تقوم بها كل من تلك الظواهر والعلاقات المختلفة لكل من العلمين فان هدف الاصلاح الاجتماعى أو الطب هو هدف عملى وفن تطبيقى لكل من العلمين السابقين ٠ ولكن هذا الفن يرتكز أساسا على القوانين العامة لكل من علم الاجتماع وعلم التشريح معا ٠

وفى ضوء هذا التحليل لاصطلاح العلم فان مفهوم « الانثروبولوجيا » يطلق على الدراسة العلمية النظرية الكاملة للانسان باعتباره كائنا يتألف من جسم وعقل ، مادة وروح وبالتالى يتميز بخصائص فيزيقية فى تكوينه وتطوره ونموه ، وهذه الخصائص تميزه عن سائر الكائنات وتجعله فريدا فى خصائصه ، كما تدرس الأنثروبولوجيا الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا له وظائفه الحضارية وسماته الثقافية ومظاهره الفكرية التى تتفق فى الجوهر وتختلف فى المظهر باحتلاف الزمان والمكان ودرجة التحضر ، ومعنى هذا أن الأنثروبولوجيا « علم انسانى » كما يدل عليه اسمها ، وهذا يقودنا إلى أن نقسم العلوم الإنسانية نفسها إلى قسمين هما :

(١) علوم فردية تدرس الانسان كفرد مثل علم النفس الفردى وعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ٠

(٢) علوم اجتماعية : تدرس الانسان كعضو فى مجتمع كعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الأديان ٠

والأنثروبولوجيا تشترك فى هاتين الطائفتين من حيث دراستها للانسان الفرد وتطوره التاريخى الفيزيقى وللانسان الاجتماعى فى اطار الأنثروبولوجيا الاجتماعية ٠

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الأنثروبولوجيا هى العلم الذى يختص بدراسة الانسان دراسة متكاملة أى من بعديه الفيزيقى أو البيولوجى والاجتماعى معا ، وأنها بهذا تتميز عن سائر العلوم المختلفة طبيعية وانسانية من حيث أن كلا من تلك العلوم تتناول دراسة الانسان من زاوية معينة قد لاتتعداها ، فبينما تتناول الأنثروبولوجيا الفيزيقية تطور التكوين الفيزيقى للانسان على مر العصور فان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة البناء الاجتماعى والوظيفة من ناحية وأصل الثقافات وانتشارها من ناحية أخرى ، كما أنها العلم الذى يعنى بدراسة وتحليل العلاقة بين الجنس والبيئة من النواحى الجسمية والاقتصادية والاجتماعية وما يرتبط بهـا من أمـور سياسية ودينية وتنشيئية أو تربـوية وفنية ٠٠ الخ ٠

لكل هذه الاعتبارات كان اتصال الأنثروبولوجيا بالمجالات التخصصية الأخرى للعلوم المختلفة اتصالا وثيقا سواء كانت تلك العلوم طبيعية أم انسـانية ، ذلك لأن الأنثروبولوجيا توجه اهتماما كبيرا للوقوف على الأنشطة العقلية والآثار النفسية والمزاجية والمستويات الصحية والجوانب الفنية للسلالات البشرية المختلفة ، كما أن دراسة تطور تلك السلالات يتصـل اتصـالا وثيقـا بعلـم الحفـريات والقياس الأنثروبولوجـى ، وبالاضافة لكل هذا فان الانثروبولوجيا تهتم بدراسة وتحليل الأسس التى تقوم عليها العصبيات والمشاكل العنصرية وما يترتب عليها من مشكلات اجتماعية تتصل بالحقوق الانسانية والمعاملات والعلاقات الاجتماعية وذلك ابتغاء الوصول إلى حل أو تفسـير علمى أو تحليل وضعى أو تطبيق علمى ٠

ان الأنثروبولوجيا تسعى لتحقيق أهدافها العلمية الموضوعية بالاستعانة بطائفة من المعارف المختلفة نظرا لاتساع ميدانها ، وهذه المعارف تنقسم إلى قسمين طبقا لموضوع الأنثروبولوجيا ٠

علوم طبيعية : كالطبيعة والكيمياء العضوية والكيمياء الحيوية وعلم الحياة وعلم الجيولوجيا وما إلى ذلك ٠

علوم إنسانية : وتلك كالتاريخ والجغرافيا البشرية والتربية وعلم الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلم النفس ٠

وتتصل الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو علم التاريخ الطبيعى للانسان بدراسة العلوم الطبيعية خاصة فروع علم الحيوان والدراسات القياسية للسلالات البشرية أو ما يعبر عنه باصطلاح « الأنثروبومترى » Anthropometry كما تتصل بفرع دراسة السلالات المعاصرة أو « السوماتولوجى » Somatology وهو فرع يهتم بدراسة الخصائص المميزة للسلالات البشرية المعروفة والموجودة حاليا وتتصل كذلك بفرع الأنثروبولوجيا السلالية أو العرقية Racial Anthropology وهو فرع يهتم بتتبع المورثات Gens فى كل سلالة وتوضيح تسلسلها وآثارها الاجتماعية وما يترتب على امتزاجها بمورثات متباينة وأثر ذلك من الناحية الوظيفية سواء ما اتصل منها بالجانب النفسى أو العقلى وله اتصال بعلم الوراثة ، وبالاضافة إلى هذا فان الأنثروبولوجيا الفيزيقية تتصل بالدراسات الكيائية الحيوية وبالبحوث الطبية خاصة فى الحالات المرضية ٠

وإذا كانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تتصل بتلك العلوم إتصالا وثيقا فان الأنثروبولوجيا الثقافية تتصل بدراسات أخرى أهمها ٠

(١) علم الأركيولوجى Archaeology « الآثار القديمة » :

ويهتم بدراسة الالآت والادوات ووسائل الانتاج المختلفة فى المراحل التاريخية المتتابعة كما يهدف إلى إعادة البناء فى عملية تصورية للحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ ، واذا كان علم التاريخ يسجل فترات المدنيات الكبرى فى الشرق الأوسط وأوروبا والشرق الأقصى فان الأركيولوجى يهتم بدراسة المراحل التاريخية الطويلة التى قضاها الانسان فى اكتشاف القراءة والكتابة ، معتمدا على البقايا التى خلفها الانسان وذلك من خلال استخدام مناهج دقيقة لفحص هذه البقايا وتسجيلها وتحديد مواقعها وتصنيفها ومقارنتها ببعضها البعض وذلك عن طريق كربون ١٤ أو

طريقة الكربون المشع ، ويتعاون الأركيولوجيون والمؤرخون مع الأثنوجرافيين من خلال ما يتوصل إليه كل منهم من معلومات تلقى الضوء على العلوم الأخرى ٠

(٢) الفولكلور الشعبى :

وهو عبارة عن التراث القومى المتناقل عن طريق التواتر الشفهى ، ويهتم بجمع وتحليل ودراسة الدراما والموسيقى والقصص الشعبى ، ولا يقتصر علم الفولكلور على القاء الضوء على تاريخ ثقافة معينة وإنما يتعدى ذلك إلى تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات المختلفة سواء كانت ثقافات متقدمة أم متخلفة وتلك هى ما يطلق عليه الأنثروبولوجيون عملية « التثقف من الخارج » Acculturation [١] وهى التى تتم نتيجة التقاء ثقافتين مختلفتين ٠

و(٣) علم اللغويات : Linguistics

ويهتم هذا العلم بتحليل اللغات فى زمن معين لدراسة نظمها الصوتية وقواعدها ومفرداتها بالاعتماد على اللغة الكلامية وذلك عن طريق الاستماع إليها خاصة أن مثل هذه اللغات تكون صوتية أى لم تكتب بعد ، ويقوم عالم اللغة بكتابتها عن طريق استخدام رموز دولية فى المجتمعات البدائية ، كما يهتم هذا العلم كذلك بالجانب التاريخى المقارن اذ يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التى يمكن تتبع تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة ، وان كانت المشكلة تصبح أكثر تعقيدا حين يواجه العالم بلغات قديمة لاتتوفر وثائق مكتوبة لها[٢] ٠

ويتحقق التعاون بين الأنثروبولجى وعالم اللغويات عن طريق ما يقدمه الأخير للأنثروبولوجى من دراسة اللغة وتحليل عناصرها بالنسبة للمجتمع المدروس مما يساعد على دراسة الثقافة دراسة موضوعية ٠

---

(١) محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، دراسة فى الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعارف القاهرة الطبعة الثانية ٧٨م ٠ ص ٢٠

(٢) عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعارف القاهرة الطبعة الاولى ١٩٧٥ م ص ٣٣ ٠

ومن سياق هذا العرض السريع يتضح لنا بجلاء مدى التقاء العلوم الانسانية ببعضها البعض من حيث قيامها على دراسة الانسان كمحور لتلك العلوم على اختلاف ميادينها وتشعب موضوعاتها وغاياتها كما يعد الانسان فى تلك العلوم كلها الوسيلة والغاية معا الوسيلة التى يقوم عليها العلم فى عرضه للمسائل الانسانية وتناول جانب أو عدة جوانب منه للدراسة والتحليل ، والتفسير كما أنه الغاية التى يلتقى عندها العلم وهى غاية الفهم والتفسير وذلك من حيث علاقته بأخيه الانسان من ناحية وبالكون الذى يعيش فيه ودوره فى هذا الكون من ناحية أخرى ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

﴿ خلق ا لانسان علمه البيان ﴾

ويقول تعالى :

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾

إن هذه الصورة المثلى التى خلق الله الانسان عليها هى التى تسعى العلوم الانسانية والفيزيقية جاهدة فى سبيل تحليلها وتفسيرها وفهمها وفى كل هذا تعميق لايمان الانسان بالخالق جل وعلا وإدراك لسر عظمته وبديع تكوينه ٠ ولكن ٠

ما موقف الأنثروبولوجيا بين الاتجاهين التخصصي والتكاملى فى دراسة هذا الانسان ؟

يرى بعض العلماء ضرورة أن يسود التخصص فى العلوم إلى أقصى مداه بمعنى أن توجد فواصل بين أنواع المعرفة وأن يستقل كل منها بميدان خاص لايتعداه إلى غيره على إعتبار أن سلوك الجنس البشرى تطور على شكل مجموعة من الانماط المتمايزة فيما بينها وأنه لايصح طبقا لهذا المنطلق أن ندمج علوما تخصصية فى أخرى ٠ فمثلا رجل السياسة عليه أن يدرس النظم السياسية للأجناس البشرية بعيدا عن أية دراسة أخرى، وعالم الاقتصاد عليه ان يقوم بدراسة الإنتاج والتوزيع والاستهلاك ومجالات الاقتصاد فحسب، وعالم الدين يقوم بدراسة امور الشرائع ، والمعتقدات ومايتصل بها من طقوس ومراسم بعيدا عن الاستعانة أو الاستفادة من الدراسات الأخرى ، وهؤلاء يعللون اتجاههم هذا بأننا نعيش فى عصر يسوده التخصص وتقسيم العمل وهما يقضيان بضرورة أن يتخصص كل فى ميدان بعيد لايتعداه إلى غيره ، ولكن هذا الاتجاه الانفرادى مرفوض شكلا وموضوعا من علماء الأنثروبولوجيا لأن من

شأن هذا الاتجاه عرقلة الدراسة الأنثروبولوجية وإبعادها عن متابعة المشكلة التى يدرسها الأنثروبولوجى وهى مشكلة من شأنها أن تمتد وتتفرع وتتشابك مع دراسات متنوعة فى مجالاتها التخصصية كما ان مثل هذا الاتجاه يؤدى إلى سطحية البحث وضحالته بسبب ما يفرضه من حصار وهمى بين العناصر المتكاملة للمشكلة الانسانية ولهذا فان هذه النظرية التخصصية الانفرادية تعد ضربا من المعوقات المنهجية التى لامبرر لقيامها ، ولا ضرورة للابقاء عليها ، فالواقع أن هناك كثيرا من التداخل بين العلوم الاجتماعية بعضها مع البعض الآخر ، وأن هناك عددا كبيرا منها يتأرجح بين الانسانيات والعلوم الطبيعية كالأنثروبولوجيا والتى تدرس فى جامعات انجلترا من خلال منظورين أحدهما يدرس بالكليات العلمية اذا كانت الدراسة تتعلق بالأنثروبولوجيا الفيزيقية والآخر يدرس بالكليات الأدبية اذا كانت الدراسة تتعلق بالأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وإذا كان الباحث فى العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والطب والاحياء يستطيع أن يميز بين موضوعاتها بسهولة فان الباحث فى علوم الاجتماع أو الاقتصاد الاجتماعى أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الجغرافيا البشرية أو الأتنولوجيا أو التربية أو القانون أو علم النفس لايستطيع أن يفصل فصلا تاما بين موضوعات تلك العلوم فمثلا اذا كان موضوع علم الاجتماع العلاقات والظواهر الاجتماعية فإنه يفيد من البحوث الأخرى الكثيرة التى تعرض لبعض ظواهره ، كالسياسة ، كما أن الزواج نفسه وهو ظاهرة اجتماعية لا يتم الا طبقا لنظم معينة كالمهر وما يقتضيه من عمليات تتعلق بتجهيز وتأثيث بيت الزوجية مما يدخل الزوجين فى علاقات اقتصادية معينة ثم ان هذا المهر نفسه يحدده الدين ويجعله حقا ثابتا للزوجة يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

ثم أن الزواج نفسه لايتم إلا عن طريق طقوس ومراسم دينية خاصة كعقد العقد والمهر والشهادة ونية الابدية فى الزواج حسبما تحدد الشريعة الإسلامية الغراء .

وإذا كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة البناء الاجتماعى والوظيفة فى مكان وزمان معينين فان هذا البناء لايكون إلا من خلال شبكة مترابطة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة فيما بينها ، وهذه العلاقات نفسها قد تكون اقتصادية أو سياسية أو أسرية أو قرابية الأمر الذى يفرض على الأنثروبولوجى أن يكون ملما بدراسة هذه

العلوم.صحيح انه ليس من الضروري أن يكون متخصصا فى كل منها ولكن عليه الرجوع إلى أحدث ما وصلت إليه من أبحاث حتى تتسم دراساته بالعمق والشمول الأكاديمي والذى يعد من أهم مقومات الدراسة الأنثروبولوجية •

ولهذا فان الدراسة المتكاملة فى ميدان « علم الانسان » تتناول الموضوع من زواياه المتعددة بما ينطوى عليه من دراسات بيولوجية وراثية وتشريحية وتاريخية ولغوية ونفسية واقتصادية وسياسية ودينية وفلسفية وفنية وخلقية خاصة اذا كان الباحث يدرس الأصول الأثنولوجية والثقافية والتى يعبر عنها بالجوانب الخلفية للثقافة الكلية The Back Drops of the Total Culture لجماعة من الجماعات • ذلك أن الباحث بصدد بحثه عن تلك الأصول الثقافية يتعين عليه أن يستعين بالمعلومات المتواترة والأخبار الشائعة والحكم والأمثال السائرة إلى جانب عنايته بتحليل الوثائق والمستندات التاريخية النادرة التى يقدمها علم الحفريات وعلم الآثار القديمة •

وعلى أية حال فان علم الأنثروبولوجيا ـ كما أسلفنا القول ـ يميزه عن الدراسات الانسانية الأخرى استخدامه لمنهج المقارنة • هذا المنهج الذى يعد ركيزة هامة فى دراسات علم الإنسان بصفة عامة ، واذا كان المؤرخ يؤرخ لبلد معين أو عصر محدد ، وعالم الاجتماع يقصر نشاطه على حضارة ما يجعلها منطلقه فى تفسير وتحليل نظمها الاجتماعية فان الأنثروبولوجى يجعل من جميع أجناس البشر مادة أساسية لدراسته ، ويبدو منهج المقارنة واضحا حين يدرس الأنثروبولوجى الفيزيقى شعر الزنوج من حيث لونه وطبيعته وشكله وتجاعيده وطوله وخصائصه بصفة عامة فانه يقارنه بشعر الصينيين والبيض وغيرهم من الأجناس البشرية فى محاولة لتصنيف تلك الأجناس من حيث طبيعة الشعر ومقوماته • كما أن الأنثروبولوجى الاجتماعى يستخدم منهج المقارنة حين يحلل المعتقدات والأعمال السحرية والطقوس والمراسم المختلفة فى عديد المجتمعات التى يدرسها ليصل إلى تعميم يحدد من خلاله كيفية معالجة الشعوب لمشاكلها المختلفة عن طريق النظم التى يدرسها •

على أن منهج المقارنة لم يعد الآن قصرا على الأنثروبولوجيا وانما تعداها إلى علوم النفس وبعض فروع الطب وعلم الاجتماع ، فعلماء النفس يدرسون سيكلوجية الطفل

فى المجتمعات المختلفة دراسة مقارنة ، وعلماء الأمراض العقلية يهتمون بدراسة الأمراض التى تصيب مختلف الشعوب ويحاولون الوصول إلى الأسباب المتعددة التى تكمن وراء تلك الأمراض ، ولهذا فان كلا من علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأمراض العقلية تعد من العلوم التى يلجأ اليها الأنثروبولوجى لاختبار نظرية أوتوضيح مشكلة أو ليجد سؤالا أو فرضا جديدا يحتاج إلى تحقيقه علميا •

ومن الأهمية أن نشير إلى أن لكل من علم النفس وعلم الانسان موقفا خاصا من العلوم الحيوية والانسانية معا ذلك أن كلا من علم النفس وعلم الانسان يعدان همزة الوصل أو المعبر بين العلوم التجريبية كالكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء وبين علوم السلوك الانسانى كعلوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وبمعنى توضيحى يمكن القول بأنه اذاكان كل من علم الفسيولوجيا والطب يدرسان الانسان من حيث هوكائن حى ويدرسه كل من علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة من حيث كونه كائنا حيا بشريا له سلوكه الانسانى الخاص به فان كلا من الأخصائى النفسى والأنثروبولجى يجمعان بين الدراستين السابقتين من حيث بحثهما فى سلوك الانسان البشرى من ناحية وطبيعته الفيزيقية الحيوية من ناحية أخرى • بيد أن هناك فرقا بين عالم النفس وعالم الانسان فى موضوع الدراسة فبينما يقصر عالم النفس دراسته على الفرد فان الأنثروبولوجى يركز اهتمامه على الجماعة المختارة ، واذا ركز على فرد ما فيها فانما من خلال دوره البارز فى تلك الجماعة ، واذا ركز عالم النفس فى دراسته على السلوك الفردى وأثره فى تكوين الشخصية ككل ومدى تأثر الشخصية بالبيئة الخارجية نفسية كانت أو ايكولوجية أو اجتماعية فان الأنثروبولوجى ينظر باهتمام إلى تقدم الفنون الآلية والتكنولوجيا وأثرها فى الحضارة وذلك فى اطار دراسته للثقافة وتطورها وخصائصها •

وأما فى مجال العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع فانهما يلتقيان فى مسائل عديدة منها ان كليهما يدرس الظاهرة الاجتماعية دراسة تكاملية أى من حيث الحاضر والماضى معا لاسيما اذا كان الاعتماد على التاريخ الحقيقى لا الظنى ، وكلاهما يهدف إلى الوصول إلى نظرية أو قانون عام يفسر طبيعة الظاهرة الاجتماعية تفسيرا يعتمد على الواقع المدروس ، كما يعتمد كل منهما على الدراسة الموضوعية محاولا أن يبتعد عن

النظريات والأطر الفلسفية أو الأفكار « اليوتوبية » التي اتسم بها الفكر الاجتماعي قديما وفي العصر الوسيط حتى أتيح للعلامة العربي المسلم عبدالرحمن بن خلدون أن ينادي بانشاء علم العمران أو الاجتماع الانساني أي علم الاجتماع ، كما كانت له مساهماته الرائدة في الدراسات الأثنوجرافية والأثنولوجية والتي قدمها من خلال رحلاته العديدة للبلدان العربية التي خبر ثقافتها وتحدث عنها حديث العالم الخبير ٠

لقد كان من أهم السمات التي تميز الأنثروبولوجيا عن علم الاجتماع في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن الأنثروبولوجيا تركز في دراساتها على المجتمعات البدائية بمنهج الدراسة الحقلية المركزة التي تعتمد على معايشة المجتمع ودراسته دراسة بنائية ثقافية متكاملة ، بينما يركز علم الاجتماع في دراسته على المجتمعات غير البدائية مدنية كانت أو ريفية ، لدرجة أن عرف بعض العلماء الأنثروبولوجيا بأنها علم دراسة المجتمعات البدائية ، بيد أن هذه الخاصية لم تعد تنطبق على الدراسات الأنثروبولوجية بعد أن بدأت الأنثروبولوجيا تغزو في دراساتها المجتمعات غير البدائية كالمجتمعات القروية والبدوية والمجتمعات المدنية الصغيرة كمجتمع المصنع والمجتمع المهني والحرفي ، والمجتمعات المستحدثة سواء المهجرة أو المنشأة أو غيرها ، ومع كل هذا فلا زال للدراسات الأنثروبولوجية ما يميزها من حيث تناولها للمجتمعات الصغيرة المحدودة ، وهذا أمر طبيعي يستدعيه المنهج الأنثروبولوجي نفسه في سمته الحلقية حيث لا يعتمد على منهج دراسة الحالة أو الاستفتاء أو الاعتماد أساسا على المنهج الاحصائي ٠٠ الخ كما هو الحال في الدراسات السوسيولوجية المعاصرة ٠

ورغم هذا فان التعاون بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا تعاون وثيق ، فعلماء الاجتماع يستفيدون من نتائج الدراسات الأنثروبولوجية في مجال العرض والمناقشة ، والمقارنة والتحليل والتفسير لظاهرة اجتماعية ما ، وذلك لتعميق مفهومها السوسيولجي ، كما يستفيد الأنثروبولوجيون من نتائج الدراسات السوسيولوجية أيا كان نوعها ، أو ميدانها وذلك في مجال المقارنة ، والعرض والتحليل ، وقد أصبحت بعض المجتمعات كالمجتمعات الريفية ميدانا لكل من الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية معا ، وان اختلف منهج الدراسة في كلتا الدراستين ٠ وبهذا يصعب الفصل أو اقامة الحواجز

الكثيفة بين دراسات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، لدرجة أن أطلق راد كليف براون زعيم المدرسة الوظيفية الأنجليزية على الأنثروبولوجيا اصطلاح « علم الاجتماع المقارن » •

تلك المدرسة بالذات اعتمدت اعتمادا كبيرا على المدرسة الاجتماعية الفرنسية بعامة وأفكار اميل دور كاييم بصفة خاصة ، كما سنعرض لذلك فيما بعد •

وتتصل الأنثروبولوجيا بالطب الاجتماعى :

على أساس أن الطب الاجتماعى هو العلم الذى يبحث فى علاقة الصحة العامة للأفراد بالمستوى الاجتماعى لهم ومدى الأثر المتبادل بينهما من ناحية ومدى تأثر الصحة العامة بالمستوى التكنولوجى والقيم والعادات والأعراف كمؤشرات هامة فى الحياة الصحية من ناحية أخرى[١] ، ويعتبر الطب الاجتماعى ميدانا حديثا ويتصل اتصالا وثيقا بالأنثروبولوجيا من حيث دراستها للمجتمعات البدائية التى تركز عليها من ناحية واتجاهها الحالى لدراسة مجتمعات أكثر تقدما وتعقدا واهتمام الدراسات التكاملية بمعالجة مشكلات محددة ، كل هذا يستلزم البحث عن العلاقة بين المستويات الثقافية والتكنولوجية والصحية العامة للمجتمع المدروس أى العلاقة بين دراسات علم الانسان والطب العلاجى والذى يضع فى اعتباره أمرين أساسيين يحكمان دراسته هما :

١ ـ الاطار الاجتماعى والثقافى لمجتمع ما ليس الا انعكاسا صادقا لكيفية معيشة أفراده ونوعية طعامهم ومعتقداتهم الشعبية وقيمهم ومستواهم التكنولوجى والحضارى الذى وصلوا إليه •

٢ ـ الصحة العامة نشاط اجتماعى وثقافى تؤدى إلى قيام الأفراد بأدوارهم الاجتماعية فى سلم البناء الاجتماعى ، ولهذا لايمكن إنكار مدى أثرها على المحتوى الثقافى والاجتماعى لمجتمع ما لهذا كان لزاما على الأنثروبولوجيين والعلماء الاجتماعيين بصفة عامة العمل على اعادة تخطيط منظم لبرامج الصحة العامة من خلال دراسة شاملة لمصادر الثروة القائمة بالفعل والأحوال الصحية للأفراد ومستوى التعليم وأنماط العائلة ودرجة كثافتها وتحديد الأهداف التى يرجى اتخاذها فى وقت ما وقد نشأ عن هذا ما

(١) أحمد الخشاب • دراسات أنثروبولوجية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠

يسمى بالمعادلة الثقافية The Cultural Equation للطب والصحة العامة والمرض والعلاج • وتعتمد هذه المعادلة على أساس الارتباط القائم بين الثقافة والمستوى الصحى لمجتمع ما • فبعض الجماعات المتخلفة تعتقد فى عبادة الأرواح الخفية من حيث انها تنفع وتضر مما جعل تصورات الرجل تتم من خلال عادات ومعتقدات وطقوس وشعائر ذات مسحة سحرية وترتبط بها حالات تنشأ عن الأرواح الشريرة أساسا وتؤدى الى ضرر الانسان ، ومن هذه الحالات التى تنشأ عن تلك الأرواح الضعف العقلى والجنون والصرع والهوس ، وتلك كلها أمراض يلجأون للتداوى منها عن طريق الضرب المبرح أو الكى بالنار أو حمل التمائم أو المجهود الجسمى العنيف اعتقادا منهم بأن مثل تلك الطرق القاسية العنيفة لا تتحملها هذه الأرواح الخبيثة فتهرب منها ويشفى المريض أو أنهم يتصورون أن بتلك التمائم قوة خفية تحارب قوى البشر ، ولهذا فان حمل مثل تلك التعاويذ يبعث الطمأنينة الى النفوس، ويهدىءمن ثائرة العنف التى تثيرها الأرواح الخبيثة • وهذا يفسر توسل البعض للتمائم ولآلات الطب التى يستخدمونهالتشفى مرضاهم كما هو الحال عند زنوج أفريقيا ، ويعد شفاء المرضى عند الأقوام المتأخرة فرعا من السحر لهذا كان تركيزه على الأرواح والروحانيات واستخدام التمائم والرقى وتقديم القرابين ، ولهذا فان أقوام الفيجى يتصورون قوة الدواء وفعاليته فيما به من قوة سحرية ممثلة فى الرغاوى والفقاقيع ، بل ان بعض هؤلاء الأقوام يتوهمون أن القوة الكامنة فى الدواء تنبع من رائحته الكريهة أو من مذاقه المر ، وفى قبيلة الشلك بجنوب السودان يتخذون من روث البقرة بالذات وهى حيوان مقدس عندهم يتخذون منه دواء وأحيانا يدهنون به شعورهم للزينة ، كما أن البدائيين بجنوب السودان يدهنون أجسامهم بالزيت للزينة ولتكون أجسامهم ملساء تماما تمكنهم من الهرب بالليل عندما يسطون على بعض الأكواخ الأخرى لاجتذاب الفريسة كما يستخدم بعض البدائيين دهن الخفافيش والوطاويط لعلاج الروماتيزم ويعتقدون أن اللون الأحمر يذهب المرض ويشفى الجسم فيلفون المريض بأقمشة حمراء اعتقادا بأن هذا اللون يساعد على طرد الأرواح الخبيثة من المريض ويجلب له القوة والحياة •

ومن دراستنا الميدانية لقبيلة الشلك بمحافظة أعالى النيل بجنوب السودان اتضح أن

الأمراض المتوطنه بهذه القبيلة ترجع جلها ان لم يكن كلها إلى أسباب ايكولوجية وأهم هذه الأمراض ما يلى :

١ ـ الحمى السوداء :

وهى مرض تختص به هذه المنطقة دون سواها وترجع الاصابة بها الى ذبابة خاصة تنتشر فى تلك المنطقة وتسمى الذبابة الرملية ٠

٢ ـ الحمى الرجعة ٠

٣ ـ الملاريا ٠

٤ ـ السل الرئوى ٠

٥ ـ أمراض نقص التغذية ٠

٦ ـ الأمراض العقلية ٠

وتنشأ تلك الأمراض عن تناول ما يسمى بالمريسة والعرقى وهى انواع من المأكولات الكحولية ٠

٧ ـ البلهارسيا وهى من الأمراض غير المنتشرة ٠

ويندر بينهم الاصابة بالسكر « البول السكرى » وأمراض القلب ويرجع الأطباء هذا إلى البعد عن الحضارة من ناحية والتحدى العقلى والنفسى الذى ينتشر عادة فى المجتمعات المتحضرة ، كما لوحظ ان الاصابة بالملاريا واسعة الانتشار فى هذه المنطقة ، وقد أثبتت البحوث الأكلينيكية أن الملاريا فى تلك المنطقة تغزو أجهزة الجسم حتى أنها تسبب أمراضا معوية كما تغزو المخ والجهاز العصبى ولذا تعتبر من أهم الأسباب التى تؤدى إلى الأمراض العقلية كما أن جهلهم بالمبادىء الصحية يسبب انتشار السل

وهو من الأمراض التى تؤثر على الجهاز العصبى وتسبب فى كثير من الأحيان شللا نصفيا لعدد كثير من المرضى ، وتعتبر هذه المنطقة من أولى المناطق فى العالم التى ينتشر فيها هذا المرض بهذه الصورة[1] ٠

ومن هذا يتضح أن هناك علاقة بين الأطر الثقافية ، والصحية العامة ، كما أن

(١) هذه المعلومات الطبيه حصل عليها الباحث من مستشفيات المنطقة نفسها وتقارير الاطباء بها ٠

هناك تأثيرا متبادلا بين البناء الاجتماعى والبناء القيمى وبين الكيان الصحى فى مجتمع ما ، ومن الجدول التالى يتضح أثر العوامل الاجتماعية على الحالة الصحية فى المجتمع[1] .

العوامل الاجتماعية	اسم المرض	العوامل الاجتماعية	اسم المرض
شرب اللبن غير المعقم	حمى ملطية	السكن فى الأماكن الخربة	سل
شرب الماء من أماكن ملوثة	دوسنتاريا والتهاب الكبد	عبادة البقر	نقص فى التغذية « أنيميا »
زيارة الدجالين	سرطان	الاستحمام فى مياه الترع	بلهارسيا
الغنى والتخمة	مرض السكر وتصلب الشرايين	المعيشة فى الأماكن الحارة	ملاريا
فقد التوازن فى العناصر الغذائية	كساح	المعيشة فى القطبين الشمالى والجنوبى	عدم نمو بعض الميكروبات
الحفاء	الانكلستوما وبعض الطفيليات الاخرى	العمل فى الحقل الذرى والاشعاعى	أمراض الاسعاع والعقم

وبهذا يمكن القول بأن هناك علاقة بين الثقافة ومستوى الصحة فى المجتمع ، ولما كانت الانماط الثقافية تتعدد بداخل المجتمع الواحد لاسيا اذا كان من المجتمعات النامية حيث توجد القرية والمدينة والمجتمع التقليدى فان لكل نمط ثقافى درجة معينة فى تأثيره على بعض القيم والاتجاهات والمعتقدات وتلك ذات تأثير معين على الصحة العامة كما يتضح من الجدول السابق الامر الذى يدعو الى ضرورة مراعاة أى برنامج صحى

(٢) احمد الخشاب ـ دراسات انثروبولوجية ـ مرجع سابق ص ١٧٨ .

لتطوير هذه الأنماط بما يتفق وطبيعة البناء الاجتماعى Social Structure وبالتالى الثقافة التقليدية Traditional Culture كما أنـه ينبغـى استغـلال هذه الخصائص والسمات والأنماط الثقافية استغلالا سليما عنـد وضع أو تحـديد البرامـج وتخطيطها وذلك لأن هذه النماذج والأطر الثقافية تشكل عادات وقيم الأفراد منذ نشأتهم وعلى القائمين ببرامج الاصلاح فى هذه المجتمعات ملاحظة طبيعة الحياة فى المجتمع المدروس ومدى تعقدها،انخفاض أو ارتفاع المستوى الاقتصادى والوعى الصحى بها ، وبهذا فان البرنامج الصحى يدعو دائما الى مسح ثقافى وتصميم لتخطيط متواصل ، كما يتطلب بالتالى توعية الأفراد للارتفاع بمستوى صحتهم •

وعلى أية حال فان الأمر يتطلب فى هذا الصدد تدريب العناصر البشرية لتكون قادرة على رسم وتخطيط البرامج الصحية السليمة والقائمة على أسس علمية موضوعية ، وبهذا تعتمد الرعاية الصحية على أساس الاقناع والارشاد بكافة الوسائل الاعلامية السمعية والبصرية وذلك للقضاء على المعتقدات الخاطئة وما ينشأ عنها من وسائل طبية تضر بالكيان الصحى وقد تؤدى الى الهلاك نتيجة الجهل بكل وسائل الوقاية والرعاية الصحية •

تطور الدراسات الانثروبولوجية المتصلة بالرعاية الصحية(١)

تطورت الدراسات الانتروبولوجية الخاصة بمعالجة مشكلة الرعاية الصحية ومرت بأطوار متعددة • ففى القرن السادس عشر عالج بعض العلماء البريطانيين البحارة المصابين بسوء التغذية بعصير الليمـون ، كما أن العالـم الايطـالى فرانـكا ستـورو Francostoro فطن فى منتصف القرن العشرين الى النظرة إلى عدوى المرض من حيث أساسها الاجتماعى لا من حيث انها عملية فسيولوجية بحته وكان ذلك حين عالج عدوى أمراض الطاعون وحمى التيفود على أساس أنها انتشرت عن طريق اختلاط المرضى بالأصحاء اختلاطا مباشرا وقرر حينئذ أن أمراض الطاعون والتيفود والتيفوس انما تنتشر بطريق السريان الاجتماعـى والانتقـال من خلايا التجمعـات والمشـاركة المعيشية •

(١) المرجع السابق •

وكان هذا بداية اهتمام الشعوب والدول على اختلاف مستوياتها حاليا بالأثر الاجتماعى للمرض والقيام بالاجراءات الصحية والوقائية المتعددة عند ظهور أعراض مرض وبائى كالكوليرا ، ويظهر هذا بصورة واضحة فى تطعيم المسافرين من قطر الى آخر بالمصل الواقى للأمراض المتوطنة فى هذا البلد أو ذاك كالحمى الصفراء والكوليرا والجدرى وغير ذلك من الأمراض ومن أشهر الأطباء الذين أخذوا بالاتجاه الطبى الاجتماعى رين ساند Rein Sand فى بلجيكا وأرثرنيوشولم Arthur Newsholm فى انجلترا وجاك بارسوت Jaques Parisot فى فرنسا ، وقد تضمنت جهود هؤلاء دراسات ميدانية ومسحية للأمراض وعلاقتها بالظروف الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمعات موضع الدراسة ، وقد اتسع نطاق تلك الدراسات فى أمريكا اذ وجه عديد من علماء الاجتماع والانثروبولوجيين الأمريكيين مزيدا من العناية بالمشكلات الخاصة بالرعاية الطبية ، وقد قام برنهاردستيرن Bernhard Stern عالم الاجتماع الأمريكى بدراسة فى بعض الأقاليم عن العوامل الاجتماعية التى تساعد على تقدم الخدمة الطبية ونشر نتائج دراسته فى عام ١٩٢٧ موضحا فى بحثه مدى ماتتعرض له الوسائل العلاجية الحديثة من مقاومة الأساليب التقليدية لدى الفئات المتخلفة ، كما كان للدراسة المونوجرافية فى مجال الانثروبولوجيا الطبية والتى قام بها روبرت ليند Robert Lend عن مدينة ميدلتاون Middletown وضمنه مسحا للمهن العلاجية والرعاية الطبية فى المدينة وأثره فى تطور الدراسات الطبية الاجتماعية • أثره فى هذا المجال وقد ظهرت بحوث طبية اجتماعية فى هذا المجال قام بها بعض مشاهير الأطباء العرب كالمرحوم الدكتور أنور المفتى الطبيب الباطنى المصرى الشهير وما قام به من بحوث فى هذا المجال فى احدى القرى بشمال الدلتا بمصر وقد سميت القرية باسمه •

وفى سنة ١٩٥١ قدم جورج فوستر G. Foster تقريرا عن الأثر الفعال للدارسات الانثروبولوجية على كفاية العمال فى ميدان الخدمة الصحية ضمنه النقاط التالية :

١ ـ ينبغى أن يكون القائمون على الاشراف على البرامج الصحية من الذين زودوا بدراسات أنثروبولوجية تمكنهم من تفهم الانماط الثقافية السائدة فى البيئات

الاجتماعية التى يباشرون فيها مهام وظائفهم سواء تعلقت جهودهم وبرامجهم تلك بالتخطيط أو التنفيذ أو بهما معا ٠

٢ ـ تدريب المشرفين على تنفيذ البرامج الصحية على كيفية الافادة من الدراسات والنظريات الانثروبولوجية وعليهم أن يثروا بخبراتهم وملاحظاتهم ودراساتهم الميدانية هذا المجال من الرعاية الصحية حتى يكون النفع متبادلا بين الاطار النظرى والتطبيق العملى ٠

٣ ـ تشجيع الدارسين والباحثين فى هذا المجال على التزود بالمفاهيم الانثروبولوجية ونتائج دراساتها النظرية والتطبيقية ذات الصلة المباشرة بمسألة الرعاية الصحية ٠

٤ ـ الاستعانة بالمستشارين المتخصصين فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والحضارية من شأنه تقديم الفائدة والتوجيه لمختلف الكوادر والمستويات الادارية والفنية التى يعهد اليها بالتخطيط لبرامج الخدمات الصحية ٠

العلاقة بين الانثروبولوجيا والتربية

التربية اصطلاح مشتق من الفعل (ربا يربو بمعنى زاد ونما) بما يشير الى النمو والتنشئة والابداع والتطوير ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أى خالق العالمين ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

أما الكلمة الافرنجية التى تدل على التربية Education فهى اصطلاح مشتق من الفعل اللاتينى Educo ويعنى استخراج الوعى أو ايقاظ المقدرة العقلية الكامنة لدى الانسان والمفطورة فيه[١] ، وهو معنى تقليدى لايرقى الى المعنى المستمد من الاشتقاق العربى والذى يعنى تنشئة التلميذ والعمل على نموه عقليا وجسميا وخلقيا بصفة عامة ، أما المفهوم اللاتينى والذى يقصر التربية على استخراج الوعى الكامن من النفس فان التربويين المعاصرين لايوافقون على هذا المعنى اذ أن كل المعلومات لايمكن استنباطها من عقل التلميذ كالحقائق التاريخية والجغرافية واللغوية ٠

---

(١) صالح عبدالعزيز ـ تطور النظرية التربوية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ ص٢٢ ٠

وعلى أية حال فانه يمكن أن ننظر إلى العملية التربوية من زاويتين :

١ ـ أنها عملية تنشئة أو تطبيع اجتماعى Socialisation ، فاذا ورث الفرد عن أسلافه الصفات والخصائص الجسمية والوراثية المختلفة ، فانه عن طريق التربية يكتسب كافة المكونات والخصائص الاجتماعية التى تصوغ شخصيته وتنمطها فى قالب معين بحيث يتميز عن غيره من الأفراد ، وفى نفس الوقت تجعل التربية منه عنصرا ينسجم مع أفراد مجموعته الانسانية ..

٢ ـ ومن ناحية أخرى تعتبر التربية عملية نمو شامل ومتكامل للشخصية الفردية اذ أن الفرد ينمو وينضج متفاعلا مع عناصر بيئته الاجتماعية والطبيعية بهدف تحقيق التوازن مع تلك البيئة ، والتربية تستغل قابلية الفرد للتكيف لتساعده على النمو المتكامل لنواحى شخصيته المختلفة .

وبهذا يمكن القول بأن التربية هى عملية تحقيق التكيف بين الفرد وبيئته المادية والاجتماعية معا وأن وظيفتها تكمن فى مساعدة الفرد على أن يحقق أكبر قدر ممكن من التوازن بين مكوناته الداخلية وعناصر بيئته الخارجية .

التربية فى اطار الدراسات الانثروبولوجية

يعرف « هوبل » الانثروبولوجى الأمريكى التربية فى المجتمع البدائى بأنها الحياة نفسها Education is life وأن الأسرة هى التى تضطلع بها[٢] حيث لاتوجد المؤسسات التربوية المتخصصة فى هذا المجتمع المتخلف وهذا بعكس التربية فى المجتمع المتطور فهى اعداد للحياة For life وتضطلع بها مع الأسرة المؤسسات التربوية والثقافية العديدة فى هذا المجتمع . وتلك هى نظرة معظم الانثروبولوجيين الذين يتناولون التربية فى المجتمع البدائى بعيدا عن المؤسسات التعليمية وعن المدرسة ولهذا يعتبرون الأسرة أو العشيرة أو القبيلة هى المؤسسة الاجتماعية التى تضطلع بشئون تنشئة وتربية الطفل ، وان كانت المدرسة أخيرا قد بدأت تشق طريقها فى عديد من

---

2. Hoebel - Op - Cit. P. 52.

المجتمعات التى يقال انها بدائية ، كمجتمعات جنوب السودان فى الشلك والدنكا والنوير والزاندى وكلها مجتمعات بدأت تباشر التعليم ويعيش أبناؤها حياة المدرسة • وعلى أية حال فان المجتمعات المتخلفة التى لم تطرقها المؤسسات التعليمية بعد ، يزاول الطفل فيها المهن التقليدية من خلال عملية التقليد ولمحاكاة للكبار فى نطاق الأسرة أو العشيرة، ويعرض اميل دوركايم E. Durkheim زعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع فى كتابه « التربية وعلم الاجتماع » Education and Sociology عديدا من تعريفات المربين للتربية أمثال جون ستوارت مل الذى يرى أن التربية لاتشمل فحسب كل مانعمله لأنفسنا أو مايقدمه الآخرون لنا بقصد تنشئتنا تنشئة صالحة ، وانما تشمل فوق ذلك الآثار غير المباشرة والتى لها أكبر الأثر فى تقويم أخلاقنا ومواهبنا وطباعنا كالقانون ونظم الحكم والفنون الصناعية والنظم الاجتماعية ، بل وتشمل كذلك آثار البيئة الطبيعية كعوامل الجو والتربة والموقع الجغرافى ، بل ان كل مايساعد على صقل الفرد وتقويم شخصيته وبالشكل الذى يصير اليه انما هو جزء من العملية التربوية[1] ولكن هذا التعريف من التعريفات الفضفاضة التى حددها اميل دوركايم نفسه حيث اعتبر التربية ظاهرة اجتماعية لها كل ما للظواهر الاجتماعية من خصائص أهمها الالزام والعمومية ، ورأى أنه لنعرف التربية تعريفا موضوعيا لابد أن نضع فى تصورنا عنصرين أساسيين يحددان طبيعة التربية وهما :

١ ـ وجود جيلين فى المجتمع الذى نتحدث عن التربية فى محيطه جيل يعلم وآخر يتعلم • جيل الكبار وجيل الصغار • وتعتمد التربية الدينية أساسا بجانب التقليد على التلقين من الكبار للصغار • يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [٢]

إلى آخر الآيات التى تعتبر قمة فى النصح والهداية والتربية الخلقية •

٢ ـ عنصر التفاعل أو التأثير الناشىء عن تدريب جيل الآباء للأبناء أو جيل

I. Emile Durkheim, *Education and Sociology*, Translated. Free Press, N.Y. 1956, P. 61.

(٢) لقمان الآية ١٧

المعلمين للمتعلمين ، وفى اطار هذين العنصرين تكمن العملية التربـوية Educational Process

ويرى « دوركايم » أنه اذا اعتمدت التربية أساسا على العنصرين السابقين فان النظم التربوية ووسائلها وأهدافها هى التى تتغير بتغير الزمان والمكان طبقا للعوامل السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ، ويرى أن فى هذا انعكاسـا لما يسـميه « بالضمـير الجمعـى » La Conscience Collective أو مايسمـى بالعقـل الجمعىGroup mind، ولهذا لا يمكن أن نتحدث عن التربية كمفهوم مطلق من حيث الزمان والمكان إلا على أساس تحديد طبيعتها المشار اليها ، وما عدا هذا فيجب النظر اليها على أنها ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات والنظم السياسية والأوضاع الاجتماعية والقيم العقائدية ، فمثلا كانت التربية فى أثينا قديما تهدف إلى السمو بالفكر وترقية العقل وغايتها تكوين الفيلسوف الـذى يتمتـع بإدراك عقلى يمتـاز عن غيره من البشر ، وفى اسبرطه قديما كانت تهدف التربية إلى تكوين المحارب رجلَ الكفاح والسلاح ، كما تهدف التربية فى العالم الاسلامى المعاصر الى تكوين المسلم الملتزم بمبادىء دينه وجوهر عقيدته من ناحية وبالاحاطة بعلوم العصر المختلفة فى مجال تخصصه واجادتها من ناحية أخرى ٠

وعلى أية حال فان التربية تعالج من الوجهة الانثروبولـوجية على أنهـا نسـق إجتماعى Social System له صفة الالزام على أساس أن لكل مجتمع فى أى زمان ومكان أطره الخاصة فى تربية النشىء ، وتتخذ التربية فى المجتمع البدائى نسقا صارما لايمكن الحيدة عنه ، ولهذا فان له خاصيته القهر التى تتسم بها الطقوس والشعائر والمراسيم التى يلقنها ويدرب عليها الأبناء فى هذه المجتمعات ولا مجال للتخلى عنها أو الفكاك منها ، كما تظهر تلك الاطر التربوية فى مختلف المؤسسات التربوية التى يزخر بها المجتمع المتطور ، ولكن ليس لها صفة الالزام والقهر التى تتسم بها التـربية فى المجتمعات البدائية والمتخلفة ذلك لأن التربية فى المجتمع المتطور عملية دينـاميكية تهدف الى تحقيق التغيير الاجتماعـى والتطـوير بمـا يواكب تقـدم العصر تكنولـوجيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ٠

ويرى « دوركايم » أن الفرد يولد فيجد النظم التربوية « قوالب » جاهزة يتقلدها

ولا يستطيع القضاء عليها أو التغيير من طبيعتها ، ولهذا يجبر على أن يحسب حسابها ولكن ليس من العسير تغيير أنماط التربية ووسائلها اذ يمكن ذلك على أساس من التدرج والتأنى وتهيئة المجتمع لتقبل التغيير ، ويرجع « دوركايم » استحالة تغيير النظم التربوية لمساهمتها فى خلق كل النفوذ المادى والأدبى الذى يباشره المجتمع على أفراده [١] ٠

وقد تعرض « دوركايم » لنقد شديد حيال فكرته عن خاصيته القهر والالزام تلك فى مجال الخضوع للظواهر التربوية على اعتبار أنها تجعل من الفرد إنسانا مسلوب الإدارة مشلول الفكر تجاهها ، وليست تلك طبيعة الحرية الفكرية التى تعد من أهم خصائص الانسان ، ولكن « دوركايم » يرد على منتقديه بأن مثل هذا الالزام أمر مرغوب فيه ولا يتنافى مع حرية الفرد ، فالطفل المربى حين يكتسب أنماطه السلوكية تدريجيا فان فكرة الالزام تختفى وتحل محلها الرغبة فى مباشرة تلك الانماط السلوكية على أنها عادات مرغوب فيها ٠

ويشبه « دوركايم » الإلزام الاجتماعى ومنه الالزام التربوى بالضغط الجوى فى عالم الطبيعة على اعتبار أنه ضغط مرغوب فيه ولا يحسه الانسان رغم خضوعه له ، كذلك فان الطفل لايشعر بجبرية النظم التربوية بعد أن يستوعب طرزها ويتمثلها ، ويشير عالم الاجتماع الفرنسى الى أن الإلزام لا يشعر به الفرد إلا فى حالة الخروج عن طبيعة النظام وخرق المعايير والاعراف الاجتماعية ٠

وعلى أية حال فانه يمكن أن نصنف النظم التربوية فى مجال الدراسات الانثروبولوجية ـ بحسب بناء المجتمع نفسه الى نظامين رئيسيين ٠

أولا : التربية البدائية

ويقصد بها النمط البدائى للتربية أى عملية التنشئة فى المجتمعات المتخلفة ، وهى تربية غير رسمية Informal Education ويتركز نسق الادوار فيها بين جيل يعلم

---

(١) اميل دوركايم قواعد المنهج فى علم الاجتماع ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور سيد بدوى ـ القاهرة ١٩٥٠ م ص٢٤ ٠

ويدرب وجيل يتعلم ويقلد وذلك بطريقة تلقائية تجعل التربية هى الحياة نفسها فى هذه المجتمعات ٠

ثانيا : التربية الحضرية

ويقصد بها النمط المتطور للتربية فى المجتمعات المتطورة ، والتى يمكن أن نميز فيها بين نمطين تربويين :

١ ـ تربية غير رسمية : وتتمثل فى عملية التنشئة الاجتماعية والتى يمتد نسق الأدوار فيها من الأسرة إلى عديد من المؤسسات الثقافية المختلفة كالصحافة والاذاعة والسينا والمسرح والتليفزيون ٠٠ الخ ٠

٢ ـ تربية رسمية : وتضطلع بها المؤسسات التعليمية المختلفة حيث يتعقد ويتشابك نسق الأدوار فيها ، وتهدف التربية فى هذه المجتمعات إلى التكوين والاعداد للحياة ٠

والتربية فى نمطيها البدائى والحضرى يمكن التمييز بينها من حيث هى مقصودة أم غير مقصودة ، فكلما ازداد المجتمع تعقيدا أو واجه مقتضيات التغيير الاجتماعى فى مرحلة انتقاله مثلا من مجتمع تقليدى إلى مجتمع نام أو متطور ازدادت حاجته إلى التربية المقصودة أى التربية التى لاتقتصر وظيفتها على مجرد نقل التراث الثقافى ، وانما يتركز دورها فى اثراء الخبرة لنمو نظم اجتماعية جديدة[١] تتلاءم والتغييرات الاجتماعية والثقافية المستمرة فى المجتمع ، لهذا فانها تزود الأفراد طبقا لأعمارهم ومستوياتهم العقلية بالمواقف التى تنمى فيها العقلية الابتكارية التى تمكنهم من اكتشاف آفاق ومواقف جديدة تبعث على التغيير وتنهض بواقعهم الراهن[٢] ، وعلى العكس فان حاجة المجتمعات التى يقال عنها إنها بدائية إلى مثل هذا النسق التربوى لا تكاد تذكر اذ أن أنساقها البنائية وسماتها الثقافية تبقى كما هى إلى حد كبير فى أنماطها المألوفة دون

---

(١) منير المرسى : فى اجتماعيات التربية الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ م ص ٢٩ ٠

2. Francis Brown, *Educational Sociology*. N.Y., Prentia Hall, 1955, P. 209.

تغيير يذكر إلا إذا تدخلت عوامل سياسية واجتماعية تدفع مثل هذه المجتمعات إلى السير في طريق التغيير والتطوير كقبائل جنوب السودان بعد الاتفاقية السياسية بين شمال السودان وجنوبه والتي تسمى « اتفاقية الحكم الذاتي » للجنوب والتي عقدت في مارس سنة ١٩٧٢ وبها انتهت الخلافات والصراع القائم بين شطري الوطن الواحد •

إن المجتمعات التي لاتزال تعيش عيشة بدائية متخلفة تعمل على نقل التراث كما هو عبر الاجيال دون تغيير أو تطوير ، فالأب الذي يصحب أبناءه في مناشط الحياة المختلفة التي تتصل بإشباع حاجاتهم من الصيد أو الرعي أو الزراعة يقوم بنفس الأنماط المعيشية التي كان يقوم بها أسلافه ، وبهذا فان حياة الجماعة على هذا النحو تشكل وحدة اقتصادية واجتماعية متماسكة يلعب كل فرد فيها دورا خاصا يؤثر في نشاط الجماعة ككل ثم يأخذ طابعا جماعيا معينا يتمثله كل من الكبار والصغار على السواء في البناء الاجتماعي عن طريق تقليد الكبار ومحاولة إتقان مهاراتهم • ـ ان التربية اللامقصودة بهذا المفهوم الواسع تعني الحياة نفسها في المجتمع البدائي طبقا لرأي « هوبل » كما أشرنا من قبل وهي ـ على أية حال ـ عملية تتقدم أو تتأخر تبعا للظروف والعوامل المختلفة الداخلية والخارجية للفرد في المجتمعات المختلفة[1] •

وتعرف الانثروبولوجية الأمريكية المعاصرة «مارجريت ميد» Margaret Meed التربية بمعناها الواسع بأنها « العملية الثقافية » إنها طريقة وأسلوب نمو الوليد البشري الذي يولد مزودا بدوافع وقوى فطرية هائلة تؤهله لأن يتعلم أكثر وأعمق مما يتعلمه أي كائن آخر من الثدييات حتى يصبح عضوا عاملا في جماعة يشترك مع أعضائها في ثقافة معينة ، وفي إطار تلك النظرة يمكن أن نضع الوليد البشري في مدينة حديثة جنبا الى جنب مع رصيفه البدائي ، حيث يجد كلا الوليدين مايتعلمه في بيئته وكلاهما يتوقف تعلمه على مدى ما يقدمه الكبار له من مساعدة ومحاكاة ، من رعاية ووصاية[2] وقد أشار إلى هذا الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أربعة عشر قرنا قبل أن يظهر على

---

1. William O. Stanley and Others, *Social Foundations of Education,* N.Y., 1956, P. 53.
2. Margaret Meed, *Our Educational, Emphasis in Primitive Perspective* Spendler (ed), *Education and Culture, Anthropological Approach,* N.Y., 1963, P. 309.

مسرح الفكر التفكير الأنثروبولوجي حيث قال : « **يولد المولود على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » ونادى العلماء المسلمون بذلك قبل أن تسفر البحوث الميدانية عن هذه النتائج فالإمام الغزالي يرى أن الطفل يتقبل الخير والشر ولا يدرك فى طفولته الفرق بينهما حيث يقول « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[١] .

ومن الأهمية أن نشير إلى أن دراسة الانثروبولوجيين للمدرسة فى المجتمع البدائى يعد أمرا حديث العهد فالمدرسة فى تلك المجتمعات أقامها المبشرون بهدف قيادة البدائيين الى الدين المسيحى على غير اختيار أو رغبة منهم مما جعل الهدف دينيا فى أساسه وليس تعليميا ، ويعترف بهذا « هنرى هاريس جسب » Henry Herris Jessup حين يقول « ان التعليم فى مدارس الارساليات المسيحية ليس سوى وسيلة لغاية هى قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية[٢] وقد ساعد على هذا أن تلك الشعوب خضعت للاستعمار الأوربى زمنا طويلا ولم تكن فى موقف يسمح لها فيه بالمطالبة بالتعليم وحين أريد تعليم هؤلاء فقد كان الهدف منه فرض الدين المسيحى من خلال المدرسة من ناحية وايجاد طبقة من المتعلمين الذين يسيرون فى ركاب المستعمر ويدينون له بالثقافة والفكر والاتجاه معا .

ومن أهم الدراسات الحقلية التربوية فى المجتمعات البدائية دراسات « مارجريت ميد »

١ ـ النمو فى غينيا الجديدة *Growing Up in New Guinea*

٢ ـ البلوغ أو المراهقة فى ساموا *Coming of Age in Samoa*

---

(١) محمد عطيه الابراشى ـ التربية الاسلامية وفلاسفتها ـ القاهرة ١٣٨٩ هـ /١٩٦٩ م ص ٤٢ .

3. Henry Herris Jessup, *Fifty-three Years in Syria*, N.Y., 1910, P. 592.

وفى كلتا الدراستين تتناول الباحثة التربية بمفهومها من حيث هى عملية غير مقصودة تقوم بها الأسرة والقبيلة وتمارس كعملية تنشئة اجتماعية فى المجتمع البدائى ، وتقع دراستها تلك فى اطار مايمكن أن يطلق عليه الانثروبولوجيا النفسية *Psychological Anthropology* اذ أنها تعالج مشكلات المراهقة بعامة ولدى المراهقات وتقول انها عاشت معهن وخبرت أسرارهن وتعمقت ثقافتهن وعقدت مقارنة بين الفتاة الساموية والفتاة الامريكية ، وانتهت الى أن مايسمى فى المجتمعات المتحضرة بأزمة أو مشكلة المراهقة لايوجد مثيل له فى المجتمع الساموى اذ أن منشأ الأزمة هى الأساليب الحضارية فى المجتمع الحديث وليست طبيعة النمو الفسيولوجى أو العقلى فى مرحلة ما من مراحل العمر .

وانطلاقا من الاختلاف الهائل بين الثقافتين الامريكية والساموية فان الفتاة الأمريكية إذا أملت عليها ثقافتها تأملاتها وأحلامها فى بناء عش الزوجية مع من تختار من الفتيان فان الفتاة فى « ساموا » لاتطمع فى أكثر من أن تعيش أطول فترة ممكنة قبل الزواج مع العشاق والمحبين ثم تتزوج بعد ذلك فى قريتها وتنجب عددا كبيرا من الأطفال .

وعليه يمكن القول بأن مايسمى أزمة مراهقة فى المجتمعات الحديثة انما يرجع إلى البيئة الثقافية نفسها وفى المجتمعات الاسلامية تضع الشريعة الغراء قيودا حضارية واجتماعية هامة للزواج ، وتهيب بالقادرين على الزواج أن يتزوجوا ماداموا يتمتعون بالأهلية لذلك ، ولا يدعو الدين الاسلامى لغلاء مافى المهور ، وانما يجعل المهر بحد أدنى يقدر عليه الفقراء قبل الأغنياء ، ويشترط الاسلام للزواج الأهلية وتراضى الزوجين والشهود العدل والمهرونية الابدية فى الزواج أى دوامه ، وبهذا تحل مشكلة المراهقة فى الدين الاسلامى وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء** » . أى وقاية .

الفصل الرابع

مناهج البحث الانثروبولوجية

- مفهوم منهج البحث بصفة عامة ومنهج البحث الانثروبولوجى بصفة خاصة .
- المنهج الوصفـــى .
- المنهج المقــارن .
- المنهج الاثنوجرافى والدراسة العلمية للظواهر .
- المنهج التجريبى .

مفهوم منهج البحث

مناهج البحث فى أى علم أو دراسة ماهى إلا تلك الأساليب أو الطرق العلمية التى يسلكها الباحث للوصول منها إلى القانون أو النظرية أو التعميم ، ولا يمكن أن تقوم أية دراسة علمية بدون منهج بحث يحدد مسارها ، ويظهر فروضها وطرق التحقق من صحة تلك الفروض . إن منهج البحث هو الركيزة أو العمود الفقرى الذى يعتمد عليه الباحث وتقوم عليه الدراسة ، وتتعدد مناهج البحث وتختلف باختـلاف طبيعـة العلوم .

فالعلوم الفلسفية سواء ما اتصل منها بالمنطق أو الاخلاق أو المعرفة تستخدم المناهج الاستنباطية أى تلك التى تعتمد على الاستنباط أو القياس العقلى ، وذلك بعكس العلوم التجريبية التى تستخدم المنهج التجريبى أو مايسمى بمنهج البحث العلمى أو الاستقرائى هذا الذى يعتمد على أساس من الفروض المنهجية والملاحظات والتجارب العملية ثم التحقق بتلك الملاحظات والتجارب من الفروض للوصول الى القانون أو النظرية العلمية ، وإذا كان المنهج الاستقرائى أو العلمى تجريبيا فى طبيعته فان المنهج الاستنباطى أو القياسى تجريدى فى تصوره ، الأول يعتمد على الملاحظة والتجربة من الطبيعة أو على حد تعبير « كلود برنارد » انه المنهج الذى يستنطق الطبيعة ويسائلها بحثا منها عن الجواب أما المنهج الاستنباطى فانه يستنطق العقل ويسائل منطقيته بحثا عن الحلول للمشاكل التى تواجهه ، أى أن الاستقراء بينما يتخذ الواقع مصدر التجاريه فان الاستنباط يستخدم النظر العقلى منطلقا لابحاثه وافتراضاته وبين هذين المنهجين يوجد منهج العلوم الانسانية هذا المنهج الذى كان يدخل فى اطار منهج الدارسات الفلسفية سابقا ثم أخذ ينفصل عنها رويدا رويدا من حيث موضوعاته من ناحية ومحاولة استخدام منهج العلوم التجريبية فى أبحاثه من ناحية أخرى • ويدخل فى اطار هذه العلوم الانسانية الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد ••• الخ •

المقصود بمناهج البحث الانثروبولوجية

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن الدراسات الانثروبولوجية متعددة الفروع منها مايتعلق بالدراسات الفيزيقية ، ومنها مايتعلق بالدراسات الاجتماعية والثقافية ، ولهذا كان من الطبيعى أن يستخدم علماء الأنثروبولوجيا مناهج متعددة بعضها عام يشترك فيه الانثروبولوجى مع غيره من علماء الإنسانيات كعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة •• الخ ومنها ماهو خاص ينفرد به عالم الانثروبولوجيا الفيزيقية حيث يستخدم المنهج التجريبى ومنهج الملاحظة العلمية فى بحوثه أو منهج القياس الانثروبولوجى أو مايسمى « بالانثروبومترى » •

وعلى أية حال فان الدراسات الانثروبولوجية تمتاز بترابطها وتكاملها من ناحية وبنظرتها الشاملة للنظم والظواهر الاجتماعية من حيث ارتباطها بالمجال البيئى والمناخ الاجتماعى الملازم لها على أساس أن الحقائق الانثروبولوجية تفسر على أسـاس من ترابطها وتشابكها بعضها بالبعض الآخر وهذا يميز مناهجها عن مناهج سواها فى العلوم الحيوية أو الطبيعية أو النفسية ، وقد كان تطور المناهج الانثروبولوجية مصاحبا للتطور التاريخى الذى مرت به الانثروبولوجيا نفسها من حيث تحديد مفاهيمها ، والغاية من دراستها ، وتوضيح مجالها فقد بدأت الانثروبولوجيا من خلال بحوث مونوجرافية « أى بحوث فى مجالات حقلية ضيقة بمجتمعات بدائية » تعتمد على تجميع عشوائى لعادات وقيم وتقاليد وأساليب الشعوب البـدائية كما فعـل الرحالـة الأول ثم تطـورت تلك الدراسات إلى بحوث مقارنة ودراسات اثنوجرافية تعتمد على الأسس العلمية فى مراحل تالية إلى أن وصلت الانثروبولوجيا إلى استخدام المناهج الاحصائية والمقاييس العلمية كأدوات بحث منهجى لها .

وليس بدعـا أن تتعـدد مناهـج البحـث الانثروبولوجـى فقـد كان ذلك لشمـول الانثروبولوجيا لميدانى تطور الانسان الفيزيقى من ناحية وبنائه الاجتماعى والثقافى من ناحية أخرى وما يترتب على ذلك من إبداع يقوم به الانسان لتغذية مجرى الحضارة مما جعل بحوث علم الانسان تهدف بالدرجة الأولى للوصول الى قوانين لاعلى التفسيرات التخمينية الظنية .

وهذا لايعنى أن هناك تعارضا مابين المناهج العلمية التى تصطنعها الانثروبولوجيا فالمنهج الوصفى مثلا لايمكن أن يتعارض أو يلغى المنهج المقارن بل على العكس يستخدم المنهج الأخير معطيات المنهج الأول لاتخاذها مجالا للمقارنة وبهذا يضيف كل منهج للآخر مايكمله ويمده بأساليب جديدة أو وجهة نظر تزيد من دقتـه العلمية ، فالمنهج الاحصائى فى الانثروبولوجيا يهدف بالدرجة الأولى إلى استخدام الدقة الكمية فى البحث ما أمكن ذلك ، وهـو يتخـذ فى ذلك روافـده من الدراسـات والحقائـق الاثنوجرافية التى تعتبر أساسا هاما فى دراسات علم الانسان .

ومن ناحية أخرى لايمكن الفصل فى دراسات علم الانسان بين النظرية والتطبيق أو بين الجانبين النظرى والعملى ذلك لأن الباحث يستخدم المنهج الذى يتفق وموقفه

النظرى البحث، وهذا هو الذى يمد الباحث بفروضه العلمية التى يتخذ منها منطلقا للحصول على المعلومات الإثنوجرافية أولا ثم اخضاعها للتحليل والتفسير والمقارنة أخيرا ، على أنه من الأهمية أن نشير الى أن الباحث عليه ألا ينزل الى ميدان بحثه وهو مزود بأفكار واتجاهات سابقة يبغى تحقيقها سلفا فمن طبيعة هذا افساد البحث ووسمه بالذاتيه لا الموضوعية وانما عليه أن يبدأ العمل كباحث ميدانى Field Worker وهو بعيد كل البعد عن التعصب لنظرية أو اتجاه ما وأن يواصل عمله فى الميدان بالطرق المنهجية المعروفة بغية الوصول إلى النتائج التى يحقق بها فروضه ، فالباحث الأنثروبولوجى ينبغى أن يكون ملما بموضوع ومنهج البحث ودراسات النظريات المتعلقة بالعلم نفسه ، وفى إطار هذا تكون فروضه الأولية التى ينزل بها الى الميدان لامتحان صحتها إثباتا أو نفيا حسبما تحدد وقائع الدراسة لا حسبما يفرض أفكاره السابقة ، فمثلا قد تكون الأفكار الشائعة عن المجتمع البدائى أنه مجتمع همجى لايخضع لأساليب محددة أو اتجاهات معينة فى اقتصادياته أو أنساقه القرابية أو السياسية أو التربوية ٠ ولكن تثبت نتائج الدراسة على عكس هذا تماما وأن مثل تلك المجتمعات تتخذ أساليب محددة وصارمة فى أنساقها الاقتصادية والسياسية والقرابية ٠٠ الخ ٠

وحين نستعرض مناهج البحث الأنثروبولوجية فيما يلى فإنما نعنى بالأنثروبولوجيا هنا الجانب الاجتماعى والثقافى منها لا الجانب الفيزيقى ، فقد أشرنا إلى أن مناهج البحث فى الانثروبولوجيا الفيزيقية هى مناهج البحث التجريبى أو الاستقراء العلمى أى تلك التى تستخدم التجربة العلمية والملاحظة الموضوعية والقياس الكمى أساسا للبحث ، أما الانثروبولوجيا الاجتماعية فقد اتخذت مناهج عدة تنحو كلها منحى الملاحظة والوصف والمقارنة والاحصاء كما يلى :

أولا : المنهج الوصفى

بدأت الدراسات الوصفية باشارات متعددة احتوتها كتب المؤرخين القدامى وتضمنت شتى المعلومات عن مختلف الحضارات وذلك من خلال ماقام به بعض

المؤرخين القدامى فى تسجيلهم لبعض الغرائب والعجائب التى شاهدوها أثناء قيامهم برحلاتهم كالمؤرخ الاغريقى القديم « هيرودوت » فى سنة ٤٨٠ ق٠م فقد أشار إلى وصف الشعوب التى زارها وسجل عاداتها وتقاليدها وطقوسها ويؤثر عنه قوله « مصر هبة النيل » كما أن الشاعر اليونانى لوقريطس (٥٥ ق٠م) فطن إلى أن الجنس البشرى انحدر من حالة بدائية تسودها الهمجية الى حالة ارتقاء وتمدن استخدم فيها الانسان موارد الطبيعة استخداما يواجه به متطلباته الحضرية وذلك باستعمال الادوات المعدنية بعد الخشبية ٠

ورغم أن الانثروبولوجيين المعاصرين يتحدثون عن الدراسات الوصفية باعتبارها خلقا عبقريا من علماء الغرب ورحالتهم ومكتشفيهم إلا أن الحقيقة غير ذلك تماما فقد كان للعلماء العرب السبق فى هذا المضمار إذ لعبت الرحلة عندهم دورا كبيرا فى الدراسات الاثنولوجية والاثنوجرافية الحديثة ، وذلك عن طريق ماقاموا به من رحلات عديدة سجلوا فيها عادات وقيم وتقاليد وثقافة البلاد التى رحلوا اليها فى أمانة وموضوعية ٠

واستقراء التاريخ العربى الإسلامى يدلنا على أن الرحالة العرب اهتموا بنفس الموضوعات التى اهتم بها الانثروبولوجيون المحدثون كدراسة المجتمعات البدائية والمتخلفة والتحدث عن الانساق والنظم الاجتماعية المختلفة لتلك الجماعات بصفة عامة كالنظم القرابية والاقتصادية والايكولوجية والسياسية ، ولم يكتف هؤلاء بمجرد الوصف وتسجيل ماشاهدوه وانما تعدوا ذلك الى مرحلة التحليل والمقارنة كما فعل العلامة العربى المسلم عبدالرحمن بن خلدون حيث يتحدث فى مقدمته الشهيرة وفى وصف انثوجرافى دقيق عن جماعات البدو وطبيعة نظمهم الاجتماعية وطرائق معيشتهم ، كما يتحدث عن تطبيق نظريته فى التطور العمرانى فيسوق فصلا خاصا فى « أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران ، والامصار مدد لها[١] ثم يعود فيتحدث بمنهج من أهم مناهج الانثروبولوجيا المعاصرة ونقصد المنهج المقارن والذى أشرنا إليه سابقا

(١) مقدمة ابن خلدون طبعة لجنة البيان العربى شرح وتعليق وتحقيق الاستاذ الدكتور / على عبدالواحد وافى الطبعة الثانية ص٥٨٣ ٠

ويتخذ ، أسلوبا للمقارنة الاثنوجرافية الثقافية بين العرب والبربر وزناتة بالمغـرب ، والاكراد والتركمان والترك بالمشرق فيقول « الا أن العرب أبعد نجعه[١] وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الابل فقط ، وهؤلاء يقومون عليهـا وعلى الشياه والبقـر معها[٢] .

ان هذا التحليل الدقيق تحليل أنثروبولوجى بالدرجة الأولى ولا يتوفر عليه الا عالم كابن خلدون خبر حياة البدو والحضر فى زمانه وقارن بينهما ، كما قام بمحاولة ناجحة لتنميط المجتمعات البشرية تنميطا يعتمد على خصائص هذه المجتمعات .

ولم يكن ابن خلدون وحده هو صاحب السبـق فى ارسـاء قواعـد الدراسـات الاثنوجرافية العربية ، وانمـا هنـاك عديد من الرحالـة العـرب الـذين أثـروا المادة الانثروبولوجية بالوصف والتفسير والتحليل كالبيرونى خاصة فى كتابه الشهير « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » ومن هؤلاء الرحالة العرب السعودى فى كتابه « مروج الذهب ومعدن الجوهر » وابن حوقل فى كتابه « صورة الأرض » والمقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » وابن بطوطة فى كتابه « تحفة الأنظار فى عجائب الأسفار » ويحكى كتابه هذا أخلاق وعادات الشعوب العديدة التى زارهـا وامتدت من مراكش غربا الى الصين شرقا ، ومن هؤلاء الرحالة العربى ابن فضلان فى وصفه لعادات وتقاليد وثقافة جماعات شمال غرب أوربا ، وابن جبير فى كتابه الشهير « رحلة ابن جبير » وفيه سجل وصفا دقيقا لكل مازاره من بلدان وأقاليم ، كما أن ابن حنظل دون موسوعة فى هذا المجال عن ذكر المسالك ووصف الممالك ، وقد أردنا هنا أن نسوق بعض الأمثلة فحسب على جهود هؤلاء الرحالة العرب من المسلمين وغيرهم كثير ممن كان له فضل السبق فى ميدان الدراسات الاثنوجرافية قبل أن يظهر هذا المصطلح على مسرح الفكر العالمى بقرون عديدة .

ولقد كان لهذه الدراسات الاثنوجرافية فضل السبق قبل ان يظهر هذا المصطلح على مسرح الفكر العالمى بقرون عديدة[٣] .

---

(١) أى رحلة أو انتقال من بلد لاخر .

(٢) مقدمة ابن خلدون المرجع السابق ص٥٨٢ .

(٣) راجع ماسبق أن عرضناه تفصيلا بهذا الصدد فى الفصل الثانى « أثر المسلمين العرب فى الدراسات الأنثروبولوجية » ص ص ٢٣ ـ ٤٦ .

ولقد كان لهذه الكتابات العربية أثرها الكبير فى تحديد أصول القبائل فى غرب افريقيا والتعرف بالتالى على الحدود الاثنولوجية هناك ، كما كانت ذات أهمية كبرى فى دراسة أوضاع العرب فى شرق افريقيا وكيفية اختلاطهم واندماجهم بالافريقيين ، كما كان لها أثرها فى الوقوف على كيفية تغلغل الاسلام فى مراحله الأولى فى حياة هذه الشعوب ومدى امتداده وآثاره فى أعماق القارة الافريقية حيث دخل الناس بها فى دين الله أفواجا ٠

ولقد تبع الرحالة العرب المستكشفون من الأوربيين والذين ساعدتهم الحروب الصليبية على القيام بمغامرات استكشافية عديدة أمثال الرحالة ماركوبولو M. Polo (١٢٥٤ م) ودى باروس De Baros (١٤٩٦ م) وقد كان لجهود كل منهما أثره فى التعرف على الجماعات النائية ودراستها فقد عاش ماركوبولو فى الصين زهاء ربع قرن سجل فيها عاداتهم وقيمهم وثقافاتهم محللا وناقدا ومقارنا لما كان يسمعه عنهم بما شاهده فى رحلاته ، أما باروس فقد قام بعديد من الرحلات فى كل من آسيا وأفريقيا والبرتغال وسجل أنماط ثقافتهم ، وقد كان لكتابة أمثال هؤلاء الرحالة دور هام فى الدراسات الاثنوجرافية لاسيما وأن وصفهم وتسجيلهم لما شاهدوه فى رحلاتهم لم يكن يخضع لأية اتجاهات مذهبية أو عقائدية أو فلسفية ، وانما كانت تسجيلاتهم تلك تنبع من رغبتهم الأكيدة فى حب الاستطلاع واكتشاف الغريب من عادات وتقاليد تلك الجماعات والرغبة فى الوقوف على خصائصها الفيزيقية وطبائعها المزاجية معا ، وقد كانت حصيلة هذه الدراسات العربية وغيرها أن مهدت السبيل لقيام نزعة علمية وصفية تحليلية فى الدراسات الأنثروبولوجية والتى أثرت فيها أمور عدة يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ اكتشاف جماعات غريبة ذات عادات وتقاليد غير مألوفة لدى الرحالة والمكتشفين ٠

٢ ـ اقامة علاقات سياسية وتجارية بين الجماعات المتحضرة وغيرها من الجماعات النائية التى اكتشفت وأصبحت من أهم الأمور التى تثرى الدراسات الانثروبولوجية ٠

٣ ـ انتشار حركة الاستعمار والغزو والحصول على الرقيق ساعد على الوقوف على

السلوك الاجتماعى لتلك الجماعات والتى يختلف فى طبيعته عن السلوك المألوف للرحالة والمكتشفين .

٤ ـ ساعد التقدم الثقافى والعمرانى والنهوض بوسائل الاتصال البرى والبحرى والجوى على ازدياد حركة الاكتشاف للشعوب الجديدة التى لم تكن معروفة من قبل خاصة بعد اكتشاف الامريكتين واختراق مجاهل أفريقيا والوصول الى جزر المحيط الهادى .

وقد كانت هذه الدراسات اللبنة الأولى فى تكوين صرح الانثروبولوجيا ، ورغم أنها لم تؤد إلى تحليل علمى أنثروبولوجى دقيق لأنها إما أن استمدت من الوصف الخيالى أو اعتمدت على ملاحظات غير منهجية إلا أنها أثارت الخيال التقديرى ودعت إلى حب التأكد والتحميص لما وصل اليه العقل والخيال بصدد نظم تلك المجتمعات النائية وذلك بالدراسة الواقعية لهذه المجتمعات واستخدام المنهج المقارن فى دراستها بغية الوصول الى النتائج العامة التى تفسر طبيعة تلك المجتمعات .

ثانيا : المنهج المقارن

أشرنا فيما سبق إلى أن الانثروبولوجى الأمريكى « هوبل » ورصيفه الانجليزى « راد كليف براون » يريان أن المنهج المقارن من أهم ماتمتاز به الانثروبولوجيا عن الدراسات الانسانية الأخرى ، ويتطلب المنهج المقارن Comparative Method عقد المقارنات بين مجتمعات عديدة قد تكون متشابهة أو مختلفة فى درجة ونوعية الثقافة والبناء الاجتماعى حتى يقوم التحليل الانثروبولوجى على أساس سليم .

وقد نشأ المنهج المقارن فى اطار دراسات الانثروبولوجيين للمجتمعات البدائية ومحاولتهم عقد المقارنات بين هذه المجتمعات والمجتمعات المتطورة لإبراز الفرق بين هذه وتلك فى مجال النظم الاجتماعية المختلفة وإظهار أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية فى تكوين بناء المجتمع وثقافته .

وإذا كان الهدف من عقد تلك المقارنات أول الأمر هدفا استعماريا ودينيا قام به المبشرون المسيحيون تحت ستار دراسة هذه المجتمعات بغية تطويرها إلا أن تلك

الدراسات تطورت بعد حيث سارت فى إطارها العلمى السليم حين أصبح يقوم بها علماء متخصصون فى الأنثروبولوجيا بهدف الوصول الى القوانين العامة التى تحكم تطوير النظم الاجتماعية من البسيط الذى يظهر فى تلك المجتمعات المتخلفة الى المعقد والمتطور فى المراحل التالية للتمدن البشرى ، ولا يعنى المنهج المقارن الوقوف عند حد إبراز المفارقات أو أوجه الاختلاف فحسب كما يرى بعض العلماء وانما يتعدى ذلك إلى معرفة أوجه التشابه كذلك ، ويرى « وسترمارك » أننا حين نستخدم المنهج المقارن فى الحضارة الانسانية فمعنى ذلك أننا نقرر أن هناك متشابهات كثيرة فى هذا المجال كالأدوات والأسلحة وموضوعات الفن والعادات والنظم والتقاليد بين مختلف شعوب العالم[1] وفى هذا يتفق « وسترمارك » مع مدرسة « انتشار الثقافة » والتى ترى أن الثقافة فى عمومها وبكل عناصرها نشأت أول مانشأت فى مركز معين بالذات ، ويختلف أنصار هذه المدرسة فى هذا المركز أحيانا ولكنهم يتفقون على أن العناصر الثقافية بدأت تهاجر من هذا المركز الى المناطق الأخرى حتى عمت العالم ، أى أنهم يحاولون تفسير التشابه الثقافى فى المجتمعات المختلفة عن طريق الانتشار ويتزعم هذه المدرسة « اليوت سمث » وكان فى الأصل عالما من علماء التشريح ثم اشتغل بالاثار واهتم بوجه خاص بالآثار المصرية القديمة ، وبالتاريخ المصرى القديم الى حد كبير حيث كان أستاذا بكلية الطب جامعة القاهرة واعتبر مصر مهد الحضارة ومنبع الثقافة فى العالم ، وله فى ذلك عدة مؤلفات أهمها كتاب بعنوان فى البدء In the Bedining وكتاب آخر بعنوان « انتشار الثقافة » Diffusion of Culture وقد حاول « اليوت » أن يتتبع نشأة كل عنصر من عناصر الثقافة الانسانية فى مصر وهجرة ذلك العنصر من مصر إلى افريقيا بل وبقية أنحاء العالم معتمدا فى ذلك على المنهج المقارن من حيث المشابهات التى كانت تقوم بين عناصر الثقافة المصرية والعناصر الثقافية فى المجتمعات الأخرى ، ولهذا أطلق على مدرسة « اليوت » هذه مدرسة أنصار الثقافة المصرية وأحيانا يطلق عليها « المدرسة الشمسية » نظرا لأن معظم الحضارة المصرية القديمة كانت تدور حول « عبادة الشمس » وقد اضطرت هذه المدرسة فى محاولاتها وتعزيز اتجاهها فى تتبع سير الحضارة المصرية القديمة الى بقية أنحاء العالم أن تفترض

1- Wester Mart. Methods of Social Anthroplogy. Royal Institute 1936.

بعض الافتراضات التى لايوجد لها مايعززها من الحقائق مما جعل مدرستهم تدخل فى اطار المدارس التى تستخدم التاريخ الظنى أو التخمينى ٠

وعلى أية حال فان الدراسات المقارنة بدأت نظرية وظهرت فى مؤلفات كثير من المفكرين الاجتماعيين أمثال مونتانى Montaigne ومنتسكيو Montesquieu وجان جاك روسو J.J. Rousseau فقد استلهم هؤلاء مقارناتهم من كتبهم المقدسة ومما كان يدونه رجال الدين من المبشرين الذين نشروا فكرة أن الرجل البدائى رجل طيب وساذج ولكنه « الطيب المتوحش » Le Bon Sauvage وقد كانت كل تلك المحاولات الفكرية تهدف أساسا إلى المقابلة بين ماكان يسمى بالحالة الفطرية والحالة المدنية المتحضرة لاظهار مابين الحالتين من تباين ملحوظ وفرق شاسع ، وأن الحالة البدائية أشبه ماتكون بمعيشة الحيوانات فى الوقت الذى تعتبر فيه مدنية المفكر هى غاية ماوصلت اليه الحضارة الانسانية من تقدم ورقى ، وعليه فانهم أمام مادة خصبة لتفسير نشأة وتطور النظم والقوانين والحضارة بصفة عامة ٠

وقد نشأت المقارنات كما أسلفنا ـ نشأة نظرية فى بداية عهدها حيث قام بها أنثروبولوجيون نظريون لم يقوموا بأبحاث حقلية يستندون عليها فى تحليلاتهم وتفسيراتهم وتأويلاتهم ولذلك أطلق عليهم أصحاب المقاعد المريحة Arm-Chair Anthropologists· أو كما يطلق عليهم الفرنسيون علماء المكتب Savants du Bureau وقد كان معظم هؤلاء يعتمدون على تقارير وكتابات الرحالة والمبشرين. ولم يخطر ببالهم قط أن يزوروا تلك القبائل البدائية التى كانوا يكتبون عنها ويحللون مقوماتهم البنائية ومن هؤلاء سيرجيمس فريز Sir James Frazer ، وماكلينان Mclenan و « شمث » وما يقال عن هؤلاء يصدق على اميل دوركايم زعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع والذى أثرت آراؤه كثيرا فى تطور وتبلور أفكار المدرسة الوظيفية الانثروبولوجية فى انجلترا والتى يتزعمها « رادكليف براون » أما النفر القليل من هؤلاء الانثروبولوجين الأوائل مثل « ادوارد بيرنت تايلور » E.B. Tylor و « باستيان » فقد قاموا برحلات عديدة زاروا أثناءها عددا كبيرا من الشعوب والقبائل البدائية ، ولكن أحدا منهم لم يقم بدراسة منهجية مركزة لاى شعب واحد منها على

وجه التخصيص ، ولكن الدراسات الميدانية المنهجية فيما بعد أصبحت أساسا للمقارنة العلمية التى تعتمد على أسس حقلية لا على التاريخ الظنى أو الكتابات النظرية ، ويرجع الفضل الأكبر فى التنبيه إلى أهمية الدراسات الحقلية إلى بعثة جامعة كمبروج فى أواخر القرن الماضى (١٨٩٨ م) لدراسة جزر مضايق توريس الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال استراليا • ومن الطريف أن نلاحظ أنه لم يكن بين أعضاء هذه البعثة العلمية التاريخية أحد من علماء الانثروبولوجيا المتخصصين ، ورغم ذلك فقد كانت نتائج البعثة من الناحية الانثروبولوجية نتائج باهرة للغاية اذ أن هؤلاء العلماء التقوا بأقوام بدائيين لهم عادتهم وتقاليدهم ونظمهم التى أغرتهم بدراستها على غير قصد منهم ، وقد كان رئيس البعثة « هادون » ـ من علماء الحيوان وكان من بين أعضائها « ريفرز » والذى كان طبيبا وعالما نفسيا وكذلك ـ « سيلجمان » الذى تخصص فى الباثولوجيا والأمراض المتوطنة وأصبح بعد من أهم الانثروبولوجيين الحقليين ومن أهم مؤلفاته أصول افريقيا العنصرية Races of Africa و « القبائل النيلية الوثنية فى السودان » Pagan Tribes of the Nilotie Sudan وقد اشتركت معه زوجته فى تأليف هذا الكتاب الذى يعد من المصادر الاساسية لدراسة قبائل جنوب السودان بصفة عامة ، ويعتبر سيلجمان Seligman المسئول الأول عن توجيه تلميذه المباشر ايفانز برتشارد الى دراسة الشعوب والقبائل النيلية •

وعلى أية حال فان المنهج المقارن يتخذ شكلين رئيسيين هما :

(١) الشكل الاثنولوجى

وفيه يستند الباحث إلى عدد معين من النظم المتشابهة فى مجتمعين أو أكثر ، وهذه الدراسة للمتشابهات فى العادات والتقاليد تشير الى وجود بعض أشكال ثقافية حدث بينها الامتزاج التاريخى الأمر الذى جعل الاثنولوجيين يدعون إلى ضرورة اعادة تاريخ المجتمع أو اعادة بناء الحضارة من جديد •

(١) يعتبر ايفانز برتشارد هذه الرحلة نقطة تحول فى تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية لأنها لفتت الأنظار الى الانثروبولوجيا الاجتماعية كعلم متخصص واعتبرت الدراسة الميدانية بعدها عنصرا هاما فى تكوين العلم نفسه •

Evans Pritchard, Social Anthropology, Glencoe, U.S.A., 1952, P. 70.

(٢) الشكل الانثروبولوجى

ويهدف الباحث من خلاله إلى دراسة أنساق البناء الاجتماعى لمعرفة طبيعة تكوينه ، وذلك فى ضوء مقارنة الحياة الاجتماعية عند مختلف الشعوب والثقافات وذلك بهدف الوصول إلى مايمكن تسميته بالقانون أو النظرية أو التعميم ·

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المنهج المقارن فى الدراسات الانثروبولوجية بوجه عام يعتمد على أساس فكرة « التواتر » أى تكرار حدوث الظاهرات الاجتماعية والثقافية المتشابهة اذا تعرضت لظروف وملابسات من شأنها أن تؤدى إلى حدوث هذه الظاهرات ، وذلك على أساس منهجى هام هو أن العلم الوضعى يبحث فى كل ماهو « متواتر » أو « متكرر » ·

ويهدف علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية للتوصل إلى استقراء القوانين واكتشاف التعميمات التى تحدد مسار الحياة الاجتماعية بالرجوع إلى قانون كلى يفسر مختلف الظواهر الجزئية ، وذلك لأن مجرد تكرار حدوث الظاهرة وتواترها فى بعض المجتمعات والثقافات التى لم تخضع للاحتكاك التاريخى يفرض على العقل القول بأن وراء هذا التواتر قانونا عاما يحكم عملية التطور دون رجوع إلى التفسير الاثنولوجى أو التاريخى وهكذا نرى أن المنهج المقارن استخدمه الانثروبولوجيون النظريون والحقليون معا وبينما استخدمه جيمس فريزر فى جامعة كمبروج على أساس نظرى فان ألفريد هادون A. Haddon رئيس بعثة كمبروج الذى أشرنا إليه سابقا قد نبه الأذهان الى الدراسة المركزة Intensive Study عن طريق البحث الميدانى المنظم والدراسة الحقلية التى تستند إلى المشاهدة العينية والملاحظة العلمية للمجتمعات الانسانية بعامة والشعوب البدائية بخاصة ·

ثالثا : المنهج الاثنوجرافى والدراسة العلمية للظواهر

أشرنا من قبل إلى أن المنهج المقارن الذى اصطنعه أنثروبولوجيو القرن التاسع عشر لم يكن هو المنهج العلمى الامثل اذ لم تكن المقارنة فيه مقارنة علمية صحيحة تعتمد على ماهو كائن لاظهار الملامح المشتركة وغير المشتركة بين مجتمعات الدراسة ،

وانما اكتفى النظريون من الانثروبولوجيين بالقراءات الواسعة وجمع أشتات المعلومات من هنا وهناك لاسيما من كتب الرحالة والمبشرين وحكام المستعمرات دون أن يكلف أحدهم عناء النزول الى الميدان للبحث والاستقصاء واذا فعل كأنت دراسته سطحية غير منهجية الأمر الذى جعل فكرة الرجل البدائى فكرة مختلطة ومشوهة فى أذهان هؤلاء فهو يتأرجح بين الرجل المتوحش أو الانسان الهمجى إلى الفرد الاجتماعى ٠

وكان هذا دافعا لقيام الباحثين بدراساتهم الاثنوجرافية من واقع الميدان نفسه ، ومع هذا فان المنهج الاثنوجرافى لم يتخل عن المقارنة ولكنه اتصل بها وان كان قد اعتمد على أساس علمى أكثر دقة وموضوعية وقد بدأ الباحثون يختارون مجال البحث والارتحال وتحديد النظم الاجتماعية التى يدرسونها بأنفسهم بل والحياة فى مجتمع البحث فترة طويلة ينبغى ألا تقل عن عام كامل كما يرى « ايفانز برتشارد » وذلك لاجادة اللغة المحلية من ناحية وتمثل الانماط والشعائر والطقوس فى المجتمع نفسه ، وقد قام المبشرون أول الأمر بتحقيق هذا المبدأ من حيث تعلم لغة البدائيين والمعيشة بينهم فترة طويلة لاجتذابهم إلى المسيحية ، وفى هذا يقول « ايفانز برتشارد » انه من الجلى البين أن المبشر الذى يريد تحويل أحد الشعوب البدائية الى المسيحية يحتاج إلى أن يكون على شيء من المعرفة بنفس معتقداتهم وممارساتهم الدينية ٠ والا استحال عليه أداء مهمته ، لأن التعليم التبشيرى يجب أن يتم فى لغة الاهالى ذاتها أى عن طريق تصوراتهم ومفهوماتهم الدينية[1] ونحن نرى أن هذا المنهج العلمى ينبغى أن يكون من الأسس التى يتبعها الداعية الاسلامى للدعوة الى دين الله من حيث تفهم لغة القوم والوقوف على طبيعة طقوسهم وشعائرهم الوثنية أو تلك العادات الخرافية التى تعد بدعة فى الاسلام ان كانت الدعوة بين قوم مسلمين لتصحيح عقائدهم وتوجيه شعائرهم الوجهة الاسلامية الصحيحة ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة لقوم يوقنون** » ٠

ولقد تطورت الدراسات الاثنوجرافية بحيث أصبحت تعتمد على المنهجية فى

(١) ايفانز برتشارد : الانثروبولوجيا الاجتماعية ٠ ترجمة الدكتور أحمد أبوزيد ٠ منشأة المعارف ٠ الاسكندرية ١٩٦٠ م ص١٦١ ٠

البحث الحقلى ، ويعد راد كليف براون Radcliffe-Brown من الرواد الذين قاموا بدراسات حقلية اثنوجرافية وذلك من خلال دراسته « لجزر الاندمان » فى الفترة مابين سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ ، وكانت تلك أول محاولة يقوم بها أنثرويولوجى لامتحان صحة النظريات الانثروبولوجية بالرجوع إلى مجتمع بدائى معين ، وتقع جزر الاندمان فى شمال المحيط الهندى حيث ترى كسلسلة من الجبال غاصت فى البحر ويفصلها بحر بنغاله عن ساحل مدارس فى الهند بمسافة ٧٠٠ ميل وهم قصار القامة سود البشرة ذوشعر صوفى مفلفـــل يرجعـــون الى الجنس الزنجـــى ، وكذلك دراســـة مالينوفســـكى Malinowski فى دراسته لجزر التروبرياند Trobriand حيث قضى أربع سنوات مابين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فى تلك الجزر التى تقع فى ماليزيا ، وقد كان أول أنثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى أنفسهم فى البحث الميدانى كما كان أول أنثروبولوجى يعيش بينهم بطريقتهم ونظمهم وأنماط شعائرهم الخاصة طوال تلك الفترة ، وقد عكست دراسته فى التروبرياند نظام التبادل المعروف باسم «الكولا» والذى يقوم على تبادل بعض السلع المعينة والتى لا قيمة لها من الناحية الاقتصادية ولكنها ذات قيمة اجتماعية وشعائرية عالية وتضفى تلك على كل من يمتلكها مكانة سامية فى المجتمع ، وتتألف تلك السلع من عقود طويلة من الأصداف الحمراء وأساور من الاصداف البيضاء ، ويتم نسق التبادل فى تلك الهدايا الملزمة عن طريق اتفاقيات شفوية ومتوارثة على مر الأجيال بحيث تنتقل تلك العقود فى اتجاه معين لايتغير حول محيط الدائرة التى تنظم فيها تلك الجزر بينما تنتقل الأساور فى اتجاه آخر . وتتوقف مكانة الفرد ومركزه الاجتماعى فى المجتمع على كم ونوع هذه السلع التى يحصل عليها ، ولكن يرتفع مركزه الاجتماعى أكثر حين يتنازل عن هذه السلع الاجتماعية النفيسة لشركائه فى نظام الكولا بعد أن يكون قد احتفظ بها لنفسه فترة من الوقت[١] .

ولم يقصر مالينوفسكى دراسته فى التروبرياند على « نظام الكولا» فحسب وانما تعدى ذلك الى دراسة سائر النظم التى تسود فى المجتمع اذ يعرض لدراسة النسق

1- Melinowski, Argonauts of the Western Pacific, Routledge and Hegan Paul 1950.

الايكولوجى والعلاقات الاقتصادية والقرابية والسياسية فى هذه الجزر وأثر نظام الكولا فى تدعيم الروابط بينها ، كما تطرق لوصف الرحلات البحرية التى يقوم بها السكان بل وطريقة صنع القوارب،وركز على نوع السحر الذى يمارس أثناء بناء تلك القوارب على اعتبار أنه عامل فعال فى نجاح بناء تلك القوارب ، وبهذا استخدم المنهج الاثنوجرافى التكاملى من حيث دراسته الشاملة لسائر النظم الاجتماعية فى المجتمع والتى تتصل بنظام الكولا ، ونلاحظ هنا أن مالينوفسكى رفض استخدام المنهج التاريخى فى دراسته الاثنوجرافية على أساس ايمانه بأن الظاهرات الاجتماعية التى حدثت فى فترة تاريخية سابقة وانتهت تختلف كل الاختلاف عن البناء الاجتماعى الراهن ، ثم انه لايوجد سند تاريخى سليم يمكن الاعتماد عليه ، ولهذا كان يرى أنـه يمـكن الاعتماد على الوقائـع التاريخية التى يتذكرها أفراد المجتمع لاسيا كبار السن منهم ويدلون اليه بها ، وكان يتقبلها على أنها جزء من أفكار الناس فى وقت القيام بالدراسة الحقلية ، وترجع أهمية مالينوفسكى فى تاريخ الفكر الأنثروبولوجى إلى أنه وضع أسس الدراسات الحقلية بل وأرسى القواعد الاساسية التى يتبعها العلماء المحدثون بصدد مثل هذه الدراسات ، وان وجه اليه النقد على أساس أن تجربته الحقلية كانت ضيقة حيث لم يقم الا بدراسة واحدة فى مجتمع واحد فى الوقت الذى يرى فيه العلماء المحدثون ضرورة أن يقـوم الباحث بدراسة مجتمعين مختلفين على الأقل ينتسبان الى ثقافتين مغايرتين حتى يتاح للباحث مجال المقارنة والوصول الى نتائج أو قوانـين عامـة تحـكم طبيعـة الحياة فى المجتمعـات المدروسـة ، ولـكن مالينوفسـكى كان يؤمـن بأن الدراسـة المركزة Intensive Study لمجتمع ما والتى تستغرق فترة طويلة تمكن الباحث من أن يتعرف على طبيعة المجتمع البشرى المدروس لاسيا وأن الفـوارق بـين المجتمعـات البشرية ليست فوارق فى النوع وانما فوارق فى الدرجة ، ولهذا فان دراسة المجتمـع البسيط دراسة منهجية حقلية مركزة تزود الباحث بكل العناصر التى تتوفر فى المجتمع المعقد لاسيا اذا كان التعميم مقصودا بالمجتمعات البدائية التى تتشابه فيا بينها من خيث البناء والثقافة الى حد كبير ، وقد كان من تلاميذ مالينوفسكى المباشرين من تدارك هذا النقص وفى مقدمتهم ايفانزبرتشارد والذى ركز فى دراسته على ثلاثة أنواع من المجتمعات تنتمى الى ثلاث ثقافات مختلفة . المجتمع الاول هو مجتمع الازاندى

Azade وينتمى إلى مجموعة الشعوب السودانية ويعيش حياة تتراوح بين الجمع والالتقاط مع بعض الزراعة البسيطة ، وقد أودع معظم نتائج أبحاثه فى هذا المجتمع فى كتابه « مقالات فى الانثروبولوجيا الاجتماعية »[1] والمجتمع الثانى هو مجتمع النوير Nuer والذى يعيش على تربية الماشية ويحيى حياة رعوية وينتمى الى مجموعة الشعوب النيلية بجنوب السودان والمجتمع الثالث هو مجتمع البدو فى برقه وهو مجتمع رعوى مماثل للنوير ولكنه يختلف فى الثقافة اختلافا كليا سواء كان ذلك من حيث اللغة أو الدين أو العادات والقيم والتقاليد كما ينتمى إلى مجموعة سلالية متمايزة كل التمايز عن كل من مجتمعى الزاندى والنوير .

وعلى أية حال فان الدراسة العلمية الحديثة فى مجال الانثروبولوجيا تعتمد على أساس النظرة الى النظم والظواهر الاجتماعية على أنها ظواهر مترابطة ومتشابكة فيما بينها بحيث يفسر كل منها الآخر ، كما أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجال البيئى أو الايكولوجى ، لهذا كان على الباحث أن ينظر الى مجتمع الدراسة على أنه مكون من نظم اجتماعية وعناصر ثقافية تتفاعل فيما بينها ويصعب دراسة أى منها منفصلا عن الآخر لأن مايحدث فى نظام ما يؤثر فى النظم الأخرى ويحدث فيها تغييرا ولو طفيفا .

مثال ذلك دراسة النسق العائلى أو نظام الأسرة فى المجتمع لايمكن دراسته فى حد ذاته ، وانما فى ضوء علاقته بالنظم الأخرى فهو يتصل أساسا بمدى خضوعه للشرعية العقائدية فى المجتمع أى متى يكون الزواج علاقة معترفا بها فى المجتمع طبقا لنوع العقيدة التى يؤمن بها ، ثم هو يتصل بالقانون من حيث أن له حقوقا وواجبات معينة يفرضها القانون الدينى أو الوضعى وينظم أسسها وطبيعتها واتجاهاتها ، كما يتصل النظام العائلى بالاقتصاد حين يدرس المستوى المعيشى للأسرة وميزانية إنفاقها وطبيعة انتاجها والعلاقات المادية بين أعضائها ، ثم انه يرتبط بالنظام الدينى ارتباطا وثيقا من حيث أن الرابطة الزوجية نفسها ذات طابع مقدس من حيث احترام الرابطة وتقدير

1- Evaus Pritchard, Esseys in Social Anthropology.

أهميتها وتقدير مايسودها من شعور الاستقرار والمودة والرحمة • قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١)

ثم إن دراسة النسق العائلى يقتضى دراسة مقدماته فى الخطبة والهدايا والتزاور ومدى سماح أهل الخطيبة برؤية الخطيب لها والحفلات التى تتم فى فترة الخطبة مثلا ••• الخ ـ كما يرتبط النسق موضع الدراسة بالمعايير والنظم الجمالية فيما يتعلق باختيار الأثاث وإعداد بيت الزوجية ••• وهكذا؛ومن الأهمية أن نشير إلى أن أى تغيير يحدث فى مجال النظام العائلى فى مجتمع ما بدافع التغيير أو التطوير يؤثر فى سائر النظم الأخرى التى تتصل بهذا النسق فمثلا عندما يشعر المجتمع بأن هناك مغالاة كبيرة فى المهر للعروس وأن هذه المغالاة لها أثرها الضار على انتشار الزواج فى المجتمع ، وحين تتدخل الدولة مثلا للحد من ارتفاع المهور ـ كما يحدث حاليا بالمملكة العربية السعودية وبعض البلاد الإسلامية الأخرى ـ فان مثل هذا التغيير فى النظام يلحقه بالتالى تغيير فى بعض العادات والتقاليد والمراسيم التى تتعلق بنظام الزواج كالحد من الاسراف فى الهدايا والحفلات •• الخ.ثم إقبال الشباب على الزواج بنسب تزيد عن ذى قبل وقد يصاحب هذا على المدى القريب والبعيد معا ارتفاع فى عدد المواليد والسكان بصفة عامة •

ولا شك أن هذا الارتباط الوثيق بين الأنساق والنظم الاجتماعية فى المجتمع يدعو الانثروبولوجى إلى النظرة لهذه النظم من حيث تكاملها وشمولها على اعتبار أن كل ظاهرة ترتبط بالأخرى وتفسرها ، وهذا الاتجاه من شأنه أن يمنع الخلط فى التفسير ويحافظ على الروح العلمية ، وهذا لايحدث فى الظواهر الاجتماعية وحدها ، وانما تماثله الظواهر الكونية نفسها والتى يفسر بعضها الآخر ، مثل تفسير ظاهرة ، المد والجزر فى البحار بالجاذبية ، وتفسير تمدد المعادن وانكماشها بدرجة الحرارة وهكذا •

وعلى الباحث ألا يتخذ من مجال تخصصه تبريرا لتفسيره ظاهرة ما بما يدخل فى اطار هذا التخصص كعالم الاقتصاد حين يفسر مشاكل المجتمع من وجهة نظر اقتصادية أو

(١) الروم الآية ٢١

عالم السياسة الذى يحاول تفسيرها من منطلق سياسى وهكذا فى الوقت الذى ينبغى دراسة المشكلة من وجهة نظر اجتماعية متكاملة ، وعلى الباحث الأنثروبولوجى ألا يهتم فى دراسته بالظواهر الاستاتيكية أى الاستقرارية فحسب ، وانما عليه الاهتمام بالكشف عن تطوراتها وتغيراتها المستمرة ، والبحث عن العوامل التى تساعد على تطوير وتغيير الظاهرة ، ولهذا يلجأ علماء الأنثروبولوجيا فى دراستهم للنظم الاجتماعية الى المنهج الاجتماعى المقارن وفق طريقة جون ستوارت مل المعروفة باسم « طريقة التلازم فى التغيير النسبى » والتى ترتكز على أن هناك علاقة سببية بين أية ظاهرتين اجتماعيتين متى كان بينهما تلازم بحيث اذا حدث تغير ما فى احداهما استلزم ذلك تغيرا موازيا له فى الأخرى ، وقد طبق « دوركاييم » هذه الطريقة على دراسته لظاهرة الانتحار وصلتها بالنظم الدينية والخلقية ·

هذا وتعد الملاحظة العلمية المنهجية من أهم دعائم الدراسة الاثنوجرافية العلمية لظواهر مجتمع ما وتخضع هذه الملاحظة الاثنوجرافية لنمطين أساسيين هما :

(١) الطريقة المباشرة أو « المونوجرافية » Monography

وقد عنى كثير من الاثنوجرافيين المحدثين بهذا النوع من الدراسة والتى تهتم بدراسة المجتمعات البدائية من حيث عناصرها العرقية أو السلالية وأصول الثقافات بها وأنماط العادات والقيم والتقاليد والطقوس والشعائر والمراسيم السائدة بها ، وقد أشرنا قبل إلى أن الدراسات العربية سبقت مثل تلك الدراسات بقرون عديدة وقام بها الرواد المسلمون أمثال ابن فضلان والبيرونى والمقدسى والادريسى والمسعودى وابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم ·

ويرجع اهتمام الانثروبولوجيين المحدثين بدراسة هذه المجتمعات الى أنها تعرض نماذج لما كانت عليه المجتمعات الانسانية فى نشأتها الأولى، وذلك لأن مثل تلك المجتمعات لم تكتشف معظمها إلا حديثا فالشعوب الأصلية لأمريكا الشمالية وهى التى تعرف باسم « الهنود الحمر » والشعوب الأصلية لاستراليا ظلت فترة طويلة منعزلة تماما

(١) الدراسة المونوجرافية هى التى تتعلق بوصف الاحوال الاجتماعية للوحدات الاقليمية ·

عن التيارات الحضارية مما جعلها تستقر على أوضاعها الأولى وتستمر تباشر نفس الأنماط والطرز والمعايير التى انتقلت اليها من الأجيال السابقة ، وان كان هذا لايعنى أنها لم تخضع لتطور نسبى محدود وضيق وان كان غير منظور لاسيما بعد اكتشافهـا واحتكاكها الى حد ما بتيارات حضارية تمسها من هنا أو هناك ٠

واذا كانت الملاحظة المنهجية الاثنوجرافية تعد من الأسس الهامة فى الدراسات الانثروبولوجية الحديثة فان الملاحظ الانثروبولوجى نفسه لابد أن تتوفر فيه من الشروط مايجعله باحثا ناجحا فيما يهدف اليه من دراسته ، والواقع أن القارىء لآثار الرحالة العرب يلمس الى أى حد كان هؤلاء مثلا طيبة لما ينبغى أن يكون عليه الباحـث الاثنوجرافى المعاصر من حيث مخالطتهم لأفراد الشعوب التى رحلوا اليها ومجالستهم العامة والخاصة من أفراد الشعب ومخالطتهم العلماء والفقهاء وأخذهم عنهم ونقلهـم لآثارهم العلمية ٠٠٠٠ الخ ٠

والواقع أن الباحث الانثروبولوجى المعاصر ينبغى أن يخضع لتدريب طويل يتعلم من خلاله لغة القوم الذين سيكونون مجال دراسته أو على الاقل تعلم مبادئها وادراك التخاطب الأولى بهـا واياهـم فتلك تساعـده على فهـم عواطف المجتمـع وأفـكاره واصطلاحاته ذات الدلالة الاجتماعية ٠ وقد أشرنا قبل إلى أن مالينوفسكى تعلم لغة مجتمع التروبرياند وأجادها اجادة تامة وكان أول باحث يعيش فى ميدان دراسته دون أى وسيط أو مرشد ، كما أن فسترمان Westerman عاش بين الشلك فى جنـوب السودان وأتقن لغتهم إتقانا تاما لدرجة أن وضع لها قواعد خاصة ، وألف بها بعض كتبه حيث كان يكتب الالمانية وما يقابلها بلغة الشلك أنفسهم وهو يعرض لاساطيرهم ومعتقداتهم وفولكلورهم ، والواقع أن تعلم لغة المجتمع وإجادتها بهذه الدرجة يستدعى الإقامة الدراسية الحقلية فى المجتمع نفسه ولفترة طويلة لا تقـل عن عام ، ويعلل « ايفانز برتشارد » أهمية تعلم لغة مجتمع الدراسة بأنها تساعد الباحث على أن يفكر بمثل مايفكرون كما تتيح له لغتهم أن يقف على ثقافتهم وأنساقهم الاجتماعية التى تتبلور فى مصطلحات اللغة وألفاظها ، ولكن قد لايكون هذا متوفـرا لكل باحـث ميدانى ، وحينئذ عليه أن يختار وسيطا أو مرشدا من أعضاء مجتمع الدراسة ، وعليه أن يراعى فيه من الشروط مايحقق له موضوعية التعرف على الظواهر ٠

ويرى « وسترمارك » ضرورة أن يكون المرشد أو المترجم أمينا فى نقل التفاصيل مهما كانت غير ذات أهمية من وجهة نظره هو فقد تكون تلك بالغة الأهمية لدى الباحث والدراسة معا ، ويذكر وسترمارك أنه كان يختبر الوسيط أحيانا بأن يعيد بعض الكلمات والعبارات بصورة خاطئة أمام المرشد ليمتحن مدى يقظته والتفاته لتصحيح الكلمة أو العبارة ، أما مونتنى Montaigne فقد ذكر أنه اختار المرشد أميا بسيطا ، ولهذا فقد كان ينقل له كل التفاصيل دون حذف أو اضافة ويرى أن هذا خير من المرشدين الذين يغفلون بعض الأمور التى قد لاتكون هامة من وجهة نظرهم أو ينقلون الحقائق من وجهة نظرهم هم لا من الواقع كما هو ٠٠٠ وعلى الباحث أن يكون يقظا عند دراسته لشخصيات المرشدين أنفسهم من حيث الانبساط أو الانقباض ، الاهمال أو اليقظة ، الأمانة أو عدم الأمانة فى نقل المعلومات ، وعليه أن يقيم معلوماتهم من خلال العوامل الشخصية والاجتماعية التى تتحكم فيهم ٠

ومن الأهمية أن نشير إلى أن على الباحث أن يهتم بالدرجة الأولى بجمع المعلومات وتسجيلها فور الحصول عليها حتى لاتكون عرضة للنسيان بعد أو الخطأ فى تدوينها ، كما أن عليه أن يعد كافة الوسائل العلمية التى تكفل ضبط ودقة وحصر هذه المعلومات الاثنوجرافية فى الاطار الذى يحقق الغرض الذى ينشده الباحث من دراسته كأن يستعين بالآت التصوير وآلات تسجيل الأصوات والأغانى والفولكلور الشعبى بصفة عامة كالرقص والمراسيم والشعائر التى تقام فى مناسبات متعددة وكذلك عليه الاستعانة بالخرائط الجغرافية والبيانية ، وأن يسترشد بأحدث الوسائل العلمية فى جمع البيانات وجدولتها وتصنيفها وعليه أن يراعى فى جمع بياناته البعد التام عن الرسمية أو اشعار الآخرين بأنها تستمد منهم بطريقة معدة أو مسبقة ، وكلما كان الحصول على تلك المعلومات بطريقة تلقائية كأن تكون خلال حديث عابر أو مشاركة فى بعض الشعائر والمراسيم أو العادات كان ذلك أجدى وأكثر فعالية ٠(١)

---

(١) استخدم الباحث آلات التصوير أثناء قيامه بالبحث الميدانى فى قبيلة « الشلك » وإن صادفته بعض العقبات أحيانا فى رفض بعض الاهالى تصويرهم ، كما لم يلجأ الى المخبرين الا فى حديثه مع سلطان القبيلة وكبار رجالاتها الذين لايتكلمون الا لغة القبيلة ٠

وينصح بعض الأنثروبولوجيين بعدم استخدام مرشد فى الدراسة الميدانية ، وأن على الباحث أن يحصل على بياناته بطريقة مباشرة ، أى من خلال احتكاكه بأفراد المجتمع ومخالطته إياهم وتمثله لانماطهم وشعائرهم ، ويشبه هؤلاء الأنثروبولجيين الذين يستخدمون الوسيط أو المرشد فى البحث الأنثروبولوجى بدور ملاحظة الرجل العادى للافلاك والكواكب بينما يشبهون موقف الأنثروبولوجى فى ملاحظته دون وسيط بموقف من يستعين بأحدث الآلات العلمية لمراقبة تلك الأفلاك .

وعلى أية حال فان وجود وسيط تتوفر فيه شروط النقل الأمين الموضوعى ضرورى لأنه الاكثر ادراكا بفهم جوهر عادات وأنماط البدائيين أنفسهم كما أنه الأقدر على فهم اللغة ومصطلحاتها ، وبقدر وعيه ودقته وأمانته وإجادتة التعبير عما ورثه عن آبائه وأجداده بقدر ما يقدم من فائدة للباحث فى ميدان دراسته بصفة خاصة .

ومن الوسائل العلمية الدقيقة التى يمكن للباحث استخدامها جدول البحث الاستقصائى Schedule أو الاستفتاء Questionnaire على أن يكون ذلك مصاغا بوضوح وبعد تام عن الغموض وأن يستخدم فيها الألفاظ المتداولة ، هذا إذا كان المجتمع المدروس من الوعى بحيث يمكن أن يجيب بطريقة مباشرة عن مثل هذه الوسائل العلمية ، أما اذا كان المجتمع بدائيا فعلى الباحث أن يحصل على ما يريد من اجابات بطريقة تلقائية كما أشرنا قبل ، ويمكن أن يقوم هو بتدوين ما حصل عليه من اجابات بجدول الاستقصاء أو الاستفتاء .

وعلى الباحث أن يستعين بالأسئلة التى أعدها الأثنوجرافيون ومن أشهرها أسئلة « فوكارت » Foucart رئيس الجمعية الجغرافية السلطانية بالقاهرة سابقا والذى وضع كتابه هذا[1] ، منذ سنة ١٩١٩ ورغم أنه قد قضى عليه حوالى ستين عاما الا أنه مازال حتى الان أهم دليل للباحث الحقلى فى الدراسات الأثنوجرافية خاصة اذا كانت الدراسة فى محيط الشعوب البدائية والإفريقية بالذات والتى وضع الكتاب أساسا

1- George Foucart, Introductory Ouestions On African Ethnology.
Sultenich Geographical Society of Cairo, Cairo. 1919.

لدراستها وهو يشتمل على حوالى ١٢٠٠ ألف ومائتى سؤال تتناول كافة المعلومات التى يمكن أن يحصل عليها الباحث فى مجتمع بدائى وتتعلق بكافة أنساقه ونظمه الاجتماعية وثقافته وسماتها وخصائصها ومركباتها الأمر الذى لايستغنى عنه باحث فى هذا المجال[٢] ، وكذلك يمكن الاستعانة بنماذج أسئلة تورجو Turgo عن النظم الاقتصادية وأسئلة كايندل Caindel عن الفولكلور ، وبعد أن يحصل الباحث على المعلومات الأثنوجرافية التى تتطلبها دراسته عليه أن يقوم بعملية التبويب ، والتصنيف للبيانات ، وهى عملية تتطلب تقسيم البيانات الى مجموعات متجانسة وفى شكل تكرارات احصائية ثم فى شكل جداول تساعد على الاستنتاج أخيرا .

وبهذه الطريقة استطاع الأثنولوجيون أن يصنفوا بعض النظم الاجتماعية كالنظم العائلية والتى صنفت على أساس من نوع الزواج ، أشكاله ، محور القرابة ، صلة الأسرة بالمجتمع ، نوع البناء العائلى وظيفة الأسرة فى المجتمع .. الخ ، وكذلك كان تصنيف نظام الملكية على أساس نوع ما يملكه الفرد ، النفع الاقتصادى لما يمتلك الفرد ، حقوق وواجبات الملاك ، علاقة الملكية بالمركز الاجتماعى ، صلة الملكية بالبناء الاقتصادى العام .. الخ .

وعلى الباحث بعد أن يفرغ من وضع البيانات بالجداول الإحصائية ، أن يحاول النظر فيها لاستخلاص ما قد يكون من تلازم بين عناصر النظام الواحد ، أو بين النظام والنظم التى تترابط به ، وذلك لأن مثل هذا الاضطراد فى التلازم هو غاية مايهدف إليه الباحث والبحث معا لأنه جوهر القانون أو التعميم فى الدراسة ، فمثلا قد يهتدى الباحث من خلال جداوله إلى أن هناك علاقة بين شكل الزواج ونظام الانتاج ، أو بين الزواج والنسق القرابى ، أو بين الملكية والمركز الاجتماعى ، أو بين الدين والمكانة .. الخ ، فاذا وصل الباحث إلى هذا الحد من نتائج بحثه فان عليه أن يقوم بمرحلة التحليل الوصفى لتلك العلاقة السببية المضطردة بين النظم من خلال وقائع البحث ، وطبيعة الدراسة نفسها .

---

(٢) اعتمدنا على هذه الاسئلة فى دراستنا الميدانية لقبيلة الشلك بجنوب السودان اذ تعد أنسب الاسئلة الانتوجرافية لمجتمع الدراسة .

(٢) الطريقة غير المباشرة فى البحث الأثنوجرافى :

اذا كانت الطريقة المباشرة أو المونوجرافية تتم عن طريق اندماج الباحث فى المجتمع نفسه كما أشرنا فان هذه الطريقة تتم عن طريق الرجوع إلى مصادر أخرى للحصول على المعلومات الأثنوجرافية ، وذلك عن طريق الارتكاز على آراء مؤلفات من سبق لهم دراسة المجتمع من العلماء السابقين والمعاصرين أو على ملاحظات ومشاهدات الغير من الرحالة والمسافرين ، وهذا يعنى اعتماد الباحث على المصادر والوثائق والرواية التى تتعلق بموضوع الدراسة •

وعلى الباحث فى هذا المجال أن يكون دقيقا فى اختيار تلك المصادر والاحاطة بها ومناقشتها لإدراك مدى ما تحتويه من دقة المعلومات ، وعليه أن يستبعد المصادر التى يشك فى صحة معلوماتها أو تلك التى تكون من إنتاج غير المتخصصين فى فرع الدراسة •

وتختلف طبيعة المصادر التى يلجأ اليها الباحث فقد تكون مكتوبة أو متواترة Traditions أو عن طريق أساطير Legends أو عن طريق الفولكلور « العادات الشعبية » كالأغانى والموسيقى والقصص الشعبى والامثال التقليدية وذكر البطولات المعينة فى المجتمع وما ينسج حولها من أساطير ، وقد عرف وليام جون تومز Thoms مصطلح الفولكلور لأول مرة فى عام ١٨٤٦ بأنه « المعتقدات والأساطير والعادات التقليدية الشائعة بين الناس ، وبأنه آداب السلوك والعادات وما يراعيه الناس » والخرافات ، والأغانى الروائية Ballades والأمثال الشعبية .. الخ • التى ترجع الى العصور السالفة[١] ، وكثير من الأنثروبولوجيين يعتمدون على الرواية المتبادلة فى بحوثهم العلمية كاتباعهم للطريقة الجينالوجية ، Genalogy ، أى تتبع أصول النسب عند دراسة النظم العشائرية وتفريعاتها .كما فعل ايفانز برتشارد فى دراسته للنوير Nuer بجنوب السودان وللقبائل السنوسية فى ليبيا ، وكما اتبع نادل Nadel فى دراسته لقبائل النوباوريفرز Rivers فى جماعات التودا ، Toda وكما اتبعنا

---

(١) قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ـ مرجع سابق ص ٢٨٠ •

فى دراستنا لقبيلة الشلك Shilluk بجنوب السودان[1] .

ويهدف الباحثون من هذا إلى الوصول إلى القواعد العامة لتطور النظم الاجتماعية ، فالباحث يستطيع من خلال تحليله لنظام ما أن يصل إلى أبسط عناصر هذا النظام ثم يدرس كيف تطور عبر التاريخ ، وعندما يتتبع الباحث نشأة النظام وتطوره فانه يستطيع أن يصل إلى التعميم والتجريد فالوصول إلى القانون العام الذى يحكم طبيعة النظام .

رابعا .. المنهج التجريبى

لقد ظلت المسائل التى تتعلق بمسائل التفرقة العنصرية ، وامتياز العرق ، وصفاء الجنس الواحد والتى انتشرت فى كتابات الساسة والفلاسفة لاتعتمد على أية أسس واقعية، الأمر الذى جعل الأنثروبولوجيين وعلماء النفس يفطنون أخيراً إلى أن مثل تلك النظريات المشوبة بالمسحة الفلسفية والآراء الشخصية لايمكن لها أن تتخذ سندا علميا الا اذا ارتكزت على نظرة واقعية واختبارات علمية دقيقة ، مما جعل علماء الانسان يستفيدون كثيرا من تجارب واختبارات علماء النفس لاسيا التى يستخدمونها فى مجال دراسة الفروق التى تتعلق بالذكاء والمشاعر والوجدانيات بصفة عامة، وقد دخلت تلك البحوث ميدان الأثنولوجيا للتحقق مما اذا كانت هناك فوارق جوهرية فى الصفات العقلية والنفسية والمزاجية ـ ووراثية أو مكتسبة ـ يمتاز بها جنس عن جنس آخر ، فطالما ادعا اليهود أنهم « جنس الله المختار » فى الوقت الذى ينتمون فيه إلى أجناس متعددة مما جعل ادعاءهم هذا خرافة لا أساس لها إلا فى افكارهم ومبادئهم العنصرية، وقد ساعدت هذه التجارب التى أجريت على مجموعات من جنسيات مختلفة على دحض أو تأكيد بعض المسلمات والنظريات الأثنولوجية المتداولة والتى كانت تفتقر إلى التحقيق العلمى ، وقد انتهت تلك الأبحاث التجريبية إلى تأكيد أنه لاتوجد أية فوارق فى الذكاء أو المشاعر أو الوجدانيات ، بين جنس وآخر ، وأن الفروق ان وجدت انما ترجع

---

(١) زكى محمد اسماعيل : « أنثروبولوجيا التربية دراسة نظرية ميدانية فى قبيلة الشلك بجنوب السودان . الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية ١٩٨٠ ملحق رقم (١) تاريخ قبيلة الشلك ص ٥٣٥ .

إلى الجوانب الأيكولوجية التى تتصل بالبيئة لا الوراثة ، وفى هذا تأكيد لنظرية المساواة ، بين البشر ومصداق لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١)

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام « **الناس سواسية كأسنان المشط** » وقوله « **لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى** » .

وقد استخدم كثير من العلماء هذا المنهج التجريبى والذى أسفر عن كثير من النتائج العلمية التى أثبتت نسبية الأنماط الثقافية (٢) ، وأثر البيئة وحدها فى الفروق بين الأفراد والقبائل والشعوب ، ويقصد بالبيئة هنا البيئة الجغرافية والاجتماعية والاسرية والتربوية .. الخ فقد توصلت الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية « روث بندكت » Ruth. Benedict إلى أن قبائل الزونى (جنوب غربى الولايات المتحدة) يميلون إلى الهدوء والدعة والتآلف ، وعلى العكس لاحظت أن قبائل الكوكيوتل ، (شمال غربى الولايات المتحدة) يميلون إلى الانعزالية والتطرف ، والتنافس ، بينما أن أهل الزونى يمتازون بالتشكك والتشاجر ، وقد قامت هذه النتائج على أسس تجريبية وملاحظات منهجية بين هذه القبائل ، وتعد هذه الملاحظات بمثابة الأدلة المعملية فى ميدان العلوم التجريبية ، وقد أرجعت هذه الفروق بين هذه القبائل البدائية إلى التأثر بالنماذج الثقافية العامة ، واختلاف وسائل التربية تبعا لاختلاف تلك النماذج .

وقد أثبت العالم الأنثروبولوجى الأمريكى رالف لينتون فى دراساته التجريبية التى قام بها على السكان الأصليين فى جزر ماركساس أن الحالات العصبية والمرضية التى يرجعها علماء النفس التحليلى وفى مقدمتهم « فرويد » S. Frued إلى الدوافع الجنسية لا أثر لها اطلاقا فى تلك الجماعات اذ ليس للدافع الجنسى أى دور ايجابى عند سكان تلك الجزر ، وأن حالات القلق والأمراض العصبية التى يعانون منها إنما ترجع إلى القحط الموسمى وبعض العوامل الثقافية الأخرى ، ومن هذا القبيل ما أثبتته

---

(١) الحجرات الآية ١٣

(٢) راجع دراسات أنثروبولوجية للدكتور احمد الخشاب ـ مرجع سابق ص ٢٦٠ ومابعدها .

الباحثة الأنثروبولوجية مارجريت ميد من أن المراهقات فى المجتمعات التى درستها لا يتعرضن لاية أزمة يمكن أن يطلق عليها « أزمة المراهقـة » كما يردد علماء النفس فى المجتمعات المتطورة كما سبق أن أشرنا ، ولم يعد المنهج التجريبى الأنثروبولوجـى قاصرا على دراسة المجتمعات البدائية ، وانما امتد إلى القطاعات المدنية كالدراسة التى قام بها لويد وورنر Lloyd Warner وبعض زملائه على احدى المدن الأمريكية التى أطلقوا عليها اسما مستعارا وهو يانكى ستى Yankee City وشرحوا فيهـا التركيبات العامة للطبقات والمستويات والمراكز والمكانة الاجتماعية لأفراد هذه المدينة .

كما أن هناك العديد من الدراسات المقارنة التى تعرضت لاختبارات الذكاء بين البيض والسود ، وبين نماذج من الجماعات المتخلفة والمجتمعات المتطورة ، وانتهت إلى أنه لاتوجد فروق مافى الذكاء وأن الفروق فى المدركات العقلية انما ترجع إلى اختلاف البيئة الاجتماعية والنفسية والتربوية بين هؤلاء .

الفصل الخامس

الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع

- العلاقة بين المنهج وطريقة البحث .
- طريقة الملاحظة بالمشاركة .
- طريقة المقابلة غير الموجهة .
- طريقة المقارنة .
- طريقة المقابلة الموجهة .
- طريقة تاريخ الحياة .

إذا كانت مناهج البحث الأنثروبولوجى تشير - كما أسلفنا - إلى الأساليب المنهجية العامة التى يستخدمها الباحث للوصول فى نهاية المطاف إلى النظرية أو القانون ، فان الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع تعنى تطبيق قواعد المنهج نفسه فى دراسة مجتمع ما دراسة أنثروبولوجية فى زمان ومكان معينين ، واذا كان المنهج الأثنوجرافى يتحدث عن ضرورة جمع وتسجيل المادة الأثنوجرافية فى مجتمع ما عن طريق الدراسة العلمية الموضوعية ، فان طرق الملاحظة بالمشاركة و« المقابلة » وتاريخ الحياة Life History تعد من الطرق الأنثروبولوجية التى يمكن أن يحصل منها الباحث على معلوماته الأثنوجرافية من الميدان تمهيدا لوضعها موضع التفسير

والتحليل ، والمقارنة والتأويل ، واذا كان المنهج المقارن منهجا عاما يستخدم فى مجال للدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولجية ، « الخاصة بعلم الاجتماع » والتاريخية والأدبية ، فان استخدام طريقة المقارنة فى الدراسة الأنثروبولوجية يعد جانبا تطبيقيا لهذا المنهج فى مجال علم الانسان وهى طريقة تتبع الوصف وتسبق التفسير والتحليل عند دراسة نموذجين أو عدة نماذج مجتمعية فى الدراسة الأنثروبولجية ، تمهيدا للوصول إلى التعميم أو النظرية التى تعتبر غاية الدراسات العلمية وأهم أهدافها ٠

ورغم هذا فلم تعد الأنثروبولوجيا وحدها بل أصبحت العلوم الاجتماعية بعامة تتعرض لبعض المشاكل الخاصة بقلة عدد القوانين أو التعميات التى تصل إليها من خلال دراساتها المنهجية ٠

وقد علل بعض العلماء لهذا القصور بأن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة معقدة ومركبة يصعب إخضاعها للتجريب بعكس الظاهرة الطبيعية التى يمكن للعالم أن يتحكم فيها ويوجه مسارها ويخضعها للتغيير بسهولة ، وعلى العكس يرى بعض العلماء أنه لازالت بعض ظواهر العلوم الطبيعية مجهولة لم تكتشف حتى اليوم بدليل أن هناك علامات استفهام كبرى أمام التفسير الموضوعى لبعض ظواهر تلك العلوم ، فعلم الفلك يحاول كشف المجهول فى عديد من ظواهر الأفلاك والفضاء اللا نهائى بعكس الظاهرة الانسانية التى هى أقرب للانسان وألصق به من الظاهرة الطبيعية ولهذا يرون أن المشكلة تكمن فى حداثة استخدام المنهج العلمى فى الظاهرة الإنسانية اذا قيس باستخدام المنهج فى العلوم التجريبية ، كما أن الباحث فى العلوم الإنسانية قد يصعب عليه أن يكون موضوعيا فى دراسته فيراه وبغير شعور منه ، مدفوعا لأن يكون متحيزا لفكرة أو سلالة أو نظرية ما ٠ لهذا فان الأنثروبولجيين فى محاولة منهم لتقنين منهجهم فى البحث الميدانى وليتفادوا مشاكل البحث فى الظاهرة الانسانية يستخدمون عديدا من الطرق العلمية الموضوعية التى تكفل لهم الوصول إلى نتائج علمية سليمة فى دراساتهم

الميدانية من أهمها :

١ ـ الملاحظة بالمشاركة : Participant Observation

ويطلق بعض العلماء على هذه الطريقة طريقة التدخل الوظيفى Functional Penetration [١] أو الملاحظة غير النظامية [٢] ، Unstructured Observation وهى طريقة تواجه الباحث فى بداية رحلته الميدانية بمشكلة « الدور » Role الذى ينبغى القيام به فى مجتمع الدراسة للحصول على معلومات موضوعية تتصل بطبيعة البناء Structure والثقافة Culture فى المجتمع المختار ويتطلب هذا الدور الميدانى أن يعيش الباحث بين أفراد « مجتمعه » الجديد مبتعدا عن اتباع أى سلوك من شأنه أن يغير عاداتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم ، فعليه أن يقابلهم ويتحادث معهم كفرد منهم حتى يكتسب ثقتهم مبددا الشكوك التى قد تثار حول مهمته ، وبالتالى لا يتعرض لما قد يتعرض له « الغريب » من خوف مشوب بالشك وعادة ما تختلف الاستجابات نحو هذا « الغريب » الوافد من عداء إلى كرم وحسن ضيافة ، وفى كلتا الحالين ، فان هناك درجة عالية من الفضول وحب الاستطلاع حول مهمته تبدو لدى أفراد المجتمع • وقد لاحظ الباحث هذا فى دراسته بقبيلة « الشلك » بجنوب السودان حيث كثرت التساؤلات عن طبيعة مهمته وما أثارتها تلك المهمة من ذكريات لدى بعض كبار السن فى القبيلة الذين استعادوا ذكريات وصول بعض « الخواجات » اليهم يقصدون الأنثروبولوجيين الغربيين الذين أجروا دراسات ميدانية فى القبيلة وما جاورها فى النصف الأول من القرن العشرين ، وقد قرر الأنثروبولوجى تشارلزواجلى C. Wagley أن الاتجاهات نحوه فى إحدى القبائل الهندية فى الأمازون تحولت بسرعة إلى إحساس بالشفقة عليه وقد نظروا إليه كشخص جاهل بمعظم المعلومات الأساسية التى تلزمه للبقاء بينهم •

1- Richmond, A. Social Scientist in Action, in Faslett. W. Science News, Penguin Books. England, 1963 P. 71.

2- Sellitz, C. and Others. Research Methods in Social Relations. N.Y. 1959. P. 207.

ولهذا رأوا أنه ينبغي تعليمه كل شيء عن ثقافة وبناء مجتمعهم ، ولهذا كان لابد للباحث من اكتساب ثقة أفراد مجتمعه من خلال القيام بدور ما فيه وهو يقوم بجمع معلوماته ٠ ومع هذا فعلى الباحث ألا ينسى فى غمرة دوره أنه ابن ثقافته الخاصة فلا يدعى الانتماء إلى السكان المحليين مثلا لأن مثل هذا السلوك غير متوقع منه عادة ، بل قد يكون غير مقبول لأبناء المجتمع أنفسهم ، لاسيما وأن الاندماج المفرط قد يفسد الأحكام التى ينتهى إليها الباحث أو يعرقل مسيرة البحث ، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث فى القرن الماضى عندما تحول الباحث الأنثروبولوجى كاشنج F.H. Cushing فى نهاية دراسته إلى واحد من كبار الكهنة فى قبائل « الزونى » فى « نيومكسيكو » وعندما ارتبط بهذا الدور تعهد بأن يكون كاتما للأسرار ، ومن ثم لم يعد قادرا على أداء مهمته فى الدراسة كباحث أنثروبولوجى[1] ، وعلى الأنثروبولوجى أن يتعلم لغة المجتمع ويجيدها حتى يمكن أن يدرك تصوراتهم وأنماط أفكارهم ويحس عن كثب بمفاهيمهم السائدة وقيمهم التى يعتنقونها ٠ وهذا من ألزم الأمور للداعية فى مجتمع الدعوة حيث يستطيع أن يباشر دعوته الاسلامية من منطلق علمى موضوعى يتخذه أساسا لتحقيق هدفه من خلال الدعوة ٠

وعلى الباحث أن يكتب تقريرا فوريا بملاحظاته اليومية Field Notes عن كل صغيرة وكبيرة تقابله سواء فى أسلوب المعيشة أو نمط السلوك ، أو شكل الحكم أو ظواهر المعتقد أو الاقتصاد ومنهج التفكير ٠٠ الخ وذلك من خلال حياته معهم ومشاركتهم حفلاتهم وطعامهم وارتداء ملابسهم وعدم ابداء أى استنكار أو امتعاض لما يرى ٠ وقد لايجد الباحث فى جمعه لهذه المعلومات المتناثرة وتجميعها أول الأمر أنها مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا أو على نحو منظم ، ولكن حين يستخدم التحليل المنهجى لهذه المعلومات المتناثرة فيما بينها يصل فى النهاية إلى وحدة تربطها وتلك تؤدى إلى التعميم المنشود وذلك لأن فهم أى نظام فى المجتمع لايتم ـ خاصة فى المجتمعات المحدودة ـ الا بفهم

---

1. Beals, R.L. and Hoijer, H. An Introduction to Anthropology Macmillan, N.Y., 1971.

والاشارة هنا الى الترجمة العربية مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة « الجزء الأول ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى مؤسسة فرنكلين ـ القاهرة ـ نيويورك يوليه ١٩٧٦ ص١٩٧ ٠

البناء الاجتماعى الكلى أو الشامل ، ولهذا فان الداعية الاسلامى ليفهم النسق العقائدى فى مجتمع ما فان هذا لايتم الا من خلال ادراكه العلمى لبقية انساق المجتمع الأخرى والتى ترتبط ارتباطا عضويا بالنسق الدينى ، ولهذا تعرف هذه الطريقة طريقة جمع المعلومات الشاملة عن ثقافة المجتمع بالطريقة الكلية Holistic Method وهى احدى الخصائص الأساسية فى منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية ٠

وعلى الباحث أن يدرس المجتمع فى كليته ليدرك بعمق أبعاد البناء الاجتماعى ككل متكامل وأن يكون الباحث ممن يستطيعون تحمل المشاق والبعد عن وطنهم الأصلى فغالبا ما تكون الحياة فى مجتمع الدراسة قاسية لاسيا فى الظروف الصحية ، ولهذا فعلى الباحث أن يغير عادات طعامه وشرابه ومسكنه وملبسه بما تمليه الظروف الميدانية الجديدة ، وعليه أن يتخلى ولو ظاهريا عن أنماط ثقافته الأصلية بقدر المستطاع ليستطيع ملاحظة الحياة الجديدة بموضوعية ، ومن صفاته كذلك مهارة أدبية يستطيع من خلالها عرض ووصف وتحليل نظم البناء المجتمعى إلى لغته بجلاء ووضوح ، ولا يعنى هذا ضرورة أن يكون الباحث كاتبا أو أديبا وانما ينبغى أن تكون له القدرة على عرض موضوعه عرضا علميا بلغة واضحة سليمة ٠

٢ ـ المقابلة غير الموجهة : Unguided Interview

اذا كانت الملاحظة بالمشاركة تتيح للباحث الاتصال والاندماج بين أفراد المجتمع ككل فى مختلف طبقاتهم ومهنهم وأدوارهم ومراكزهم فان المقابلة غير الموجهة تتمثل فى مقابلة الباحث لبعض أفراد المجتمع ذوى الشأن ممن يفيدون فى جمع المعلومات الهامة عن البناء الثقافى والاجتماعى لمجتمع الدراسة ٠ ويطلق على هؤلاء المخبرون Informants حيث توجه لهم الأسئلة المنوعة ، ويترك لهم فرصة الاجابة المرسلة دون توجيهها وجهة معينة ، وللباحث أن يشجع هؤلاء بكافة الوسائل للادلاء بكافة المعلومات لتسجيلها وتدوينها على الفور بالآلات الحديثة أثناء المقابلة ضمانا لعدم نسيان شىء ما من تفاصيلها ٠ وهنا تواجه الباحث مشكلة اختيار الاخباريين أنفسهم سواء كانوا هم المصدر الأساسى للمعلومات أم مصدرا لنقلها عن آخرين من أفراد المجتمع ٠

ويرى بيلز R. Beals وهويجر H. Hoijier أن الباحث يكون محظوظا اذا استطاع أن يعثر على اخبارى ذى نزعة فلسفية تمكنه أن يتفهـم هدف البحـث بسرعة ، وأن يعطى الباحث فكرة عامة منظمة عن الثقافة ورغم هذا فعلى الباحث أن ينظر إلى الاخبارى بحذر إذ قد تكون شخصيته منحرفة أو متورطة فى بعض الخلافات الطائفية أو الحزبية مما يجعل الارتباط به مثيرا لحفيظة أفراد أو جماعات لها وزنها فى المجتمع ، ولهذا فان «بيلز وهويجر» ينصحان الباحث بأن يكون حرا فى المرحلة الأولى يتحدث مع أكبر عدد ممكن من الأفراد ، وله أن يستعين باخبارى متخصص فى المرحلة الأخيرة عن دراسته(١) •

ويقول مونتنى Montaigne وهو ممن درسوا عادات البدائيين الأمريكيين لقد كان المخبر الذى اخترته بسيطا أميا ، ولهذا كان فى رأيه من أنسب الناس لتقديم معلومات حقيقية بعكس المجادلين فهم وان كانوا يلاحظون بمهارة ويلتقطون كثيرا من الأشياء الا أنهم يصقلونها أويغفلونها تبعا لوجهة نظرهم، ولهذا يرى أن الباحث محتاج الى رجل صادق تماما أو من البساطة بحيث لاتكون لديه ملكة التركيب(٢) أما ايفانز بريتشارد فقد أشرنا إلى رأيه وهو عدم الاعتماد على مخبر ما حتى يتم التفاهم بينه وبين أفراد المجتمع بلغتهم التى ينبغى عليه أن يتعلمها ويتقنها حتى يتسنى له ادراك أبعاد انساق بنائهم الاجتماعى من خلال مصطلحات لغتهم وألفاظهم ، ويرى أنـه حـين يصـل الباحث إلى فهم وسيلة التفاهم فى المجتمع يكون قد استكمل دراسته أو بمعنى أدق وصل إلى أفضل طرق جمع المعلومات دون وسيط قد يفسد عليه مهمته •

وفى مجتمع « الشلك » استعان الباحث بأكثر من مخبر حتى تتاح له المقارنة فيما يحصل عليه من المعلومات فى نفس الوقت الذى استطاع ان يلم بمبادىء لغة القبيلة وبهذا أتيح له الاعتماد على أكثر من مصدر فى الحصول على المعلومات التى تتصل بنظم وأنساق القبيلة •

---

(١) لتفصيل ذلك لمرجع بيلز وهويجر • مرجع سابق ص ١٩٣ ومابعدها •

2. Westermarch, E. *Method in Social Anthropology,* Huxley Memorial Lectures, 1936.

٣ ـ طريقة المقارنة : Comparative Method

وتعتمد أساسا على عدم الاكتفاء بدراسة ميدانية واحدة بل تتعداها إلى دراسات ميدانية متعددة حتى يكون هناك مجال للمقارنة بينها • ويعتبر « راد كليف براون وآدمز هويل » هذه الطريقة من أهم خصائص الدراسات العقلية الأنثروبولجية كما سبق أن أشرنا ، ويرى « هوبل » فى المقارنة أنسب المناهج للأنثروبولوجيين حيث يرفض الباحث الموافقة على أية تعميات من خلال الخبرة أو الدراسة الخاصة فى مجتمع واحد أو حتى مجتمعين أو ثلاثة من طبيعة واحدة ، ولهذا ينبغى أن تكون المقارنة فى ضوء نماذج عديدة من مجتمعات مختلفة فى أبنيتها[٢] ، فمن شأن كل دراسة جديدة توسيع دائرة المقارنة بين النظم والانساق والمركبات الثقافية فى مجتمعات الدراسة ، وحين نتحدث عن المقارنة هنا فاننا نقصد بها المقارنة الموضوعية التى تعتمد على تسجيل المعلومات الأثنوجرافية من مجتمعات الدراسة بالطريقة المنهجية تمهيدا للمقارنة والتفسير والتحليل الأنثروبولوجى كما أشرنا •

٤ ـ المقابلة الموجهة : Guided Interview

اذا كانت المقابلة غير الموجهة طريقة أنثروبولوجية لدراسة المجتمع تتم تلقائيا بين الباحث وبعض أفراد المجتمع الذين تترك لهم فرصة الاجابة المرسلة عن مختلف الأسئلة ، فان طريقة المقابلة الموجهة تتمثل فى إعداد استمارة من مجموعة من الأسئلة توضع بدقة حول موضوع معين أو ظاهرة يراد دراستها بحيث تشتمل على الإجابات المحتملة حتى يمكن أن تملأ بسرعة ووضوح ثم تفرغ فى جداول ، وعلى الباحث أن يقرأ الأسئلة أمام الشخص المراد دراسته ثم يسجل اجابته فى الاستمارة سلبا أو ايجابا أو احتمالا ، وينبغى أن تقرأ الأسئلة بطريقة محايدة حتى لا تؤثر على المستمع • ونادرا ما تستخدم هذه الطريقة فى الدراسات الأنثروبولوجية ، وان كثر استخدامها فى دراسات علم الاجتماع ، واذا استخدمت فى الدراسة الأنثروبولوجية ففى نموذج مجتمعى غير متخلف • لاسيا بعد أن طرقت الأنثروبولوجيا دراسة المجتمعات غير المتخلفة ،

2- Hoebel, E.A. Anthropology, The Study of Man, mc Graw Hill, Book Com N.Y. 1966 P.7.

كمجتمع المصنع أو المجتمع المهنى أو الحرفى فى المجتمعات النامية والمتطورة كما سبق أن أسلفنا وذلك لأن مثل هذه الطريقة فى المجتمعات التى يطلق عليها مجتمعات بدائية تثير الشكوك فى نفوس أفراد المجتمع وتجعلهم لا يثقون بالغريب الوافد لاسيما حين يسجل عليهم ما ينطقون به ولهذا كانت طريقة المقابلة التلقائية أو غير الموجهة هى الطريقة الاجدى فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية حين تتم فى مجتمع بدائـى أو متخلف •

٥ ـ طريقة تاريخ الحياة : Life History

كثيرا ما يستخدم الأنثروبولوجى الاجتماعى « طريقة تاريخ الحياة » أثناء دراسته الميدانية ، حيث يطلب من بعض أفراد المجتمع أن يقص عليه كل منهم سيرة حياته وما صادفها من أحداث ومشاكل منذ الصغر حتى تاريخ اللحظة التى يحادثه فيها ، وغاية الباحث ليست قصة الحياة كما تروى ، وانما ما اعترضه من مشاكل وحلول وعلاقات اجتماعية ، وأحداث ذات أهمية فى تاريخ المجتمع وتطوره ، وما قد صادفه من تغيير الأمر الذى يلقى الضوء على عديد من المعلومات الاثنوجرافية والثقافية التى تهم الباحث ، ولا سيما اذا كان الأخبارى Informant ذا مركز هام فى المجتمع سواء كان هذا المركز سياسيا أو اقتصاديا أو عقائديا ، ورغم هذا فان على الباحث ان يساعد الاخبارى على أن يكون صادقا فى حديثه ، موضوعيا فيه ، متحريا الحقائق دون زيادة أو نقصان ، وهذا أمر يعتمد أساسا على مدى الثقة المتبادلة بين الباحث والاخبارى ، وان صادفت هذه الطريقة بعض العقبات كصعوبة تذكر الحوادث القديمة ، واحتمال عدم الصدق فى سرد الحوادث ذاتها ، وهذا يدعو الباحث لعدم الاعتماد على مخبر واحد وانما على عديد من المخبرين الذين يقصون سير حياتهم واستخدام المقارنة بين هذه السير المختلفة فى محاولة للوصول الى معلومات اثنولوجية تاريخية لها صفة الموضوعية ما أمكن ذلك عن مجتمع الدراسة •

ويستعيض بعض الأنثروبولوجيين عن هذه الطريقة باستخدام طريقة تاريخ حياة الأسرة ، حتى يمكن جمع المعلومات من عدة أشخاص لا من شخص واحد وان كان

من الأفضل أن تمثل العينة المختارة مراكز ونوعيات متعددة من الأفراد ، وأن يكون سرد تاريخ الحياة بطريقة تلقائية بعيدة عن التكلف أو الافتعال ·

وعلى أية حال فان هذه الطريقة تستخدم بطريقة أكثر فعالية لدى الأنثروبولوجيين الذين يهتمون بدراسة الثقافة والشخصية « أو » الأنثروبولوجيا النفسية فى مجال أبحاثهم وقد استخدمها « سيمونز » فى دراسته لأحد هنود قبيلة « هوبى » و « فورد » عن حياة أحد زعماء قبيلة « كيوكيوتل » و « ينتر » لسير حياة أربعة أفراد من قبيلة ايما بافريقيا ·

القسم الثانى

بين الاتجاهين الثقافى والوظيفى

الفصل السادس

الأنثروبولجيا الثقافية

- مفهوم الأنثروبولوجيا الثقافية .
- مفهوم الثقافة .
- مفهوم النمط الثقافى .
- الموروثات الثقافية .
- العلاقة بين الثقافة والحضارة (ظاهرة البداوة ـ البداوة والهجرة) .
- الثقافة واللغة .
- السمة الثقافية والمركب الثقافى .
- قطاعات الثقافة
- الثقافة كل مترابط
- خصائص الثقافة
- خصائص الثقافتين البدائية وغير البدائية .
- الثقافة والعوامل الجغرافية .

لقد نشأ مصطلح الثقافة ليميز الانسان عن الحيوان . وذلك عندما دعت الحاجة إلى وجود مصطلح ملائم لوصف الجوانب المشتركة من سلوك الانسان والتى بلغت مبلغا عاليا من التطور بالنسبة لسائر الكائنات الحية الأخرى مهما ارتفعت درجة السلم التطورى لها بما فيها القردة العليا ، فالانسان العاقل « Homo-Sapiens » يتميز بهذا النبوغ الملحوظ والمتسع الأبعاد فى أنماط السلوك وطرائق العادات واختلاف القيم على الرغم من أن أفراده يتمتعون بأبنية جسمية وطبائع فسيولوجية متشابهة فى جوهرها وبنفس القدر تتشابه الميكانيزمات (أى الحيل والأساليب) النفسية فى هذا النوع الإنسانى،وليس أدل على هذا التنوع الهائل فى العادات والقيم والتقاليد وأنماط السلوك

عبر الزمان والمكان من اختلاف عادات الطعام وأساليب تناوله وطرق أعداده ونوعيته ، فمع أن الجوع دافع فطرى لدى الجنس الحيوانى بصفة عامة والإنسان بخاصة فان اشباع هذا الدافع يختلف لدى الانسان من حيث نوعه وكيفية تناوله باختلاف المجتمعات البشرية نفسها إلى حد يجعل ما يتناوله بعض الشعوب على أنه أكل شهى سائغ يعد لدى الشعوب الأخرى دنساء محرما كلحم الخنزير الذى تقبل عليه الشعوب المسيحية،بينما يعافه المسلمون وبل تحرمه الشريعة الاسلامية ، واذا كانت جماعات كالاسكيمو فى القارة القطبية يكاد ينحصر غذاؤها فى اللحوم والأسماك ، فان المجتمعات الهنديه المكسيكية ينحصر معظم طعامها فى الحبوب والخضروات،واذا كانت قبائل الهنود الحمر الأمريكية تستخدم الأسماك كثيرا فى غذائها فان شعوب النافاهو Navaho والأباتشى التى تعيش فى « نيومكسيكو » و « أريزونا » تشمئز منها وتعتبرها غذاء غير صالح للانسان(١) وبينما تقبل بعض الشعوب على أكل لحم الكلاب وتربى بعض قبائل الهنود المكسيكيين نوعا خاصا منه لطعامهم فان عديدا من الشعوب الأخرى تنفر منه تماما كمجتمعاتنا الاسلامية .

ولا يقتصر الاختلاف بين البشر على نوع الأطعمة وانما يتناول أسلوب الربط بين أنواع مختلفة منها ، فاليهود المتدينون لا يجمعون بين اللحوم ومنتجات الألبان فى وجبة واحدة ، وان أمكن ذلك فى وجبتين أو وجبات منفصلة كما يفضل الأسكيمو الأغذية البحرية عن تلك التى تنتج من الحيوانات البرية . كذلك فان هناك قواعد معينة تراعى فى عمليات الأكل نفسها كاستخدام الأمريكيين والأوربيين وبعض الشرقيين للملاعق والشوك والسكاكين بينما لا يراعى ذلك كل الشرقيين . بل تتنوع أساليب تناول الطعام بتنوع مجتمعاتهم ومستويات حضارتهم وأنماط ثقافاتهم . كما يخصص سكان « بولينزيا » أدوات خاصة لأكل اللحم البشرى ، الأمر الذى تقشعر منه الأبدان ويعتبر جريمة كبرى فى معظم ثقافات العالم ، وبالمثل تتنوع أنماط اللبس

---

(١) رالف بيلز وهويجر « مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة » ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر ـ مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ نيويورك ١٩٧٠ ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦

والزينة لدى العديد من الثقافات فاذا كان بعض الشعوب كسكان استراليا الأصليين وهنود تبيراديل فيجو Tierradel Fuego يسيرون شبه عراة فان من الشعوب التى يقال عنها أنها بدائية من يغطون أجسامهم بالملابس الكاملة حتى القدمين • واذا كانت حلى بعض القبائل البدائية تتضمن الحلق ودلايات الأنف والشفتين وتـزيين الجسم بالوشم وتلوينه فان أفراد الشلك بجنوب السودان يستخدمون نوعا خاصا من الوشم يسمى « بالطابور » ويتم التشليخ به عن طريق غرس نشابة ذات سن مدبب أشبه ما تكون بالسنارة فى أعلى الجبهة بجوار الأذن اليمنى ثم تجذب بقوة حيث تنتزع جزءا من جلد الجبهة ومن ثم تقطع بآلة حادة ثم تعاد ثانية إلى مكانها وهكذا يصنع ببقية أجزاء الجبهة حتى الأذن اليسرى حتى يتم الوشم وتظهر بروزه التقليدية لأفراد الشلك وتتم عملية التشليخ تلك فى احتفالات خاصة ترقص فيها الفتيات تعبيرا عن ابتهاجن وينتمى كل من وشم من الصبيان فى وقت واحد الى طبقة عمر واحدة[١] •

ولا يقتصر اختلاف الثقافات على مجرد اختلاف أنواع المواد الغذائية او تنوع عادات اللبس والزينة وانما يمتد إلى اختلاف الطرق التى تحدد علاقات الأفراد ببعضهم البعض ،ففى مجتمع النافاهو بأمريكا الشمالية لايتحادث الرجل مع حماته أوحتى ينظر اليها بينما فى مجتمع إلكرو Craw فى منطقة السهول بأمريكا الشمالية يجب على الرجل أن يمزح مع بعض أقربائه ، وألا يضيق ذرعا عندما يتلقى إهانة من أحد هؤلاء أمام الآخرين •

وعلى أية حال فان مجال الاختلاف فى الأنماط الثقافية بين المجتمعـات يفـوق الحصر ، وما سقناه من بعض الأمثلة انما يلقى الضوء على مدى اختلاف تلك الثقافات من خلال تنوع الأنماط السلوكية بحيث يمكن القول بأنه لاتوجد أنماط ثقافية عامة لدى جميع أفراد البشر • صحيح أن دوافع الانسان الفطرية واحدة ولكن وسائل الحصول على إشباعها وكيفية هذا الاشباع يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وبهذا لايمـكن

---

(١) راجع : زكى محمد الاسماعيل « أنثروبولوجيا التربية دراسة نظرية ميدانية فى قبيلـة الشـلك بجنـوب السودان • الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٣١٢ •

التحدث عن ثقافة واحدة وانما عن ثقافات متنوعة • ولكن ما مفهوم الثقافة فى محيط الدراسات الأنثروبولوجية هل يتمثل فى هذا المعنى الدارج الذى يردده جمهور العامة وحتى قطاع عريض من المتعلمين على أنها مفهوم يتصل بالتعلم أو المهارة أو حذق فرع ما من فروع المعرفة ؟ أم أن لها مفهوما آخر يغاير هذا المعنى ؟

مفهوم الثقافة :

لو رجعنا إلى التحليل الفيلولوجى[1] ، للثقافة وجدنا أنها من باب « ثقف » وقد ورد هذا الفعل فى قوله تعالى ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ[2] ﴾ أى وجدتموهم أو أدركتموهم وفى حديث الهجرة « هو غلام لقن ثقف » ، أى ذو فطنة وذكاء والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه وقد ورد فى أساس البلاغة للزمخشرى « ثقفتاه » أى أدركناه وثقفت العلم أى أسرعت اخذه وثاقفه لاعبه بالسلاح ومن المجاز القول أدبه وثقفه[3] •

أما مفهوم « الثقافة » فى الدراسات الأنثروبولوجية فيكاد يكون أوسع مفاهيمها انتشارا ، ويرجع ذلك إلى أن « الثقافة » هى موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية والتى تعد من أوسع الكتابات انتشارا لا وسيما فى محيط الأنثروبولوجيا الأمريكية التى تتبنى الاتجاه الثقافى فى مقابل المدرسة البريطانية التى تتبنى الاتجاه البنائى الوظيفى وقد قام الأنثروبولوجيان الأمريكيان « الفريد كروبير » A. Kroeber وكلايد كلكهوهن C. Kluckhohn بعرض ما يزيد عن مائة وستين تعريفا للثقافة وبعد أن استعرضنا هذا الحشد الهائل من التعريفات لعديد من الأنثروبولوجين أشارا إلى أنهما يستطيعان بدون أدنى تحيز لأى من هذه التعريفات أن ينتهيا إلى أن الثقافة ذات مضمون تاريخى Historical أى من حيث كونها تراكما لعديد من الأنماط والمركبات الثقافية التى تراكمت عبر تاريخ ثقافى طويل • وبالتالى فهى تشتمل على الانماط والأفكار والقيم ،

---

(١) اى الذى يتصل بفقه اللغة التاريخى والمقارن :

(٢) البقرة الآية ١٩١

(٣) اساس البلاغة للعلامة جارالله ابى القاسم محمود بن عمر الزمشخشرى دار صادر ودار بيروت •

ولها صفة الاختيار والانتقاء وهى فى نفس الوقت مكتسبة أى تتعلم ٠ كما أنها تجريد Abstract للسلوك الانسانى وان لم تكن هى السلوك نفسه الا أنها نتيجة لهذا السلوك[١] ٠

وقد ذكر الكاتبان فى هذا الوصف الموجز للثقافة كل ما يتعلق بها من خصائص تقريبا باعتبار أنها حصيلة كل ما يتصل أو يتمخض عن التراث الإنسانى من عقائد وقيم ورموز وأفكار وطقوس وشعائر تميز مجتمعا ما عن غيره من المجتمعات ، وبهذا كان للثقافة مضمونها التاريخى من حيث إنها تعبير عما يرثه الخلف عن السلف من تراث متراكم عبر الزمان الثقافى وثقافتنا الاسلامية تعبر بجلاء عن هذا التراكم فى التراث الاسلامى العريق والذى يتمثل فى العقائد والعبادات والشعائر والقيم الاسلامية التى انحدرت الينا من السلف ابتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام مستقاه من القرآن الكريم والسنة النبوية والاجماع عليهما والاجتهاد فى تفسير مضمونها ٠

واذا كان للثقافة مضمونها التاريخى المتمثل فى التراث الانسانى العريق فان لها صفة الانتقاء والاختيار كذلك ، وبهذا يختلف الانسان ذو الثقافة عن الحيوان الذى لاثقافة له ، وإذا كان الحيوان يرث عن أسلافه وراثة تلقائية كل أنماط ومحددات السلوك فالانسان على العكس صانع الثقافة ينتقى ويختار بل ويبتكر بفكره وادراكه مايحدد به معالم شخصيته الثقافية من ناحية ، ويتأقلم به مع بيئته الطبيعية من ناحية أخرى ، وان كانت درجة اختيار الانسان وانتقائه لأنماط ثقافته تختلف باختلاف طبيعة الثقافة أو درجة الحضارة فالثقافة البدائية تكاد تنتقل برمتها من الآبـاء للأبنـاء دون ظهـور الانتقائية فيها على أساس أن المجتمع البدائى مجتمع يكاد يكون مغلقا لاتهب عليه رياح الانتشار الثقافى بينما تتيح ثقافة الحضر لأفرادها درجة كبيرة من الانتقاء والاختيار وذلك لسيادة مبدأ الانتشار الثقافى فى مجتمع مفتوح يستقبل ويرسل أنماطا ثقافية عديدة تخضع لعامل التغير الثقافى ، وهنا يظهر بوضوح ما يمكن أن يطلق عليه « الحـرية

---

1. Kroeber, A.L. and Klockhohn. C. Culture. A critical Review of Concepts and Definitions in "Social Foundations of Education." Cole, W.E. and Cox, R.L. American Book Com., N.Y., 1968, P. 72.

الثقافية » بمعنى أن الفرد فى المجتمع الحضرى يستطيع أن ينتقى ويختار من بين الأنماط الثقافية العديدة أنماط سلوكه التى يمكن أن يتميز بها عن أفراد آخرين فى مجتمعه ٠٠ فمن حقه أن يكون تاجرا أو زارعا أو صانعا أو محاميا أو مهندسا أو مدرسا أو طبيبا ٠٠ الخ وفى كل من تلك المهن يتفق ويختلف فى أنماط سلوكه مع أفراد آخرين من مجتمعه بعكس الفرد فى المجتمع البدائى الذى يتقبل أنماط ثقافته برمتها دون تغيير أو تبديل يذكر ولهذا تتجانس مهن الأفراد وأدوارهم ولا تكاد تختلف الا فيما يتعلق بالعمر والنوع بمعنى أن تقسيم العمل يظهر بين الذكور والأناث كما يختلف نوع العمل بين الكبار والصغار ٠٠ ولهذا ترى الأنثروبولوجية الأمريكية موجريت ميد M. Mead أن جوهر الاختلاف بين نمطى التربية فى كلا المجتمعين البدائى[١] والحضرى يتضح من خلال حاجة الفرد فى المجتمع البدائى ليتعلم أنماطا ثقافية معينة يتفق أفراد المجتمع على تعلمها ، بعكس نمط التربية فى المجتمع الحضرى والذى يعبر فيه الفرد عن رغبته فى اكتساب أنماط ثقافية قد لايرغب فى دراستها أفراد اخرون فى محيط الثقافة نفسها[٢] ٠

ومن الأهمية أن نشير إلى أن ثقافتنا الاسلامية لها طابع خاص يميزها عن النمطين السابقين ، ففى الوقت الذى تفرض فيه ثقافة الإسلام على المسلمين قيما ومبادىء جوهرية عامة تتمثل فى اتباع هدى القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام الا أن لها صفة الاختيار الذى يتمثل فى الأخذ بالرخص التى أباحها الإسلام فللزوج أن يتزوج بأكثر من واحدة متى دعت ظروفه إلى ذلك ، وللمريض والمسافر كليهما أن يفطر فى رمضان،ولمن لايجد ماء أن يتيمم ، وللمسافر أن يأخذ بنظام القصر فى الصلاة ٠٠ الخ ، وهنا يظهر طابع الإجبار والاختيار معا فى الثقافة الاسلامية ٠

---

(١) تتحدث هنا عن المجتمع البدائى كنموذج أو مثال للمجتمع البعيد تماما عن الحضارة والتغير الثقافى ، وان كان مثل هذا المجتمع نادرا فى وجوده الان لما حدث من حصول مثل هذه المجتمعات على استقلالها واختلاطها بمناطق حضارية متصلة بها أو قريبة منها كما اصبح لانتشار الوسائل الثقافية اثره فى تخلى مثل هذه المجتمعات عن بدائيتها الامر الذى دعا بعض الانثروبولوجيين لوضعها بأنها مجتمعات « شبه بدائية » ٠

2- Mead Margaret, *Our Educational Emphasis in Primitive Perspective* in (ed) G.D. Spendler, Ecucation and Culture, Anthropological Approach N.Y. 1963 P. 311.

ولعل هذا المدخل يلقى ضوءا ما على مفهوم الثقافة وبالتالى يوضح استحالة التحدث عن ثقافة واحدة وإنما عن ثقافات متعددة ، ولعل أشهر تعريفات الثقافة التى تزخر بها كتب الأنثروبولوجيا • تعريف الأنثروبولوجى الشهير « ادوارد بيرنت تايلور » E.B. Tylor والذى استهل به كتابة « الثقافة البدائية Primitive Culture ويقول فيه « الثقافة - او الحضارة بمفهومها الأثنوجرافى الواسع - هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التى يكتسبها الانسان بوصفه عضوا فى مجتمع[1] ، وقد ساد هذا التعريف فى بداية القرن العشرين على أنه التعريف الأمثل للثقافة بيد أنه لم يعد الان يعبر عن الثقافة كمفهوم واقعى حيث لايتحدث إلا عن الجانب المعنوى أو اللامادى فى الثقافة والذى يشتمل على العادات والعرف والقيم والمعرفة •• الخ • وقد فطن « تايلور » نفسه إلى هذا حين أشار فى موضع اخر من كتابه إلى أن الثقافة تشتمل على الأشياء والعناصر المادية المختلفة كالفأس والرمح والقوس • كما تشتمل على الفنون العملية كالصيد واشعال النار وصناعة الحراب •• الخ[2] ، وقد تلا تعريف « تايلور » هذا عديد من التعريفات التى حدد بها الأنثروبولوجيون والسولوجيون معا مفهوم الثقافة ومن أشهر تلك التعريفات تعريف كل من بيلز R.L. Beals وهويجر H. Hoijer واللذين يريان أن الثقافة تتضمن فى معظم تعريفاتها التطبيقية انماط وأساليب الحياة العامة فى أى زمان أو مكان كما تتضمن بصفة خاصة الأنماط السلوكية لكل مجموعة من المجموعات البشرية المتشابكة والمتداخلة قل عددها أو كثر كقبائل الهند الساحلية ومجتمع الأباش وغيرها من المجتمعات بدائية كانت أم متحضرة ، كما يريان فى الثقافة تجريدا مستمدا من السلوك الانسانى الملاحظ حسيا وان أمكن القول بأن الثقافة ليست هى نفس هذا السلوك[3] •

1- Tylor, E.B. Primitive Culture, London, 5ed 1913. 3.

2- Ibid. PP 5-6

3- Beals, R,L. and Hoijer H. An Introduction to Anthropology N.Y. Macmillan. 1957 P. 219.

أما هورتن .Horton. P.B وهانت .Hunt. C.L فيعرفان الثقافة تعـريفـا أشمل من التعريف السابق فهى كل ما يتعلمه الانسان أو يرثه كميراث اجتماعى لابيولوجى يكون قابلا للتطوير او التعـديل او التغيير وبحيث يصبـح المقبـول من العناصر الوافدة او المتعلمة جزءا من التراث الثقافى الذى ينتقل الى الاجيال اللاحقة من الأجيال السابقة[١] ويقسم العالمان هذا التراث الاجتماعى الى قسمين تتكون منهما الثقافـة وهما ثقافـة مادية Material Culture وثقافـة غـير مادية Non-Material Culture وبينما يشتمل النوع الثانى على اللغة والأفكار والقيم والتقاليد والمعرفة فان الثقافة المادية تتألف من الأشياء كالآلات والعدد والسيارات والمصانع والمبانى ووسائل الزراعة المختلفة وهنا يجمع الكاتبان من خلال تعريفهما كل مكونات الثقافة من وسائل مادية وغير مادية[١] ، وان كنا نرى أن الفصل بين الجانبين فصل تعسفى اذ يرتبط كلا النوعين بالاخر ارتباطا عضويا فنحن لايمكن مثلا ان نفصل المسجد كبناء مادى عن الصلاة كعنصر روحى يدفع اليه الايمـان وتحـركه العقيدة الاسلامية • ولايمكن أن نفصل بين دوافع الحج الروحية وبين الأماكن المقدسة التى تؤدى فيها المشاعر كالحرمين الشريفين ومنى وعرفة والكعبـة والصفـا والمرة وأمـاكن الجمار •• الخ • كما لايمكن ان نتصور التكنولوجيا المتطورة بعيدة عن ازدهار الفكر ولا ازدهار الفكر وانتشار المعرفة فى مجتمع ما بعيد عن الوسائل المتطورة والتى بدأ الحاسب الآلى الكومبيوتر يغزو ميادينها فى عديد من المؤسسات الثقافية فى المجتمع المتطور •

ويرى بعض الأنثروبولوجين فى الثقافة تجريدا abstract مستمدا من السلوك الواقعى الملاحظ وان لم تكن هى هذا السلوك كما أشرنا ويضربون مثلا لذلك بالخريطة الجغرافية التى إن لم تكن هى الأقليم نفسه إلا أنها تجريد لمنطقة خاصة به •• تماما كالثقافة التى تعبر عن معنى تجريدى لميول الأفراد تجاه نوع خاص من الـكلمات والأفعال والوسائل المادية فى مجتمع ما ومع هذا فان الخريطة الجيدة لن تفقد معالمها بعد

1. Horton, P.B. and Hunt, C.L. Sociology, 2nd edition, Chapter 3, P. 78 (W.D.)

قراءتها،ومن أنصار هذا الاتجاه كل من كروبير « وكلوكهوهن » واللذين يتفقـان فى اتجاههما هذا مع بيلز « وهويجر » وإن أشار كروبير إلى أنه لايقصد بالتجريد المعنى الفلسفى وانما يقصد به النمط Pattern أى الصورة العامة التى يتكرر حدوثها فى الحالات الفردية للأشياء والأفعال الإنسانية والتى يعرفها احصائيا بالمتوسط أى التى تمثل أكثر الحالات تكرارا واطرادا،فمثلا قد يكون الانسان طويل القامة أو متوسطها أو قصيرها أبيض اللون أو أسوده أو أصفره ٠٠ الخ ، ولكن نمط الانسان هو هو لايتغير هذا النمط أو المفهوم العام هو المقصود بالتجريد ويعرف كلابد كلوكهوهن الثقافة بقوله نقصد بالثقافة كل مخططات الحياة التى تكونت عبر التاريخ البشرى سواءً ما كان ضمنيا أو صريحا منهـا عقليا أو غـير عقلى وهـى توجـد فى أى زمـان كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة وإلى نفس المعنى يشير فى موضع آخر يقوله « ان ثقافة مجتمع ما ليست سوى نسق تاريخى المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية معا حيث يشترك فى هذا النسق جميع أفراد الجماعة « أى المجتمع » أو أفراد قطاع خاص معين منها[١] ٠

ويعارض الاتجاه التجريدى الأنثروبولوجى البريطانى راكليف براون R. Brown اذ يصف هذا التجريد بأنه تجريد غامض ، لايعبر عن طبيعة الثقافة التى يعايشها الأفراد وتعبر هى عن أنماط سلوكهم ودوافع حياتهم وقيمهم ومعارفهم ٠٠ الخ ، وان كان عالما مثل ليزلى هوايت L. White يرى أن الثقافة لايمكن أن تكون غير الأمـور المحسوسة التى تتمثل فى الأفعال والأشياء والأفكار التى صنعها الانسان وانتقلت عبر الزمان والمكان وان على الأنثروبولوجى حين يدرس الثقافة ان يلتزم منهج الملاحظة العلمية فى دراستها لتحديد طبيعتها وصولا إلى القانون أو التعميم الذى يفسرها ، وقد اعترضت ليزلى هوايت ٠ مشكلة أساسية تتمثل فى كيفية تمييز الثقافة المتمثلة فى السلوك الانسانى الواقع المحسوس عن ميدان علم النفس الذى يدور حول نفس

---

1. Kluckhohn, C. and William Kelley "The Concept of Culture 2 in The Science of Man in the World N.Y. 1979, PP. 78 - 106.

الموضوع وهو السلوك البشري ، وبعد أن طرح تلك المشكلة ذكر حلها عن طريق ما أسماه بالنظرية الرمزية ومؤداها أن الانسان وحده هو الذى يملك اضفاء الرموز •

على الأشياء ليكسبها معانى واتجاهات خاصة ويتمثل ذلك فى اللغة الكلامية التى تعبر عن أهم ما يتميز به الانسان فى عالم الكائنات الحية برمتها والتى بمقتضاها يضفى على المعانى والأفكار والأشياء والقوانين والعواطف والاتجاهات وسائر ما يخترعه معانى خاصة ولهذا يمكن دراسة هذه العناصر السلوكية من منظوريها الإطار الشخصى والإطار خارج الشخصى Extra Somatic فاذا كانت دراسة الفكرة أو المعنى أو الشيء أو الاتجاه من زاوية اتصالها بالشخص ذاته كانت تلك دراسة فى صميم علم النفس الذى يدرس السلوك الإنسانى من زاوية شخصية بينما يتمثل الاطار خارج الشخصى فى دراسة الأفكار والاتجاهات والأفعال من زاوية العلاقة بين تلك الأفعال والاتجاهات والأفكار ببعضها البعض بعيدا عن المجال الشخصى اى بصفتها أمورا تقع فى دائرة خارج الفرد وحينئذ تصبح تلك المعالجة دراسة فى صميم الثقافة أو الأنثروبولوجيا الثقافية. وقد دعا هذا هوايت لأن يعرف الثقافة بأنها الأشياء والأفعال ذات المعانى والتى تدرس فى الاطار خارج الشخصى (١) ، ونستطيع أن نقرب رأى هوايت هذا ببعض الأمثلة من ثقافتنا الاسلامية ، فاذا افترضنا ان الحاج ينظر إلى الكعبة من زاوية ما تثيره فى نفسه من احترام وتقدير وإيمان بقدسيتها بحيث يؤدى إدراكها إلى إثارة الوجدان المسلم فالتلبية فالطواف فان ذلك يدخل فى صميم دراسة علم النفس الذى يربط بين الادراك والوجدان والنزوع فى سلسلة سيكلوجية متصلة الحلقات، أما اذا كانت النظرة إلى الكعبة المشرفة من خلال تاريخها الاسلامى وقبل الاسلامى كأول بيت وضع للناس وعلاقتها بطواف الرسول عليه الصلاة والسلام بها وأنواع الطواف قدوما « وافاضة » و « وداعا » و « وعمرة » وعلاقتها بالحجر الأسود والحرم المكىّ وبكونها قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وتمثل قوله تعالى :

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٢)

1- White, L. The Concept of Culture, The Bobbs, N.Y. 1959, P. 283.

(٢) البقرة الآية ١٤٤

وقوله عز وجل : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[1] ، نقول اذا كانت النظرة لتلك الأفعال والأشياء والمعانى من خلال علاقاتها ببعضها البعض فان ذلك يعد دراسة فى صميم الثقافة أو الأنثروبولوجيا الثقافية .

النمط الثقافى : Cultural Pattern

النمط الثقافى هو تنظيم وترتيب العناصر أو المركبات الثقافية فى وحدة متكاملة أو أنه تعبير عن عمل أو اعتقاد ما شرط أن يكون مألوفا لدى عامة الناس مثل نمط الصلاة أو الصوم فى محيط المجتمع الاسلامى، وترى روث بندكت R. Benedict ان الأنماط هى وحدات تتألف منها الثقافات وأن لها خصائصها المميزة وتستمد كل ثقافة اطارها ومظهرها العام من هذه الأنماط بشكل يميزها عن غيرها من الثقافات الأخرى وان كان الأنثروبولوجى الأمريكى هوبل A. Hoebel يختلف تعريفه للنمط عن تعريف بندكت فيرى أن النمط شكل معيارى من أشكال السلوك يحدده إجماع أفراد المجتمع ، ويختلف النمط عن التشكيل الثقافى Configuration الذى يعبر عن الترتيب المميز للعناصر الثقافية والذى يعطى الثقافة طابعها الخاص .

الموروثات الثقافية

هى مجموعة أنماط تنتقل من جيل لآخر مشكلة الطابع العام للثقافة مثل غطاء الرأس أو قفاز اليد أو حذاء القدم ويسمى كل نمط من هذا « سمة » .

وتختلف العناصر أو الأنماط الثقافية من حيث نوعياتها كما يلى :

١ ـ النوع الاجبارى Compulsory

وهو نوع تسلك بموجبه الثقافة طريقا واحدا محددا وملزما (ازاء موقف معين) كالقصاص فى الشريعة الاسلامية فى الدول التى تطبق شريعة الاسلام فى الحدود كالمملكة العربية السعودية وباكستان حديثا مثل قطع يد السارق ورجم الزانى المحصن ... الخ .

---

(١) البقرة الآية ١٤٤

٢ ـ النمط الثقافى المفضل Preferred

وهو نمط يتيح للفرد أن يفاضل بينه وبين غيره من الأنماط بحيث يكون هناك نمط أعلى وأوسط وأقل وللفرد أن يختار ، كأن يخير صاحب الحق فى الشريعة الاسلامية بين القصاص والعفو ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) والمشاهد للمنكر ٠ قد يغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه ٠

٣ ـ النمط الثقافى الشائع Typical

وهو نمط من بين أنماط ثقافية متعددة يمكن للفرد أن يختار من بينها كالنمط السابق ولكنه يفضل الاختيار الشائع وقد لا يكون الأفضل كالمغالاة فى المهور مثلا يختاره الفرد لأنه أكثر شيوعا .مع أن الأفضل فى الإسلام هو عدم المغالاة فيها ٠

٤ ـ النمط الاختيارى Alternative

وهو نمط بين أنماط أخرى تنتشر فى الثقافة ولا يفضل الفرد أحدها على الآخر لأن الجماعة تنظر اليها نظرة تكاد تكون متجانسة وكلها مقبولة بدرجة متقاربة كالأنماط المتبعة فى معالجة الطعام وطهيه أو بناء المساكن ٠

٥ ـ النمط المحدود النطاق Restricted

وهو نمط يختص به قطاع معين من قطاعات المجتمع أو فئة من فئاته مثل هيئة التدريس بالجامعة أو رجال القضاء أو الحرفيين ٠ فلكل أنماط معينة فى الزى الرسمى أو أسلوب المهنة ونوع التفكير وطبيعة العمل ٠ الخ ٠

العلاقة بين الثقافة والحضارة

كثيرا مايحدث الخلط بين مفهومى الثقافة والحضارة حين يتناول بعض الانثروبولوجيين والسوسيولوجيين شرح مفهوم كل منهما ومن هؤلاء الانثروبولوجى البريطانى « تايلور » والذى أشرنا إلى تعريفه السابق للثقافة حيث يطابق فى مطلع

---

(١) الشورى الآية ٤٠

هذا التعـريف بـين « الثقافـة » و« الحضــارة»بمعناهـا الاثنوجـرافى الواسع « in its ethnographical sense » كما أن عديدا من الكتـاب المحدثـين يخلطون بين مفهومى المصطلحين فيترجمون كلمة Culture بحضارة على أساس ان لكل مجتمع حضارة وأحد جوانب هذه الحضارة هو الجانب الثقافى الـذى يمثـل كل مايتصل بالأفكار والمعارف والمشاعر واذا كان لفظ الحضارة هو المصطلح العام فان حضارة المدن هى المدنية[1] ٠

ونحن لانتفق مع أصحاب هذا الرأى ونرى عكس ذلك أى أن الحضارة درجة متقدمة من الثقافة « تقابلها البدائية Primitivism كدرجة متخلفة منها أو انها أقل المستويات فى سلم الثقافة بينما الحضارة تمثل قمة هذا السلم الثقافى واذا استعرنا لغة النطق قلنا ان الثقافة « جنس » والحضارة « نوع » يندرج تحتها ويتفق رأينا هذا مع المفهوم اللغوى للفظ« حضارة » والذى يشير إلى أن الحضر والحضارة هى الاقامة فى الحضر أو التمدن والحضرى خلاف البدوى والحاضرة والحضر « المدينة الكبيرة » جمعها « حواضر »[2] وبهذا فان الحضارة أو المدنية مصطلحان يعبران عن الأوجـه العملية والفكرية لثقافة المتحضرين أى الذين عاشوا ومارسوا أساليب الحضر[3] ، كما نتفق فى رأينا هذا مع كل من الينوفسكى الذى يرى أن الثقافة حقيقة قائمة بذاتها وان أمكن تقسيمها إلى جانبين مادى وغير مادى[4] أو مايسميه بنسق العادات ٠

كما نتفق مع « هولتكرانس » الذى يعرف الحضارة بأنها « درجـة » من ثقافـة متقدمة نوعا ما حيث تكون الفنون والعلوم وكذلك الحياة السياسية على درجة كبيرة من النمو ٠

وبهذا يمكننا القول بأن الحضارة أو المدنية أسلوبان أو درجتان متطابقتـان من

---

(١) حامد عمار بعض مفاهيم علم الاجتماع دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٢ ص٧

(٢) المنجد ٠ لويس معلوف ٠ مادة حضر ومدن ٠

(٣) محمد عبدالمنعم نور الحضارة والتحضر دراسة اساسية فى علم الاجتماع الحضرى مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة ١٩٧٣م ص٢٣ ٠

4- Malinowski, Culture, Encyclopaedia of Social Sciences P. 633

درجـات الثقافـة شأنها فى ذلك شأن البـدائية أو البـداوة Nomadism أو القبلية Tribalism مما يجعلنا نقول بأن كل حضارة أو مدنية ثقافة وليسـت كل ثقافـة حضارة أو مدنية • كما يمكننا القول بأن الثقافة هى أسلوب أو طريقة حياة فى مجتمع ما أو أنها الكل المحدد لأنماط سلوك مجتمع ما مع علاقة ذلك السلوك بالجوانب المادية لهذا المجتمع •

ظاهرة البداوة

كانت البداوة هى النمط السائد لحياة الانسان فيما قبل التاريخ ، فقد بدأ حياته بدويا يعتمد فيها على عدم الاستقرار والتنقل وهما سمتان بارزتان لظاهرة البداوة حتى الآن • وقد كانت الزراعة بداية عصر الاستقرار وهو عهد حديث إذا قيس بتـاريخ الانسان ، وعليه فان البداوة ظاهرة تعتمد على عدم الاستقرار وتتخذ مبدأ الرحلات الدورية والمتكررة لمساكن الناس سعيا فى طلب الرزق • ولهذا فان البداوة ليسـت سمتها التنقل المطلق غير المحدود وانما تنقل يستهدف التحرك حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية موارد المعيشة المتاحة ونوعية هذه الموارد ومدى الوسائل الفنية التى تستخدم فى استغلالها ومدى الأمن الاجتماعى والطبيعى الذى يمكن أن يتوافر فيها •

البداوة والهجرة

ان ماتتميز به البداوة من حركة موسمية تعتمد على التنقل الدورى يخلق نوعا من التداخل بينها وبين الهجرة ، ولكن الهجرة تفترض نقطة انطلاق وبداية ثابتة محدودة سواء كانت هجرة مؤقتة أو دائمة ولكن نقطة الانطلاق فى البداوة نقطة دائرية بمعنى أنها نقطة بداية ونهاية معا • والمناشط القديمة كالصيد والرعى وجمع الثمار والزراعة المتنقلة هى أقدم ماعرف الانسان من أساليب الحياة وتنطوى بطبيعتها على البداوة لقيامها على التحرك والتنقل واذا كان الانسان الحضرى المعاصر يستخدم الصيد بعديد من وسائل

التكنولوجيا فذلك للمتعة التى يختلف فيها عن البدوى أو البدائى حين يصطادان فذلك من صميم حياتها وليس للمتعة أو للترف ٠ [١]

الثقافة واللغة

لعل أهم مايميز الانسان صانع الثقافة عن الحيوان الذى لاثقافة له أن للانسان لغة صوتية يعبر بها تعبيرا رمزيا عن سائر أنماط ثقافته وبهذا كانت اللغة أهم وأعظم العوامل التى أدت إلى تقدم الثقافة وإذا أمكن لأنواع من الحيوانات كالقردة أو الخيل أو الكلاب عن طريق التعلم بالارتباط الشرطى Conditioning ان تدرك العلاقات بين الكلمات والأعمال أو الأشياء كاطاعة الأوامر حسبما يشاهد من مدربى هذه الحيوانات إلا أنها لاتنتفع من هذه القدرة فى علاقاتها مع بعضها البعض ، وإذا استطاعت بعض قردة « الانثروبويد » ذلك بما لها من أجهزة فسيولوجية شبيهة إلى حد كبير بمعدات النطق لدى الانسان إلا أنها لاتستطيع تعلم النطق ولا التفوه بالكلمات أبدا وقد أعلن العالم (د٠بلوج) أستاذ علم الاحياء فى معهد (ماكس بلانك) الأمريكى أخيرا أنه فشل فى تدريب قرد من المرتبة العالية على الكلام بعد أن حصل على القرد فور ولادته وعزله داخل بيت خاص فى المعهد حيث بدأت التدريبات المضنية عليه لمدة عامين كاملين وذلك لمدة ٦ ساعات يوميا واشترك فى التجربة ستة من مساعدى العالم وكانت النتيجة أن القرد لم يستطع اطلاقا نطق كلمة واحدة [١] وكل ماتعلمه هو محاكاة حركات واشارات العالم ومساعديه فحسب وهى حركات تصاحب أصوات القرود التى تسمع عادة ٠

ولقد لعبت اللغة أهم أدوارها فى بناء التراث الاجتماعى البشرى عن طريق نقل الافكار والمعارف والاتجاهات والرموز بسهولة ودقة ، ولولا اضطلاعها بهذا الدور ماقدر للثقافة أن تظهر إلى عالم الوجود ، وهنا يظهر الفرق واضحا بين التراث الاجتماعى

---

(١) جريدة الاهرام القاهرية ١٩٧٣/٨/١٤م

لدى الانسان والارث الفطرى لدى الحيوان • فاذا كانت انثى الحيوان تفر بصغارها سريعا حين ترى خطرا داهما يتهددها هى وأولادها فانها لاتستطيع أن تخبر صغارها عن المهاجمين من هم وما هى بنادقهم وما هدفهم منها ومن صغارها أى لاتستطيع أن تنقل ذلك الجزء المنطقى من السلوك إلى أولادها •(٢)

وان نجحت فى أن تنقل الجانب الفطرى منه والذى يتمثل فى الجانب النزوعى أى الهرب من الخطر لتحقيق دافع البقاء والحفاظ على الحياة ـ ولا تقتصر أهمية اللغة فى الثقافة عند هذا الحد فحسب وانما تنقل الأفكار والمثل والمعايير وتتحدث عن السلوك الملائم لتحقيقها ابتغاء زيادة كم التراث الانسانى أى لاتتحدث اللغة عن الواقع الراهن فحسب وانما عن تصور الانسان وتخيلاته وطموحه فى تحقيق المستقبل أو توقع حدوثه فرغم أن ثعبانا ساما لم يلدغ انسانا ما فى بيئة بها هذا الثعبان إلا أنه يعرف مسبقا ماينبغى أن يقوم به عند اللدغ والسلوك الوقائى المتبع حياله عندما يصادفه مثل هذا الخطر وقد كان صنع السهام والحراب وادوات القتال انماطا تكنولوجية صنعها الانسان لمواجهة مايصادفه من أخطار فى بيئته الثقافية وبهذا فان السلوك المتعلم لدى الانسان لايتم رهن المصادفات والعفوية وانما يتحقق عن طريق المعرفة والبحث عنها فى كافة مصادرها ومظانها بل وتسجيلها من الجيل المعاصر إلى الذى يليه وهكذا لهذا أصبحت اللغة جزءا لايتجزأ من الثقافة بل الاداة الفعالة فى نقلها عبر الزمان والمكان معا وتعد اللغة العربية لغة القرآن الكريم أهم عناصر الثقافة الاسلامية لأنها هى التى حملت التراث الاسلامى بكل منطلقاته وموجهاته فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وتراث الخلفاء الراشدين والصحابة وبوجه عام ولهذا فانه لايمكن بحال ما ان ينقل اعجاز القرآن اللغوى والبيانى من خلال ترجمته الى أية لغة أخرى ، وكل مايمكن هو ترجمة معانيه لا ترجمة إعجازه البيانى •

2-.Linton R. ***The study of man, Appelton Century*** - Crofts. N.Y. 1963.

والاشارة الى الترجمة العربية بعنوان « دراسة الانسان ترجمة عبدالملك الناشف مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤م ص١٠٦

سمات الثقافة ومركباتها

السمة الثقافية Cultural Trait

السمة الثقافية أو العنصر الثقافى أبسط جزئيات الثقافة أو التى لايمكن أن تحلل إلى ماهو أبسط منها من سمات أو عناصر كما كانت الذرة من قبل أبسط العناصر الطبيعية وقد اختلفت العلماء حول تحديد السمة الثقافية . فمثلا « البدلة » وهى الزى الأوربى هل تعد سمة ثقافية أم أنها « مركب ثقافى مادى » ينقسم إلى « البنطلون » و« الجاكت » ويحلل بعض الانثروبولوجيين رقصة « الشبح » المنتشرة بين الهنود الحمر إلى مائة عنصر أوسمة ويحللها البعض إلى أقل من ذلك ـ ومن الأهمية أن نشير إلى أن السمة الثقافية لايمكن دراستها وفهمها إلا من خلال ماتنطوى عليه من سمات عناصر عديدة منها الطهارة والوضوء ودخول الوقت والاستعداد للصلاة واستقبال القبلة والنية والتوجه للمسجد ... الخ وإذا كان مركب الارز البرى من الملامح الهامة لثقافة هنود الاوجبواى Ojiway الذين يعيشون حول بحيرة « سوبيربور » فانه رغم بساطة هذه الظاهرة الثقافية إلا أنها تتمثل فى عديد من السمات المتعددة التى تتشابك فيما بينها لتكوين الظاهرة ، إذ أنه رغم نمو الارز فى البر عند هؤلاء الهنود إلا أنه غير مسموح الأخذ منه إلا بقواعد خاصة وتعطى القبيلة أهمية كبيرة للمناطق التى ينمو فيها الأرز كتلك الأهمية التى تمنحها للنبات نفسه أثناء وجوده بالحقول ويحزم الأرز بطريقة معينة لاتتيح للطيور الاغارة على سنابله كما يحصد فى مواسم معينة وبأساليب مرسومة ومتوارثة وكل هذا يرتبط بقواعد متعددة تتصل بآداب السلوك واللياقة والمحافظة على الوقت وبالممارسات والمحظورات والتحريمات الدينية ... الخ .

ولا تقتصر السمة الثقافية على أن تكون شيئا فحسب بل يمكن أن تكون علاقة أو فكرة ومن مجموع هذه الأشياء والعلاقات والأفكار يتكون المركب الثقافى Cultural Complex وهو عبارة عن مجموع سمات ثقافية ترتبط كل منها بالأخرى ارتباطا عضويا وظيفيا بحيث يتكون من مجموعها « المركب » كوحدة متكاملة اذا اختفت سمة ما من سماته فقد المركب الثقافى وحدته ككل ومثال ذلك مركب « تعدد الزوجات » عند المسلمين فهو يتكون من سمات ثقافية متداخلة فيما بينها ومرتبطة ارتباطا عضويا وظيفيا ومن أهم السمات المبدأ الاسلامى الذى يبيح مبدأ التعدد وظروف ذلك التعدد ومدى

اباحته فى الشريعة الاسلامية وكم هذا التعدد « مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ » [1] والعدل بين الزوجات « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » [2] ثم طبيعة العدل نفسه هل هو فى الميل القلبى أم الأمور المادية ولا تميلوا كل الميل « ثم عنصر المساواة فى توفير السكن والغذاء والاستقرار العائلى والمضجع » ••• الخ وكذلك عنصر العلاقة بين الزوجات وبينهن وبين عائلاتهن ••• ومن الأهمية أن نشير إلى أن هذا المركب الثقافى الاسلامى إذا اختفى أى من عناصره لم يعد مركبا ثقافيا إسلاميا كاختفاء العنصر الاسلامى مما يجعله (مركب تعدد الزوجات عند غير المسلمين) والذى يختلف اختلافا كبيرا عن المركب الاسلامى من حيث سماته وعناصره ـ ومن مجموع المركبات الثقافية التى تتجمع فيما بينها يتكون النظام Institution والنظام هو مجموعة مركبات ثقافية ترتبط فيما بينها ارتباطا وظيفيا بحيث لو اختفى أى مركب منها انهارت وحدة النظام نفسه مثال ذلك نظام الزواج فى الإسلام الذى يشتمل على مركبات ثقافية متعددة كمركب تعدد الزوجات الذى أشرنا اليه ومركب وحدانية الزوجة • ونظام الحياة الاسرية بعد الزواج والعلاقات القرابية ••• الخ ومن مجموعة النظم الثقافية التى تندرج فى اطار واحد يتكون النسق System وهو عبارة عن مجموعة من النظم المحورية التى ترتبط فيما بينها لتكون نسقا ما كالنسق الاقتصادى والذى يتألف من عديد من النظم كنظام الزراعة أو التجارة أو الصناعة ويندرج تحت كل من هذه النظم نظم فرعية أخرى عديدة ـ وعلى أية حال ـ فمهما حللنا الثقافة إلى عناصرها وسماتها ومركباتها ونظمها المتعددة فانها تشتمل على قطاعات ثلاثة هى :

١ ـ القطاع الفكرى الرمزى :

٢ ـ القطاع المادى •

٣ ـ القطاع الاجتماعى •

ويعتمد القطاع الفكرى الرمزى على الأفكار والعقائد والقيم والاتجاهات التى يؤمن بها الأفراد وينشئونها ـ اما القطاع المادى فيعتمد على الأشياء المادية المحسوسة التى يعطيها الانسان معنى معينا وغالبا ماتكون من صنع الانسان نفسه كالتكنولوجيا بمختلف وسائلها ـ أما القطاع الاجتماعى فيعبر عن صور العلاقات المختلفة التى تحدد

(١) ، (٢) النساء الآية ٣

خطوط التفاعل بين أفراد البشر بعضهم ببعض أو بين البشر والأشياء ·

الثقافة كل مترابط

إن هذا التقسيم الذى أشرنا إليه كتحليل علمى للثقافة من سمات ومركبات ونظم وأنساق إنما يسوقه العلماء لتسهيل دراسة الثقافة دراسة علمية موضوعية وان كان ذلك لايعبر عن الواقع بدقة لأننا لايمكن أن نفصل السمة الثقافية عن المركب الذى يحتويها ولا المركب عن النظام أو النسق ، ثم الفصل بين النظام والنسق غير واضح ويستخدم بعض العلماء مفهوم النظام بدل النسق،وقد قسم العلماء الثقافة الى عديد من هذه المفاهيم لتسهيل دراستها · وعلى أية حال فان سمة من سمات الثقافة كوجود « عادة » أو« تقليد » أو« آلة » لايمكن تفسيرها من الناحية الثقافية إلا بالرجوع إلى الكل الثقافى العام التى هى جزء منه[١] ونحن لايمكن أن نحدد النمط الثقافى للبيت العربى مثلا من حيث تكوينه ومقاييسه وعدد طوابقه ونظام فتحاته ومساحة فنائه ونوع الأحجار أو الطوب الذى بنى منه إلا إذا أشرنا إلى طبيعة النظام الثقافى العربى الذى بنى فيه هذا البيت سواء من الناحية العقائدية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ··· الخ ·

وإذا نظرنا إلى نظام عبادة الاجداد المنتشر فى افريقيا مثلا فلا يمكن أن نفهمه من الوجهة التحليلية إلا برده إلى عديد من السمات والمركبات الثقافية التى تكونه حيث يعتمد على مجموعة عقائد تدور حول تمتع الأقارب والأموات بقوى وسحرية تلحق الأذى بالأقارب الاحياء ، ولهذا كان على هؤلاء الأحياء أن يتقربوا إليها بل ويقوموا بعبادتها منعا للأذى ، كما يعتمد النظام على أساس مجموعة من علاقات اجتماعية محددة أساسها التعاون والأخذ بالثأر وحماية الأقارب والزواج من داخل أو خارج الجماعة ، كما أن هناك عناصر مادية تتعلق بالنظام كبناء الأضرحة وتقديم القرابين وما يصاحب ذلك من التزين بملابس معينة وحمل أسلحة خاصة لذبح الحيوانات المقدمة إلى قرابين · وكل من هذه السمات الفرعية لاتفهم إلا فى ضوء هذه الوحدة الثقافية المترابطة ولهذا

---

1. Piddington. R. ***An Introduction to Social Anthropology*** - Oliver and Boyd — Edinburgh- 1960. P. 237.

فاننا لانتفق مع مالينوفسكي Malinowski الذى يزعم بامكانية عزل وحدات الكل الثقافى عن بعضها البعض بحيث يمكن النظر إلى كل منها كوحدة قائمة بذاتها ومنتزعة من الكل الذى يشملها •

خصائص الثقافة

أشرنا إلى أن أهم مايميز الانسان عن الحيوان أن له ثقافة ، وأننا اذا أردنا أن نعرف الانسان تعريفا جامعا مانعا قلنا ان الانسان حيوان ذو ثقافة ويعرفه بعض العلماء بأنه حيوان « متدين » أى له عقيدة تميزه عن الكائنات الحية الأخرى • ولكن العقيدة تدخل فى اطار الثقافة من حيث هى تعبير عن جانبها الروحى أو اللامادى وبهذا لم يعد التعريف التقليدى للانسان بأنه حيوان اجتماعى هو التعريف السائد الآن لأن هناك العديد من الحيوانات التى تعيش فى تجمعات معينة ووحدات تربطها وان كانت تلك التجمعات تلقائية وتختلف عن التجمعات الانسانية إلا أن الانسان ينفرد ويمتاز عنها بأنه يمارس ثقافته من خلال أفكاره وأعماله واتجاهاته • وعلى أية حال فان للثقافة سمات خاصة تميزها أهمها :

أولا : أنها انسانية

وذلك لأن الانسان هو الكائن الوحيد الذى وهبه الله تعالى جهازا عصبيا خاصا وقدرات عقلية ينفرد بها بين سائر الكائنات ولهذا يصف الله سبحانه وتعالى بنى البشر بقوله ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1] فبالفكر الانسانى أتيح للانسان امكانية ابتكار أفكار وأعمال جديدة يحقق بها التكيف والتأقلم بالبيئة التى يحيا فيها وبالتالى يكيف البيئة نفسها لحياتـه دون حدوث أية تغييرات فسيولـوجية فى بنائـه الجسمى فقد استطاع الانسان أن ينتقل من البيئات الباردة الى البيئات الحارة وأن يكيف بيئته الجديدة لحياته عن طريق تخفيف الملابس أو اختراع مساكن تخفف من شدة الحرارة كما استطاع اختراع كافة آلات التبريد ، وبـذا استطـاع الأوروبيون استيطان المناطق الحارة وادارتها عن طريق استعمارها ، وبالمثل استطاع الانسان ان ينتقل من بيئات دافئة إلى أخرى شديدة البرودة وان يعيش فيها عن طريق اختراع

(١) الإسراء الآية ٧٠

الملابس الثقيلة وآلات التدفئة العديدة سواء كان من مواطنى هذه المناطق أساسا أو من الوافدين اليها ، كما اخترع بناء المساكن داخل الثلوج نفسها واستخدم شحوم الحيوانات مولدات للطاقة الحيوية ـ لهذا فان الثقافة لاتعتمد فى وسائل بقائها واستمرارها على التكاثر البيولوجى وانما على أساس الميراث الثقافى لأن الظروف التى تتيح للبشر أن يتعلموا أو يقلدوا الآخرين أو يستخدموا لغة مايفوق كثيرا كل ماهو موجود لدى الأنواع الأخرى غير الانسانية وهذا يعنى أن الافراد لايملكون الثقافة بفضل وراثة خاصة ، وانما يكتسبونها لأنهم وجدوا فى مكان وزمان معينين اكتسبوا منه أنماطهم الثقافية[1] ولهذا نجح الأفراد فى انتقالهم من ثقافة الى أخرى وتعلمهم ان يشاركوا فى أكثر من ثقافة فى نفس الوقت، وان كان الحد الأدنى لتكيف الانسان لثقافة معينة هو ذلك الحد الذى يتيح لعدد كاف من الأفراد فرصة البقاء والتكاثر بحيث يستمر المجتمع محتفظا بالأعداد الموجودة التى تحقق الوظائف الضرورية لبقاء المجتمع وان كانت معظم الثقافات تحقق للأفراد أكثر من هذا أى لاتتيح لأفرادها تحقيق الوجود الفيزيقى فحسب وانما تتيح لهم مختلف الاحتياجات والأهداف اللامادية وتعمل بالتالى على مضاعفة السكان من خلال الاستخدام الأمثل للموارد أو التوسع فى مناطق جديدة وقد تعمل على تحقيق التوازن السكانى للبيئة وفى ظروف أخرى وفى كل هذا تعمل على الانتشار الثقافى فى أوسع نطاق ٠

وإذا قيل لماذا يختص الانسان وحده بالثقافة على حين يشترك مع بعض الحيوانات الأخرى فى المعيشة داخل مجتمع ما فذلك لأن طبيعة الانسان هو اشتراكه فى بعض الدوافع الفطرية مع الحيوان ومنها دافع التجمع فى مجتمعات تختلف فى طبيعتها كما وكيفا ، أى أن دافع التجمع لايعد من طبيعة الانسان وحده فالنحل والنمل والجراد تعيش فى مجتمعات دقيقة التنظيم ولكن ينفرد الإنسان بالعيش فى مجتمعات تمتاز بأن لها ثقافة ، وبهذا يختلف الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، لأن الثقافة أفكار

---

(١) بيلز وهويجر : مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة « مترجم » مرجع سابق ص ١٥٨ ـ ١٥٩

يبتكرها العقل البشرى أو يرثها ، ثم هو يقوم بتنفيذ أنماطها من خلال أعماله وأدواته وآلاته التى يصطنعها ، فهو من حيث كونه حيوانا ثقافيا يصنع الأدوات والآلات والمساكن والأثاث والمخترعات بشتى أنواعها وصورها ·

ثانيا : الثقافة تكتسب بالتعلم

لما كانت الثقافة تاريخية المنشأ على حد تعبير « كلوكهوهن » أى تكونت على مدار التاريخ البشرى يشارك فيها أفراد الجماعة ككل أو فى جانب معين منها فان هذا الانتقال يتم عن طريق التعلم والتقليد والتلقين من جماعة لأخرى أو من فرد لأفراد أخرين عبر الزمان والمكان، الأمر الذى يجعل الثقافة وسيلة الاتصال بين الأجيال لا بين الجيل الواحد فحسب،ولا يتم هذا الانتقال عن طريق الوراثة البيولوجية كما أسلفنا القول وإنما عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية Socialization أو التنشئة الثقافية Enculturation والتى بموجبها تنتقل الثقافة من جيل لآخر ، وذلك اننا نتعلم كيف نفكر ونتصرف ونمارس سلوكنا العام والخاص بسبب ارتباطنا وعلاقاتنا اليومية بغيرنا فإذا تغيرت هذه العلاقات والارتباطات تغيرت تبعا لها عاداتنا وأنماط سلوكنا،والطفل الانسانى يولد صفحة بيضاء تخط عليها الثقافة بصماتها المتمثلة فى أنماط السلوك وطرائق العادات وطبيعة القيم والأخلاقيات من خلال نموهم فى المجتمع وفى اطار تنشئتهم الثقافية والاجتماعية فى محيط الأسرة والجماعة والمجتمع والدولة · يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « **مامن مولود الا يولد على الفطرة ثم يقول اقرأوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** »(١)

ومن الأهمية أن نشير إلى أننا لانعنى أن كل سلوك متعلم يعد ثقافة لأن الحيوانات تتعلم هى الأخرى ويستطيع بعضها أن يمارس أنماطا سلوكية يجيدها لاتستطيع أن تقوم بها حيوانات أخرى من نفس النوع لم يتح لها ذلك التعلم ولكن هناك فرق كبير بين تعلم الإنسان لأنماط ثقافية وبين تعلم الحيوان المرتكز على دوافع بيولوجية لا على أصول ثقافية ، صحيح أن التجارب التى أجريت على القردة والشمبانزى تشير فى نتائجها إلى أن العمليات العقلية مثل التذكر والتخيل والاستنتاج تتشابه إلى حد كبير عند كل من الإنسان والشمبانزى وإن كان الفرق يبدو واضحا فى

(١) رواه أبوهريرة ·

أن المشكلات التى تستطيع القردة العليا حلها أبسط كثيرا من تلك التى يستطيع الانسان حلها فى حياته اليومية فالمشكلات التى تعالجها الشمبانزى تتم من خلال ارتباطها بزمان ومكان وظرف معين. ومن هذه التجارب تلك التى أجراها الدكتور « وولف » من جامعة بيل Yale ليمتحن بها مدى قدرة الشمبانزى على حل المشكلات حيث أحضر عددا من الالات ذوات الثقوب التى يمكن أن توضع بها عملات معينة بغية الحصول على الطعام ،وعن طريق التدريب والتقليد معا استطاعت الشمبانزى التعامل مع هذه العملات بحيث كونت علاقة ارتباط بين العملة والالة المثقوبة من ناحية والطعام من ناحية أخرى وبهذا كانت تبحث عن هذه العملات عندما تشعر بالجوع لتحصل على الطعام لدرجة أنها كانت لاتتعامل مع العملات غير الصالحة لشراء الطعام إذ ترفضها وتنتقى الأخرى بل ذهبت إلى حد أن تحتفظ بالعملات الصالحة الباقية لديها لاستخدامها عندما تجوع فى شراء الطعام وهو نفس الأسلوب الذى يستخدمه الانسان فى تعلمه عن طريق التقليد او المحاولة أو الخطأ ولكن مع هذا لايمكن أن تطور لنفسها وسائل تقنية أعلى من هذا المستوى،وقد أجرى الدكتور كيلوج Kellog وزوجته تجربة ذات دلالة أعمق وأكثر أهمية اذ قاما بتربية شمبانزى حديث الولادة مع طفلهما الذى يبلغ نفس العمر ٠ وربيا معا حيث خضعا للملاحظة العلمية الدقيقة بهدف اكتشاف أوجه التشابه والاختلاف بينهما فى عملية التعلم وحاولا أن يعاملا الطفل والشمبانزى معا نفس المعاملة تقريبا من حيث التغذية والملبس واللعب بل وكانا يتلقيان نفس القدر من التعليم ولاحظ الباحثان أن الشمبانزى جوا Gua تعلم بنفس سرعة تعلم الطفل بل كان يتعلم أسرع فى بعض الجوانب بسبب نموه الفيزيقى الذى كان أسرع من نمو الطفل البشرى وخاصة فيما يتعلق بالألعاب والحركات الجسمية والرشاقة التى تتطلب تآزرا عضليا أكثر ، كما كانت الأصوات التى يصدرانها (القرد والانسان) متشابهة إذ يستخدمان نفس الأصوات التى تعبر عن الجوع أو العطش أو التعب الجسمى أو الرغبة فى الحصول على لعبة أو أداة معينة ولكن ما أن نضجت أعضاء النطق لدى الطفل الانسانى وأصبح قادرا على تعلم اللغة حتى فاق « جوا » تفوقا هائلا وبدأ يحقق تنشئة الاجتماعية والثقافية فى بيئته بدرجة يستحيل على القرد مسايرتها ٠

ومن التجربتين السابقتين نستنتج أن بعض الحيوانات ذوات الرتبة العالية فى سلم التطور كالقرود والكلاب والقطط والخيول تستطيع أن تتعلم من مربيها ومن بعضها البعض بعض الأنماط السلوكية المتعلمة وتنهج فى تعلمها نهجا يقترب من نهج الانسان فى التعلم بل تستطيع استخدام بعض الأدوات البسيطة وكيف تصنعها ولكن يستحيل عليها أن تطور لنفسها نوعا من « التكنولوجيا » الراقية كما صنعها ويصنعها الإنسان مكونا بها ثقافته المادية منذ أقدم العصور. ورغم ما نشاهده من أن بعض الحيوانات تتعلم كيف تستجيب للكلمة المنطوقة بل وتستخدم بعضها الأصوات لاستثارة جماعتها ألا أنه يستحيل على أى منها نطق كلمة واحدة أو أن يتطور الكلام فى أى مجتمع منها إلى مدى يستطيع فيه الفرد نقل خبرته الخاصة إلى فرد آخر بينما نجد فى أبسط الجماعات البشرية أن الأفراد لايستثيرون العمل الجماعى فيما بينهم عن طريق الكلمة المنطوقة فحسب وانما يشاركون بعضهم البعض فى خبراتهم الخاصة وبالتالى يعملون على تعليم أبنائهم أنماط ثقافتهم وأطر سلوكهم عن وعى وخبرة .وتفهم،ويرجع هذا إلى أن الثقافة تتوقف أساسا على ابتداع الانسان للرموز واستخدامها كأساس للعملية التعليمية فى نقل الثقافة فالرمز كما يرى« ليزلى هوايت »هو الذى يحول الطفل إلى كائن بشرى متكامل ولهذا فالسلوك البشرى سلوك رمزى Symbol كما أن السلوك الرمزى سلوك بشرى بالدرجة الأولى ، ذلك لأن بالرمز تضفى مجموعة ما من الناس معنى معينا يدل على شىء أو فكرة أو مجموعة أصوات ولايوجد بين هذا الشىء وبين الخصائص المادية للظاهرة علاقة ما يمكن ادراكها الا عن طريق التعلم والخبرة والمران فمثلا لاتوجد علاقة حتمية يفهمها جميع أفراد العالم تربط بين المبنى الخاص بالمئذنة وبين الأذان أو بين مبنى المسجد والصلاة أو بين البيت الحرام وحج المسلمين اليه فى أيام معدودات ،إن العلاقة اللازمة بين هذه الأشياء والمعانى علاقة رمزية لايعرفها الا الانسان المسلم الذى يعيش فى مجتمع اسلامى يدرك طبيعة ثقافته بعنصريها المادى والروحى معا ولايمكن لغير المسلم أن يدرك هذا أى يستنتج الأذان حين يرى المئذنة أوصلاة المسلمين

بمجرد رؤية المسجد إلا اذا أخبر بهذا عن طريق الخبر أو الملاحظة أو التواتر الشفهى أى عن طريق التعلم بمعناه الواسع،ويتسع معنى الرمز ليشمل عديدا من الظواهر المادية ولايمكن فهمه إلا عن طريق التعلم ، فاللون الأحمر قد يدل على الخطر أو على اشارة الوقوف عند تقاطع معين بمرور السيارات أو أن يكون شعار الحزب سياسى،كما يعد اللون الأخضر رمزا لضرورة المرور بالسيارة ، والأصفر رمزا للانتقال بين اللونين السابقين كما يعد علم كل دولة رمزا لها ولهذا فالانسان وحده هو الذى يضفى الرمز على الشىء أو الفكرة ولاتستطيع الحيوانات أن تتعلم ابتكار الرمز ودلالته وإن امكن أن تتعلم استخدام الرموز من خلال تدريبها على ذلك فللرمزية أثرها الكبير فى الثقافة إذ تيسر للانسان عبور الفجوة القائمة بين الخبرات المادية المنفصلة وبين المعانى المتصلة التى توجدها وتجمع بينها ، ثم أن تكوين الرمز واستخدامه يسمح للانسان بالقدرة على التفكير فى المشكلة حتى ولو لم تكن ماثلة أمامه .ـ فالانسان يحل مشاكله مع الاخرين ومع نفسه عن طريق التخيل والتصور ووضع الحلول المقترحة للمشاكل بناء على خبرته السابقة وبهذا تتكون الثقافة وتتراكم عبر الأجيال من خلال السلوك المتعلم وتكوين الرمز واستخدامها فبدون تلك الرموز يصبح التعلم أمرا جامدا لايؤدى إلى التطور الثقافى كما هو الحال عند الحيوانات.وعليه فالانسان هو الكائن الوحيد القادر على ابتكار واستخدام الأسلوب الرمزى والذى تزخر به الفنون والآداب والفولكلور والمعتقدات فى شتى المجتمعات قديمها وحديثها بدائيها وحضريها ..

ثالثا : الثقافة تتميز بخاصة الاستمرار :

لما كانت الثقافة تكتسب بطريق التعلم الذى يعتمد أساسا على الرمز كما أسلفنا فان الثقافة طبقا لهذا المفهوم تكتسب صفة الاستمرار والتراكم عبر الأجيال بما يؤدى إلى التراث الاجتماعى ، الأمر الذى جعل الأنثروبولجى الامريكى رالف لينتون R. Linton يعرف الثقافة بأنها التراث الاجتماعى الذى يرثه أفراد المجتمع عن الأجيال السابقة(١) ، لهذا كان للثقافة قدرتها الهائلة على الانتقال التاريخى ولذا قيل

1. Linton R. *the Cultural Background of Personality*, N.Y.

أنها تاريخية المنشأ كما أشرنا إلى تعريف « كلوكهوهن » السابق للثقافة.ومن هذا المنطلق فان عديدا من الأنماط الثقافية كالخرافات والأساطير والفولكور والعادات والعقائد تظل محتفظة بكيانها لأجيال عديدة لا لشيء إلا لأنها وجدت فى المجتمع فى فترة ما ، الأمر الذى تلجأ معه البحوث الأنثروبولوجية إلى تتبع السمات الثقافية فى نشأتها وتطورها وهجرتها وتنقلها.ـومع أن عديدا من مظاهر التطور والتغير الثقافى يلاحظ داخل مجتمع ما الا أن بعض أنماطه الثقافية تظل ثابتة كما هى دون أن يلحق بها تغير ما كما يلاحظ انتقال بعض الملامح الثقافية وانتشارها عبر المكان من مجتمع لآخر(١) ولقد لفت هذا أنظار الأنثروبولوجيين الأوائل وأثار اهتمامهم لدرجة أن استخدموا ما يسمى بالتاريخ الظنى أو التخمينى كمنهج لتتبع نشأة الظاهرة الثقافية وتطورها التاريخى عبر الأجيال ولازال كثير من العلماء يهتمون بتتبع التاريخ الثقافى لبعض الظواهر والملامح الثقافية على أساس أن هذه الأنماط سلسلة متصلة الحلقات وأن معرفة ماضيها يساعد على فهم حاضرها ٠

رابعا : الثقافة أفكار وأعمال :

أشرنا من قبل إلى أن للثقافة قطاعات ثلاثة يكونها الانسان لنفسه كعوالم تحدد مساره الثقافى وهى العالم المادى والعالم الاجتماعى والعالم الفكرى الرمزى وذلك لأن الانسان لم يقف مكتوف اليدين أمام بيئته الجغرافية وعناصرها وانما حاول أن يشكل فيها ويحورها إلى أدوات والات ومدارس ومصانع وتلك لا تعتبر مجرد مبان أو جدران صامتة وانما تعبر فى صميمها عن أعمال كونتها أفكار الانسان ووضعت لها مخططاتها لأن أى عمل إنسانى لايتم إلا إذا كان ترجمة لأفكار معينة ، كما أن العناصر المادية على اختلاف أشكالها وطرزها لاتخرج عن كونها أفكارا تجسدت فى أعمال ، أما العالم الاجتماعى فيشتمل على النظم الثقافية العديدة التى تربط الانسان بالانسان كالنظم

---

(١) أحمد أبو زيد ـ تايلور ٠ مجموعة نوابغ الفكر الغربى دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨

السياسية والاقتصادية والعائلية التى توارثها الانسان، أما علاقة الانسان بالأفكار المجردة والرموز فتنبثق عنها نظم ثقافية عديدة تحدد هذه العلاقة كما أشرنا من قبل لأهمية الرمز فى تكوين وانتشار الثقافة ، ومن النظم الثقافية التى تعتمد فى جانب كبير منها على الرمز اللغة والفن والقيم والدين وهى تتسم بالجانب الروحى أو اللامادى وحده ولكنها لاتخلو من أعمال ، فالدين الاسلامى لايتمثل فى العقيدة وحدها وإنما يتجلى فى المعاملات والعبادات والشعائر التى يقوم بها الانسان المسلم امتثالا لاوامر الاسلام ونواهيه وكذلك الفن يعتمد على أساس الرمز إلى حد كبير ٠ ولكل ثقافة فنها الذى يميزها ويعبر عن اتجاهاتها وسماتها وأنماطها[1] ، واللغة لاتعبر عن مجرد أصوات تنطق فحسب وانما تحمل فى دلالاتها أفكارا وأعمالا تعبر عنها وتنم عن طبيعتها ولهذا تتعدد الثقافات حيث تحمل كل منها لغتها وأفكارها ورموزها وعقائدها وقيمها الخاصة بها ، وقد قدر ميردوك عدد الثقافات التى تم اكتشافها بما يزيد على ثلاثة آلاف ثقافة لكل منها خصائصها وسماتها العامة التى تتميز بها ٠

خامسا : الثقافة نسيج معقد إلى أبعد حدود التعقيد :

تشتمل الثقافة على عدد كبير من السمات والمركبات والنظم والأنساق والأنماط الثقافية وذلك لتراكم التراث الثقافى واستمراره عبر عصور طويلة وإلى استعارة عديد من السمات والأنماط الثقافية من خارج المجتمع نفسه ، لهذا فان الفرد لايستطيع أن يكتسب ويتمثل كل أنماط ثقافته لاسيما اذا كان فى مجتمع غير بدائى فالمواطن العربى مثلا قد يكون بدويا أو مزارعا أو صانعا أو تاجرا أو مدرسا أو محاميا ٠٠ الخ ، ولايستطيع أى من هؤلاء أن يكتسب ويتمثل كل العناصر الثقافية التى يكتسبها الآخر وان كانوا جميعا أبناء ثقافة كلية واحدة ، وهذا بعكس الفرد فى المجتمع البدائى والذى يكون أكثر إدراكا لثقافته الكلية التى تعتمد على التجانس واللاتمايز فى تقسيم العمل إلا

---

(١) عاطف وصفى ٠ الانثروبولوجيا الثقافية ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٥ م ص٧٩ ـ ٨٠

فيما يتعلق بالعمر والنوع كما أسلفنا بعكس من يعيش فى مجتمع غير بدائى يعتمد على التخصص وتقسيم العمل الذى يدعو إلى تعقد الثقافة وتشابك أنماطها وتعدد سماتها. وانطلاقا من هذا المفهوم يصعب على الباحث الأنثروبولوجى أن يقوم بتسجيل كل أنماط ثقافة ما من الثقافات التى يدرسها حين يقوم بجمع معلوماته الأثنوجرافية التى يعدها للتحليل الأنثروبولوجى. ويرجع تعقد وتشابك العناصر الثقافية إلى أمر هام هو أن القدر الأكبر من السلوك البشرى ليس مجرد تجمع عشوائى من الأنشطة التى تمثل أنساقا ترتبط ببعضها البعض وإنما يتم هذا الارتباط الوثيق من خلال ارتباط وتنسيق دقيق لهذه العناصر التى تتداخل وتتشابك فيما بينها بحيث لايفهم نمط منها إلا بارتباطه بالأنماط والعناصر الأخرى وتسانده معها فأفراد مجتمع «المايا» وهم من الهنود الحمر يرتبط نظامهم الزراعى بطقوسهم التى يمارسونها، فمثلا نجاح أو فشل محصول الذرة يتوقف إلى حد كبير على كمية المطر وموعد سقوطه وهذا تصور منطقى ولكنهم يعتقدون أن المطر وكميته ومواعيده تخضع لارادة مجموعة من الكائنات فوق الطبيعة والتى لايمكن أن ترضى عنهم إلا من خلال طقوس ومراسيم معينة يقومون بها ولهذا فان « مركب الذرة » مركب معقد لايعتمد على كونه نظاما زراعيا فحسب وانما ينظرون إليه على أنه نظام زراعى وعقائدى فى نفس الوقت. ــ وفى ثقافتنا الإسلامية التى هى أرقى الثقافات الروحية وأكملها يلجأ المسلمون إلى صلاة الاستسقاء حين يتأخر المطر عن موعده حيث يتوجه المسلمون فى صلاتهم إلى الله ضارعين خاشعين أن ينزل عليهم الغيث رحمة منه ورضوانا وحين تهطل الأمطار ندعو الله تعالى أن يجعلها أمطار خير وبركة .

وقد أدى اقتناع الأنثروبولوجيين بأن الثقافة كل مركب ومعقد من سمات وخصائص متشابكة إلى تقديم دراسات وصفية مفصلة لأعداد كبيرة من الثقافات وان اتضح أن معالجة مثل هذه الدراسات فى ضوء النظرة الكلية الشاملة أمر بالغ الصعوبة ويتبنى هذا الاتجاه النزعة الوظيفية **Functionalism** التى تعالج دراسة النسق الاجتماعى فى ضوء إسهامه فى الأنساق الاجتماعية الأخرى كتلك الدراسة الشهيرة التى قام بها الأنثروبولوجى البريطانى راد. كليف براون فى جزر الاندمان **Andaman** فحين يعالج الوظيفيون دراسة الطقس الجنائزى مثلا لا ينظرون إليه على أنه مجرد جزء من عملية

الدفن وانما على أساس أنه نمط يعبر عن مدى ترابط الجماعة وتضامنها فى تقديم عزائها ثم فى مدى دلالته على الأمتثال لأمر الله • وفى التعبير الشائع للمسلم حين يموت عزيز لديه قوله « الله جاب ، الله خد » وذلك على أساس ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1] ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[2]

كما ينظر الوظيفيون للطقس الجنائزى من حيث دلالته هل هو مثار للجزع والفزع من هول فراق الميت أم أنه مظهر للعظمة والعبرة والرضاء بقضاء الله وقدره ولهذا فهو تعبير عن حزن صامت وتفكير عميق فى حكمة الله تعالى •

وهنا تتنوع الثقافات وتختلف اختلافا بينا من حيث نظرتها للموت وللطقوس الجنائزية فلكل ثقافة أهدافها ووسائلها المميزة لها والتى لاتشترك فيها بالضرورة مع الثقافات الأخرى، وكل جماعة تحاول تحقيق هذه الأهداف من خلال تجاربها وخبراتها الخاصة وتقدر ضغط الأهداف والحاحها بقدر ما تحظى به من أهمية لتحقيقها وبهذا تتحول عناصر السلوك المتنافره الى أنماط ثقافية متوافقة ومنسجمة[3] ، ولقد كان اعتقاد فراعنة مصر فى البعث والخلود بعد الموت على أساس أن يظل الجسم بحالته كما هو دافعا لاختراع ثقافة مادية تعد من اعرق ثقافات العالم تلك التى تمثلت فى بناء الأهرام والمعابد المختلفة من جهة والمهارة فى فن التحنيط من جهة اخرى لدرجة اثارت تفكير العلماء المعاصرين فى لبحث عن ماوصل اليه هؤلاء من تقدم تكنولوجى باهر •

ومن الأمثلة التى يسوقها الأنثروبولوجيون على تعقد المركب الثقافى ما ينتشر فى كتاباتهم عما يسمونه « بمركب الماشية » Cattle Complex والذى تعتمد عليه مجموعة القبائل التى تسكن جنوب السودان وشرق أفريقيا فى كل من أوغندا وكينيا وتنجانيقا وبعض مناطق أفريقيا الوسطى حيث يعتبر رعى الماشية وخاصة الأبقار من أهم السمات المميزة لثقافة هذه الشعوب فامتلاك الأبقار يشكل أهمية اقتصادية واجتماعية بل وعقائدية هامة فالأبقار هى مهر الزواج كما فى قبائل الشلك والدنكا والنوير وان كان عددها يختلف من قبيلة إلى أخرى كما يختلف فى القبيلة الواحدة باختلاف

(١) القصص الآية ٨٨

(٢) الرحمن الآية ٣٦ ، ٣٧

3. Benedict, R. ***Patterns of Culture***. Routledge and Kegan Paul, I. ٧٥.

القدرة الاقتصادية للفرد كما يحظر ذبح الأبقار فى بعض هذه القبائل لما تتمتع به من قدر من التقديس ، كما أصبح الميل إلى اقتنائها وامتلاكها غاية ما يهدف اليه الفرد والجماعة لدرجة أصبح معها عدد الأبقار فى معظم هذه الشعوب أكبر بكثير من المراعى مما أصاب الماشية بالضعف والهزال ومع ذلك لم تصرفهم هذه الصعوبة عن العمل على امتلاكها بل والتجائهم فى سبيل ذلك إلى شن الغارات والحروب على القبائل المجاورة ولهذا أصبحت المكانة الاجتماعية تقاس بمدى امتلاك هذه الأبقار وأصبح الفرد الذى لايمتلك أبقارا موضع السخرية والازدراء بل إنه لايعتبر عضوا فى المجتمع على افتراض وجوده، وفى ثقافة الناندى فى كينيا تعد الماشية أهم سمات هذه الثقافة حيث يكون لحمها عنصرا هاما فى الطعام كما يعتمدون فى غذائهم على لبنها ودمائها التى يحصلون عليها عن طريق قطع أحد الشرايين بعنق البقرة ثم منع التدفق بعد الحصول على كفايتهم منه بوضع قطعة طين أو روث على مكان القطع ، كما أن للبن والعشب والروث فى نظر مجتمع الناندى أهمية كبرى تصل إلى حد القداسة اذ يدور حولها عديد من الطقوس لدرجة أنهم لايقطعون أو ينتزعون العشب من الأرض حتى لايضار ويدنس وبالتالى يدنس الماشية التى تأكله،واذا كان لابد من قطعه قامت المرأة بذلك باعتبارها مخلوقا أقل طهارة ، ومع هذا فانهم لايرون مانعا من حرق العشب بالنار التى تطهر الاشياء كما أن اللبن يعتبر مقدسا لديهم ولذا فهو قربان يمكن تقديمه لأرواح الموتى على أن يقوم بذلك الرجال الأعلى منزلة والأكثر طهارة من النساء ولنفس السبب فالرجل هو الذى يحلب البقرة واذا حدث ان تبولت اثناء عملية الحلب غسل يديه ببولها واستأنف حلبها ليضفى على يديه البركة التى يحتوى عليها البول كما تظهر قداسة الروث فى استخدامه كمرهم لعلاج الجروح ثم ان قداسة الماشية لاتقتصر على هذا ، وانما تتعداه إلى أنها محور أحاديث الناس اليومية،كما يتخذ الشبان من الحصول عليها وتربيتها والإكثار منها وسيلة للتحبب إلى الفتيات وغزو قلوبهن ولذا فهم يمارسون الاغارة على مجتمعات القبائل المعادية لسرقة الأبقار منها حالما يبلغون سن البلوغ وذلك كوسيلة منهم لإظهار شجاعتهم من ناحية والتقرب إلى الفتيات من ناحية أخرى ، بل يجدون فى ذلك تأكيدا لانتمائهم إلى المجتمع القبلى الذى يقدس الماشية ويعمل على جمعها والحفاظ عليها ٠

ويرى أوبلر M. Opler أن مضمون ثقافة ما ينتظم حول عدد من المبادىءأو

الموضوعات الأساسية Themes ويعرف الموضوع الأساسي بأنه عبارة عن « فـرض موقف أو قضية صريحة أو ضمنية تتحكم فى سلوك الأفراد وتحفزهم على العمل بها ، بحيث يقره المجتمع ضمنا ويشجع عليه صراحة »[٢] ، وهذا عكس ما تذهب اليه « بندكت » اذ ترى أن الثقافة تدور حول نمط منسق من السلوك والأفكار ولهذا فان عديدا من الثقافات تخضع فيها الأنماط المتنوعة لمبدأ كلى شامل واحد وهو ما تدعوه بالنمط الثقافى الأساسى Cultural Configuration وأشارت إلى كل من شعبتى الزونى Zuni والبوبيلو Peublo اللذين يسكنان نيومكسيكو وان كان أوبلر يرى أن ذلك النمط لايتحقـق بصورتـه المثلى الا لدى عدد محـدود من الثقافـات لاجميعها ·

ولما كان للثقافة هذا الطابع الشديد التعقيد فى سماتها ومركباتهـا ونظمهـا فان أصحاب الثقافة أنفسهم يصعب عليهم إدراك مدى هذا التداخل والتساند بين عناصر الثقافة وان أمكن للباحث الأنثروبولوجى الكشف عن مثل هذا التساند بين أنماط ومركبات الثقافة بعد فترة من البحث الميدانى الذى يعتمد على معايشة الثقافة نفسها ولهذا يفضل الأنثروبولوجيون أن يباشر الباحث دراسته فى ثقافة غير ثقافته حيث يقوم بجمع المادة الأثنوجرافية من مجتمع الدراسة تمهيدا لتحليلها تحليلا مقارنا يتبع الوصف ويسبق التفسير وذلك لتحديد مدى التداخل الوظيفى بـين تلك النظـم والانسـاق الثقافية ويعتبر الدين الاسلامى المحور الأساسى الـذى ترتبـط به سائـر النظـم فى المجتمعات الاسلامية من حيث تنظيمه للعلاقات العائلية واليه ترجع معظم المثل العليا الاسلامية ·

سادسا : الثقافة تتضمن العموميات والخصوصيات والبدائل :

تختلف دراسة الفرد فى الأنثروبولوجيا عنه فى علم النفس فالأنثروبولوجيا دراسة للانسان وأعماله أى من حيث كونه عضوا فى مجتمع ذى ثقافة أو عضوا فى ثقافة مجتمع

1. Opleler, M. *Some Recently Developed Concepts Relating to Culture in Southern Journal of Anthropology* 4, 1948, P. 120.

(٢) رالف بيلز وهارى هويجر ـ مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة · مرجع سابق ص١٥٢ ·

ما بعكس دراسته فى علم النفس كشخصية متميزة لها مقوماتها الفردية وان كانت دراسة الفرد بعيدا عن الثقافة أو الثقافة دون أفرادها أمرا غير ممكن على الاطلاق كما سنفصل القول بعد فى مجال الثقافة والشخصية،وعلى أية حال فان الأنماط الثقافية تختلف من حيث مدى شمولها بمعنى أن هناك أنماطا ثقافية معينة لها صفة العمومية بين كل أفراد المجتمع بينما توجد أنماط يختص بها أفراد دون آخرين فى هذا المجتمع ٠٠ ولهذا فان هذه الأنماط تتنوع بين عموميات وخصوصيات وبدائل كما يلى :

العموميات : Universals

وتتمثل تلك العموميات الثقافية فى وحدة المشاعر والعقيدة والتقاليد والممارسات والعادات التى يشترك فيها كل أفراد المجتمع كنظام العبادات والمعاملات فى الشريعة الإسلامية والذى يوحد فى جوهره كل أفراد المجتمع المسلم الذى ينتمى إلى ثقافة واحدة وكاللغة فى المجتمعات البدائية يتكلم بها كل أفراد المجتمع ويندر أن يكون هناك بين أفراده من يتكلم لغة غير لغة قبيلته الا إذا طرأ على الثقافة احتكاك بثقافة أخرى اضطرت الأفراد لأن يتعلموا غير لغتهم الأصلية ورغم هذا فهم لايتحدثون فيما بينهم وبين من يعرف لغتهم الا لغة القبيلة كقبائل الشلك والدنكا والنوير فى جنوب السودان فرغم أن المدرسة دخلت بها كنظام جديد وبدأت تحتك بغيرها من القبائل التى ترتبط بها برباط قومى واحد إلا أنها تحرص على الحديث بلغتها الأصلية.ـ وتعد القوانين المدنية والعرفية فى الدول التى تسير على هذه القوانين عموميات تطبق على سائر الأفراد كقانون العقوبات والقانون المدنى ونظام المحارم والزواج والميراث ٠٠ الخ ٠

الخصوصيات : Specialists

وهى أنماط ثقافية يظهر فيها التمايز والتغاير والتفاوت داخل إطار الثقافة العامة دون أن يتعارض ذلك معها ،وترتكز على جانبين أساسيين هما :اختلاف قدرات وتخصص الأفراد من ناحية والتغاير فى المظهر العام من ناحية أخرى فبالنسبة للاختلاف الأول يظهر فى تعدد وظائف ومهن الأفراد باختلاف تخصصاتهم فمنهم الأطباء والمدرسون والمهندسون والمحامون والتجار والمزارعون والحرفيون والطلاب والجنود والضباط ٠٠ الخ وقد أثبتت الدراسات الميدانية فى المجتمعات النامية ان لكل من هذه الجماعات انماطها

الثقافية الخاصة بها هذا بعكس خصوصيات أخرى تتعلق بالمظهر العام كالملابس واختلافها داخل المجتمع الواحد وهى، فى الغالب تتعلق باختلاف مهن الأفراد أنفسهم ويرى هذا بوضوح فى بعض المجتمعات النامية كما فى مصر حيث يصعب ملاحظة زى قومى واحد يرتديه كل أفراد المجتمع وحتى فى المجتمعات التى تحافظ على تقاليدها بارتداء زى قومى واحد كالمملكة العربية السعودية فان مواطنى تلك المجتمعات الذين يعملون فى الحرف الميكانيكية كصيانة السيارات والمهنية كمصانع البترول وغيرها يرتدون زيا خاصا على الأقل اثناء قيامهم بمزاولة حرفهم تلك .. ولاتظهر الخصوصيات بهذا المفهوم إلا فى المجتمعات المتحضرة والنامية التى تجتاز مرحلة تغير ثقافى سريع المدى كمجتمعات الشرق الأوسط، ومع أن هذه الخصوصيات تعبر عن مبدأ التخصص وتقسيم العمل الذى يحكم المجتمعات المتحضرة إلا انها لاتعد عوامل مفرقة بين أفراد الثقافة الواحدة والذين توجد بينهم العموميات الثقافية وتجمع شملهم فى اطار ثقافة واحدة متحدة الملامح والصفات العامة التى تنضوى تحت تعلم واحد او وطنية وقومية واحدة ، فقد نشاهد بين أفراد الأمة العربية أو الاسلامية اختلافا حول وسائل حل قضية ما ولكن المبادىء العامة والعقيدة الواحدة والمشاعر المشتركة تجمع العالم الاسلامى والعربى فى اطار واحد من المبادىء والمفاهيم المشتركة وبدون هذه العموميات المجمعة تصبح الخصوصيات عوامل مفرقة وهذا هو ما يسمى «بالتضامن العضوى» الذى تتنوع فيه وظائف الأعضاء ولكنها تنضوى فى بناء جسمى واحد يشملها ويعد أبلغ تعبير عن هذا ما أشار اليه الرسول عليه السلام بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر. ويلاحظ ان العموميات فى المجتمعات المتحضرة أقل عددا من الخصوصيات وإن كانت الخصوصيات لاتؤلف الا جزءا من الأنماط السلوكية لبعض أعضاء المجتمع الكبير لأنها تحتاج لنوع من المران والاستعداد لايتوافر لأفراد المجتمع كلهم ولأنها تكون أنماطا سلوكية لايحتاج اليها كل أفراد المجتمع (١) .

---

1. Heobel, A. ***The Nature of Culture*** in Shapero, L(ed) Man. Culture and Society, O.U.P., N.Y. 1960. PP. 172-173.

البدائل :

وتعبر عن مجموعة من النظم والعناصر الثقافية التى تطبق فى موقف معين ويترك للفرد الحرية فى ترك أحدها والأخذ بالباقى، فالمسلم فى المجتمع الاسلامى يستطيع أن يختار عديدا من البدائل فى زواجه كأن يتزوج من غيرم المحارم بنت العم أو بنت العمه أو بنت الخال أو الخالة أو مسلمة من غير أقاربه وله أن يتزوج بفتاة كتابية كما أن هناك أنماطا ثقافية تفد إلى المجتمع عن طريق الاحتكاك الثقافى وللأفراد أن يأخذوا بها أو ببعضها أو يرفضوها كما ترى فى الأزياء الحديثة التى تنتشر بسرعة فى المجتمعات المتحضرة والنامية ومثلها أنواع الديكورات أو زينة المنازل وتلك تختلف عن العموميات التى تعبر عن أنماط ثقافية عامة وعن الخصوصيات التى تنتشر بين طائفة أو فئة دون أخرى على أساس من التخصص المهنى.ـ وهذه البدائل يستمر الأخذ بها وقتا طويلا فتتحول إلى خصوصيات أو عموميات طبقا لمدى أهميتها وفعاليتها فى ثقافة المجتمع ، وقد تكون حدثا طارئا لايلائم الثقافة الأصلية فيواجه بالرفض كما يحدث لدى أزياء الخنافس فى المجتمع العربى حيث لاتتمشى تلك الأزياء مع قيم وأخلاقيات هذا المجتمع، وقد تنبثق البدائل من العموميات نفسها فاذا كان طهى اللحم مثلا عنصرا ثقافيا عاما لدى مجتمع ما فان طريقة إنضاجه نفسها تختلف إذ لايلزم طهيه وانضاجه بطريقة معينة بالذات .. وانما تتعدد هذه الطرق وتختلف فيا بينها اختلافا كبيرا ، وما ينطبق على اللحم ينطبق على سائر الأطعمة من حيث إعدادها وطهيها وتقديمها بل وطريقة تناولها ..

سابعا : الثقافة متنوعة المضمون

أشرنا فيا سبق إلى أن الثقافة تشير فى أوسع معاينها إلى مجموع أساليب السلوك المكتسبة عن طريق التعلم الشائعة عند أفراد مجتمع ما فى فترة تاريخية معينة كما تتضمن كل مايصنعه أو يرثه هذا المجتمع من تراث حضارى واسع المدى. ولما كانت الثقافات تتباين تباينا واضحا من حيث التاريخ وأنماط السلوك والمظاهر المادية والقيم والعقائد والاتجاهات فانه يلاحظ هذا التنوع بين الثقافات والذى يصل إلى حد

التناقض أحيانا كما أشرنا فى بداية حديثنا عن الثقافة ، ولا يقتصر تنوع الأنماط الثقافية بتنوع واختلاف المجتمعات فحسب ، وانما تختلف باختلاف المجتمع الواحد عبر مراحله وتطوره التاريخى فقد كان قدماء المصريين يتزوجون اخواتهم بينما يعتبر هذا النظام جريمة شنعاء لاتقره الثقافة الاسلامية أو المسيحية فى المجتمع المصرى الراهن قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ الخ الآية ·

والتساؤل الذى يفرض نفسه حيال هذا التنوع هو لماذا تختلف الثقافات فى عناصرها ومركباتها وأنماطها باختلاف الزمان والمكان مع أن وارثها وصانعها هو الانسان وهو هو من النواحى البيولوجية والبناء الجسمانى العام فى كل زمان ومكان ؟؟ ·

لقد حاول بعض العلماء أن يرجعوا أسباب هذا التنوع الثقافى إلى أسباب عرقية سلالية ينتمى إليها كل نوع من أفراد البشر أى أن هذا التنوع يرجع فى تطوره أو تخلفه لتطور أو تخلف السلالة التى ينتسب اليها وأن هناك من القدرات والامتيازات الموروثة مايتيح لبعض هذه السلالات التقدم والتحضر بينما لايتاح لسلالات أخرى مثل تلك القدرات فتظل ترزخ تحت نير الجمود والتخلف كقدر لها لاتستطيع منه فكاكا ـ وقد أثبتت الدراسات الميدانية فى محيط الانثروبولوجيا النفسية وعلم النفس الفارق خطأ هذه النظرية وأنها ليست إلا تبريرا مصطنعا لتفوق البيض على الزنوج والملونين فى الوقت الذى أصبح فيه من زنوج أفريقيا والملونين بأمريكا الشمالية من يحصلون على أرقى الشهادات الجامعية ويبدعون غاية الابداع فى مجالات العلوم والفنون والتكنولوجيا متى اتيحت لهم نفس ظروف غيرهم من البيض من النواحى التربوية والتعليمية · ويرجع المنصفون من العلماء تباين مضمون الثقافات لأسباب عديدة أهمها : ـ

١ ـ للانسان قدرة هائلة على اختراع أفكار ونظم وتكنولوجيا هائلة ليستغل ما أودع الله عقله من تفكير وتحليل واختراع هو حصيلة الثقافة ، وتتوقف قدرة الانسان على الابتكار والاختراع بقدر احتكاكه بالبيئة وما تثيره من تحديات أمام تفكيره ومدى ماورث من ميراث ثقافى يمكن أن يكون منطلقا للابداع والاضافة ·

(١) النساء الآية ٢٣

٢ ـ للطاقة دورها الفعال فى تحديد الاطار العام للثقافة وعند اقتصار الانسان على الطاقة المخزونة فى جسمه تكون ثقافته بدائية محدودة لاتتعدى نطاقها المادى وعندما بدأ يعتمد على الحيوان فى الزراعة وعلى النبات فى الرعى ظهرت وتفتحت أمامه مجالات جديدة لاستغلال تلك الطاقة التى لم تعد تقتصر على طاقته العضلية وحدها ، تلك التى بدأ يتضاءل أثرها تماما بل ويكاد يختفى بظهور أنواع الطاقة الأخرى المتطورة عندما اكتشف الفحم والبخار والكهرباء والبترول والطاقة الذرية والهيدوجينية النترونية ، مما جعل آفاقا ثقافية واسعة تظهر فى أنماط ونظم وسمات حضارية جديدة لم تكن فى حسبانه مما جعل الشاعر العربى يتحدث عن « الطائرة » فى بداية اكتشافها وتسييرها على أنها من الاختراعات الخارقة المحيرة للألباب حين يقول :

مـــركب لو سلف الدهـــر به   كان احـــدى معجـــزات القدماء
نصفـــه طـــير ونصف بشر   يالـــه احـــدى اعـــاجيب القضاء

٣ ـ رغم أن البيئة الجغرافية ليست العامل الأساسى فى تنوع الثقافات إلا أنها عامل له وزنه فى تنوع القطاع المادى للثقافة على الأقل فرغم ماتقدمه البيئة من احتمالات عديدة يختار منها الانسان مايلائم حياته إلا أنه لايمكن لثقافة ما أن تتجاوز حدود بيئتها كأن تظهر الزراعة فى المناطق الصحراوية قبل ظهورها على شواطىء النيل فى مصر مثلا ، كما لايمكن لصناعة ما أن تعتمد على البترول فى بريطانيا قبل اعتمادها على الفحم المتوفر فى أراضيها •

٤ ـ يتوقف تنوع الثقافة على مدى حجم وكثافة الجماعات وتطورها من المعشر الى العشيرة فالقبيلة فالقرية فالمدينة والتى قد يتعدى سكانها العشرة ملايين نسمة وهنا نلاحظ العلاقة الموجبة أو التناسب المطردى بين حجم الجماعة ودرجة النمو الثقافى ومدى تعقد الثقافة فى أنماطها وسماتها .ـ ولهذا يعتبر المعشر أو العشيرة من المجتمعات التى تتسم بالبساطة الشديدة فى ثقافتها بينما تمثل القبيلة أو القرية درجات متباينة من النمو الثقافى إلا أنها فى جملتها أكثر نموا وتعقيدا من ثقافة المعشر أما المدن لاسيما الكبيرة منها فتمثل طفرة فى النمو الثقافى •

٥ ـ للقيم التى يؤمن بها المجتمع دور كبير فى تنوع الثقافات وهناك فرق كبير

بين الثقافة التى تخضع للايمان بالاديان السماوية والثقافات الأخرى الوثنية فالثقافة الاسلامية تجعل لوحدانية الله والصدق والايمان والاخلاص والتعاون واحترام المرأة واعطائها حقوقها الشرعية تجعل لكل هذه القيم دورها الكبير فى نموها وترسيخها بالمجتمعات الاسلامية التى تميزها عما عداها من الثقافات ذات الطابع الوثنى ٠

ثامنا : الثقافات تتشابه فى أطرها الخارجية

رغم أن الثقافات تتنوع وتختلف باختلاف سماتها ومركباتها ونظمها وأنساقها إلا أن هناك تشابها واضحا فى الاطار الخارجى أو المظهر العام لهذه الثقافات مهما اختلفت فى درجة بساطتها أو تعقدها بمعنى أن لكل ثقافة قطاعاتها الثلاثة السالفة الذكر القطاع المادى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى الرمزى فلكل منها نظامها العائلى سواء تمثل فى الأسرة الصغير أو الممتدة Extended Family وسواء اختلف الزى وتباين بتباين الحلة العسكرية ذات الأوسمة والنياشين إلى الفراء الذى يغطى كل اجزاء الجسم إلى بضع أوراق من الشجر تغطى سوأة الانسان فإن هناك فى ثقافات العالم المتعددة نظاما للملبس بعد أن انحسر العرى أو كاد من الثقافات البدائية فى عصرنا الراهن ورغم أن هناك تباينا فى لغات العالم ولهجاته والتى تصل الى عدة آلاف من اللغات ورغم تنوع وتباين الرموز والفنون فى تلك الثقافات إلا أن لكل ثقافة لغتها وفنونها ورموزها وتصرفاتها الدينية ونظام الأسرة وأشكال الزواج ونسق الملكية وشكل الحكومة وطريقة الحرب والدفاع عن النفس ونوع الضبط الاجتماعى والألعاب والأدوات والآلات والأسلحة والمهن والصناعات ... الخ ٠

تاسعا : الثقافة تتميز بالتغير والدينامية

لا توجد ثقافة ثابتة أو مستقرة لا يلحقها التغير وان كانت طبيعة هذا التغير ودرجته وأسلوبه تختلف من ثقافة إلى أخرى.ولقد كان الرأى السائد لدى الانثروبولوجيين الأوائل الذين تعرضوا لدراسة الثقافات « البدائية » أنها ثقافات ثابتة لاتتغير على أساس انعزالها عن العالم الخارجى وبعدها عن التأثر بأية تيارات اجتماعية أو ثقافية أو فكرية من الخارج ، بيد أن الدراسات الحقلية التى قام بها الانثروبولوجيين

بعد غيرت هذه النظرة التقليدية إذ أوضحت أن هذه الثقافات خضعت لعديد من المؤثرات الخارجية التى ترتب عليها حدوث كثير من التغييرات المستمرة المتواصلة فى البناء والثقافة معا ، غاية مافى الأمر ان هذه التغييرات حدثت ببطء شديد إذا قورنت بسرعة التغييرات فى المجتمعات المتطورة خاصة فى أوربا وأمريكا بل والمجتمعات النامية كذلك ولهذا فان بطء التغيير هو الذى جعل الانثروبولوجيين الأوائل يرون فى الشعوب البدائية شعوبا جامدة غير قابلة للتغيير ، ويعترض بعض الانثروبولوجيين على استخدام صيغة « بدائى » بالنسبة لهذه الشعوب المتخلفة لأنها لاتمثل الحالة الأولى للمجتمع الانسانى والتى يمكن أن تتصف بالبدائية **Primitivism** لأن هناك فرقا كبيرا بين هذه الحالة الأولى للمجتمع البشرى والحالة الراهنة للمجتمعات المتخلفة أيا كانت درجة تخلفها ولهذا فهم يؤثرون أن يستخدموا اصطلاح « شبه بدائى » كما أشرنا على أساس أن المجتمع البدائى لاوجود له فى عصرنا الراهن ورغم دقة اصطلاح « شبه بدائى » إلا أن الاصلاح الأول « بدائى » لازال هو الأكثر انتشارا ، وان كان الانثروبولوجى الأمريكى المعاصر روبرت ردفيلد **R. Redfield** يستخدم اصطلاح المجتمع الشعبى للدلالة على المجتمع البدائى .

وعلى أية حال فانه يمكن أن نميز بين سرعة التغير الثقافى فى مستويات ثلاثة هى : التغير البطىء ويلاحظ فى المجتمعات التى يقال عنها انها بدائية وذلك لعزلتها وصغر حجمها وجمود تقاليدها وملاحظة التجانس وعدم تقسيم العمل بها إلا فيما يتعلق بالعمر والنوع كما أسلفنا ، وهناك التغير السريع ويشاهد فى المجتمعات الصناعية المتطورة كالمجتمع الامريكى والمجتمعات الأوربية بصفة عامة والتى يسودها مبدأ التخصص وتقسيم العمل وقوة التفاعل والحراك الاجتماعى وارتباطها العضوى بمعظم بلاد العالم وشدة الاحتكاك الفكرى بين أفرادها وهيئاتها ومؤسساتها وتقدم الاختراع التكنولوجى بها ، وأخيرا هناك مايمكن أن نطلق عليه « التغير المعتدل » والذى يلاحظ فى الدول النامية والثقافات الزراعية فى افريقيا وآسيا وأوربا وان كان هذا التغير نفسه يختلف بين مجتمع وآخر من حيث نموه واطراده طبقا لمدى انجاز خطط التنمية وتطورها فى هذه المجتمعات ، وتعد المملكة العربية السعودية من أولى المجتمعات التى يسير فيها التغير

التكنولوجى بخطوات واسعة فى نفس الوقت الذى يحافظ فيه على ثقافته الاسلامية العريقة .

ومن الأهمية القول بأن الثقافة كل مترابط الاجزاء تنتقل عبر أجيال متعددة عن طريق التعلم المقصود وغير المقصود وبتوالى الأجيال يتراكم التراث الثقافى الذى قد يستمر عشرات بل ومئات القرون ولا يفهم من هذا ان الثقافة الواحدة خالدة فقد تنقرض الثقافة إذا انقرض المجتمع الذى يحملها سواء كان ذلك عن طريق الفناء أو الغزو أو اندماج مجتمع صغير فى مجتمع أكبر يذيب ثقافة المجتمع الأول فى اطاره فمثلا اختفت الثقافة المصرية القديمة وان ظلت آثارها باقية وكذلك اختفت الثقافة المصرية الرومانية والقبطية وأصبحت مصر تعيش عصر الثقافة العربية الاسلامية. ورغم استمرار المجتمع فى المكان إلا أنه قد يتعرض لأكثر من ثقافة بمرور القرون وتوالى الأجيال ، وقد اختفت معظم ثقافات الهنود الحمر فى الأمريكتين عن طريق الغزو أو الاندماج الحضارى واختفاء حدة التسلط العنصرى كما اختفت معظم ثقافات السكان الأصليين لاستراليا ولم تعد ثقافات المجتمعات البدائية فى افريقيا هى هى منذ عشرات السنين بل بدأت تندمج فى الكيانات الإفريقية الأكبر ليلحقها التغير والتطور فى عديد من سماتها ومركباتها ونظمها بحيث يمكن القول بأن الباحث الانثروبولوجى حين يتعرض لدراسة هذه المجتمعات فانه يلحظ فارقا كبيرا بين نظمها الثقافية وبين تلك التى كانت عليها منذ عشر سنوات أو عشرين عاما أو بمعنى آخر يلحظ التغير فى ثقافتها إلى حد ما اذا قورنت دراسته بدراسات الانثروبولوجيين لتلك المجتمعات فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تماما مثل ما لاحظنا فى دراستنا لقبيلة الشلك فى منتصف السبعينات الميلادية بالنسبة لما كانت عليه فى دراسة كل من Westermann « وسيلجمان » فى بداية القرن العشرين .

وعلى أية حال فان الانثروبولوجيين اعتادوا ان يتحدثوا عن نموذجين من الثقافات احدهما بدائى والآخر متحضر أو متمدين وانهما يتمايزان تماما فيما بينهما من حيث الانماط السلوكية والتكنولوجيا والقيم والشعائر وإذا كان النموذج الحضرى يلاحظ بوضوح فى المجتمعات الصناعية المتطورة فان النموذج البدائى يصعب وجوده برمته فى المجتمعات

التى يقال عنها انها بدائية وذلك لتعرضها لرياح التغيير الهادئة بل والقوية احيانا ـ والتى تهب عليها من الثقافات المتطورة المجاورة لها ، وبفعل وسائل الاعلام الثقافى التى بدأت تغزو العالم كله تقريبا ٠

ويوضح الجدول أهم السمات التى تتميز بها كلتا الثقافتين البدائية والمتحضرة ٠

جدول خصائص الثقافات

ملامح الثقافات البدائية	ملامح الثقافات غير البدائية
١ ـ الاعتماد على جمع الطعام والصيد	الاعتماد على الرعى والزراعة والصناعة
٢ ـ التكتل فى معاشر وعشائر تمتاز بصغر حجمها وكثافتها	التكتل فى قرى زراعية ومدن تمتاز بضخامة حجم الجماعات البشرية بها ٠
٣ ـ الامية (الجهل بالقراءة والكتابة) ٠	معرفة القراءة والكتابة واستخدامها اساسا فى المعاملات ٠
٤ ـ تشابه خبرات الأفراد بحيث يجتاز الفرد مهنة يختارها أو يمر بها معظم أفراد المجتمع	اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم فى المجتمع بحيث يختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لايشاركه فيها عديد من أفراد المجتمع الآخرين ٠
٥ ـ توافر الشعور القوى بتماسك الجماعة وتضامنها تضامنا عضويا دمويا	ضعف الشعور بقوة التماسك والتضامن بين أفراد المجتمع ٠
٦ ـ ضآلة المعرفة العلمية واختفاء التفكير المنهجى وسيادة الفكر الخرافى ٠	الاعتماد على المعرفة العلمية والتفكير المنهجى وازدهار التكنولوجيا القائمة على العلم ٠
٧ ـ سيادة التجانس واختفاء تقسيم العمل الا فيما يتعلق بالعمر والنوع (الذكر والانثى)	سيادة التخصص وتقسيم العمل على أساس من الخبرة والتخصص ٠

« تابع » جدول خصائص الثقافات

ملامح الثقافات البدائية	ملامح الثقافات غير البدائية
٨ ـ الاكتفاء الذاتي وما يترتب عليه من ضعف الحافز الاقتصادى •	الاعتماد على المؤسسات الاقتصادية العديدة لاشباع الحاجات الاساسية والكمالية لتنوعها وتعددها •
٩ ـ عمليات الضبط الاجتماعى يحكمها العرف والتقاليد •	يعتمد الضبط الاجتماعى على المبادىء الدينية أو القوانين الرسمية فى المجتمع •

تلك هى أهم السمات التى تميز كلاً من نموذجي الثقافات البدائية وغير البدائية وكما تختلف الثقافات البدائية باختلاف انفتاحها على الثقافات المجاورة المتطورة ومدى تأثرها بها فان الثقافات المتحضرة او غير البدائية تختلف باختلاف درجة تمدينها وقوة أو ضعف التغير الثقافى بها وقوة اتصالها بالثقافات الأخرى • ولهذا توجد مجتمعات متمدينة ومجتمعات نامية فى المستوى غير البدائى •

الثقافة والعوامل الجغرافية

لاتعد العلاقة بين الثقافة والبيئة الجغرافية من النظريات الحديثة التى تناولها العلماء بل تناول المفكرون القدامى العلاقة بين بيئة الانسان وثقافته فى تحديد مناشطه وأنماط سلوكه بوجه عام • اذ كان الفيلسوف الشهير أرسطو من أوائل الذين قرروا أن المناخ وطبيعة الأرض من أهم العوامل التى تشكل ثقافة الإنسان وتقبل بعض الانثروبولوجيين هذه الحقيقة إلا أنهم رفضوا مانادى به بعض الجغرافيين من مبدأ الحتمية الجغرافية فى ثقافة مجتمع ما بمعنى أن مناشط الانسان المختلفة وسمات ثقافته ومركباتها ونظمه الاجتماعية لايمكن تفسيرها إلا عن طريق البيئة الجغرافية أو

الابكولوجيا Ecology أى العلاقة بين البيئة الطبيعية والانسان لدرجة أن عبروا عن ذلك المبدأ بالمعادلة التالية :

البيئـــة = الثقافـــة

أى أن البيئة الجغرافية هى العامل الوحيد فى اختلاف الثقافات وتنوع ضروبها مما جعل العلامة ستيوارد J. Steward يخصص فرعا خاصا من فروع الانثروبولوجيا الثقافية بأسم « الابكولوجيا الثقافية » Cultural Ecology ·
لدراسة مدى تأثير العوامل الجغرافية على الأنماط الثقافية[1] بل ان بعض الجغرافيين غالوا فى ذلك الاتجاه غلوا كبيرا حين ادعوا بأن العوامل الجغرافية لايمتد تأثيرها لأنماط ثقافية محددة فحسب وانما يشمل كذلك تشكيل الملامح الفيزيقية للبشر مثال فورد D.C. Forde وهاولى A.H. Hawley حيث يرى الأخير ان البيئة الجغرافية لاتسمح بامكان ظهور ثقافة معينة فحسب بل انها تفرض ذلك الى حد بعيد وقد كان العلامة العربى المسلم عبدالرحمن بن خلدون اسبق من هؤلاء بقرون عديدة فى عرض نظريته عن تأثير الاقاليم الطبيعية المختلفة على سلوك وثقافة الانسان حيث ذكر عديدا من الأمثال العديدة المستخلصة من البيئة والتى تؤيد رأيه ومن آرائه ان الاقاليم المعتدلة افضل سكانا فى مناخها وان لم يقتصر على فكرة الحتمية الجغرافية بل أدخل فى حسابه عديدا من الظواهر الأخرى كالأديان والعوامل النفسية والأصول البشرية والجوانب الاقتصادية ·[٢]

كما كان للعديد من علماء المسلمين العرب رأيهم فى العلاقة الحتمية بين ظواهر البيئة الطبيعية وما تعكسه من أثر فى العادات والقيم والتقاليد امثال · « المسعودى» فى كتابه « مروج الذهب » وغيره من الرحالة العرب ·

بيد أن الانثروبولوجيين لايوافقون على هذه الحتمية الجغرافية الجامدة كأساس

1. Steward, J. ***Theory of Cultural Change.*** University of Illionois Press, Urbana 1957. P. 31.

(٢) لتفصيل ذلك راجع : المقدمة طبعة دار الشعب القاهرة (بدون تاريخ) المقدمة الثالثة « فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من احوالهم » · ص ص ٧٦ ـ ٧٩ ·

للعوامل الثقافية،وان كانوا يرون أن للعوامل الجغرافية أثرها فى الاختلافات الثقافية ولكنها عامل من العوامل العديدة التى تؤثر فى الثقافة وتشكل انماطها وخصائصها ذلك لأنه لايمكن أن نفسر اتباع مجتمع ما للنظام الأمى فى التسلسل القرابى ومجتمع آخر النظام الأبوى بالعوامل الجغرافية التى تتشابه فى المجتمعين ، كما لايمكن ان نعلل امتناع الصينيين عن شرب اللبن او الهنود عن أكل لحم البقر إلى نفس البيئة الجغرافية . فرغم أن الهند تشكل بيئة جغرافية واحدة إلا أنها مسرح لعديد من العادات والقيم والتقاليد والمعايير الثقافية المختلفة.ــ وبالمثل لايمكن ارجاع امتناع المسلمين عن أكل لحم الخنزير إلى العامل الجغرافى فسبب ذلك مستمد من الشريعة الاسلامية كما هو معروف وعليه فان هناك عوامل عديدة تلعب دورها فى تشكيل الانماط الثقافية كالدين والقيم ونظم القرابة والسياسة وغيرها من العوامل .

صحيح أن طبيعة الأقاليم الجغرافية تلعب دورها الى حد كبير فى تحديد أنماط القطاع المادى للثقافة والذى يؤثر بدوره فى القطاعين الاجتماعى والفكرى الرمزى اذ لو نظرنا إلى إقليم التندرا الذى يمتد من شمال سيبيريا إلى شمال أوربا وفى شمال امريكا الشمالية وحيث يسود المناخ البارد ويكسو الجليد طبقات الأرض فترة طويلة من العام نشاهد تشابها كبيرا بين ثقافات هذا الاقليم وما ينتشر به من أنماط ثقافية كطبيعة الغذاء ووسائل الدفء المتمثل فى الملابس الثقيلة المصنوعة من فراء الدب والثعلب القطبى واستخدام الحيوانات فى جر الزحافات والمهارة فى صيد تلك الحيوانات واستخدام لحومها وألبانها وأوبارها وأشعارها وعظامها لسد الحاجات الاساسية كالمأكل والمشرب والمأوى ، كما يلعب الصيد المائى دورا كبيرا فى نوع وكمية الطعام الذى يحتاجون اليه ويعتمدون عليه لتوافر الأنهار والبحيرات فى تلك المناطق .ــ ومن أهم الجماعات البدائية التى تعيش فى هذا الاقليم قبائل البوكاغو فى شمال شرق سيبيريا والتنجوش الشمالية فى شمال منشوريا وإقليم منغوليا بينما يشتمل إقليم الاستبس على مساحات شاسعة من الأرض لاتنتج سوى العشب المسمى بنفس اسم الاقليم « الاستبس » فى وسط آسيا وشرق أوربا.ــ وعليه فالرعى يعتبر الحرفة الأساسية فى هذه الاقاليم ويساعد عليها وجود الحصان الحيوان المتأنس، وحول الحصان يدور عدد من عادات وقيم وتقاليد الاقليم اذ

هو أساس اتحاد العائلات المختلفة والمبعثرة فوق منطقة الاستبس كما أنه سبب وحدة العمل والعائله وله تأثيره الكبير فى أواصر القرابة وإن كان هذا التكتل الجماعى يفتقد فى الجماعات التى تحترف الصيد وجمع الثمار لافتقارهم الى الحصان الذى يساعد على الوحدة وقوة التجمع .(١)

وعلى أية حال فان الانثروبولوجيين يرون أن أثر البيئة الجغرافية فى الثقافة يبدو واضحا فى المجتمعات المتخلفة والتى يقال عنها انها بدائية حيث لم تقطع شوطا يذكر فى مجال التقدم التكنولوجى والثقافى بالدرجة التى تسمح لأفرادها بالتغلب على هذه العوامل والظروف الايكولوجية وهنا يظهر أثر البيئة واضحا فى سائر النظم الثقافية بشكل لايتوافر فى المجتمعات الأكثر تطورا والتى يتاح لها ان تتغلب على كثير مما يصادف الناس من عقبات البيئة كاستزراع الصحراء واستخراج الماء من باطن الأرض وشق الترع والقنوات واستخدام القوى الكهربائية والذرية فى عديد من وسائل الحياة .. الخ . ولهذا فان الانثروبولوجيين لا يوافقون على فكرة الحتمية الجغرافية ويرون ضرورة النظر الى التفسيرات الاجتماعية والقيمية الأخرى للعوامل الثقافية .

وبهذا يمكننا القول بأن أثر البيئة وفعاليتها يتناسب طرديا مع المجتمعات المتخلفة وعكسيا مع المجتمعات الصناعية المتطورة وان كان هذا لايعنى ان البيئة لا أثر لها البته فى المجتمعات الاخيرة ، بل على العكس إن للمناخ أثره الكبير فى هذه المناطق ويتجلى هذا الأثر فى القطاع التكنولوجى المتطور السائد فى هذه المناطق ، ففصل الشتاء مثلا فى أمريكا يدعو الى القيام بعديد من الصناعات التى توفر التدفئة وتخفف من شدة البرودة إلى حد كبير وان كان للاعاصير وشدة البرودة اثرها الكبير فى هذه البلاد ولكن يمكننا القول ان هذه المناطق المتطورة تكنولوجيا لايقف افرادها مكتوفى الايدى امام قسوة الطبيعة وانما يواجهونها بالأساليب التكنيكية المتطورة . كما يختلف الاستهلاك الاقتصادى والنشاط الصناعى باختلاف الفصول وتقلباتها الجوية فى المجتمعات النامية بصورة ملحوظة .

---

(١) إبراهيم زرقانه . الانثروبولوجيا . القاهرة ص ص ١٩١ ـ ١٩٢

الفصل السابع

الانتشار الثقافى

- مفهوم الانتشار الثقافى
- عناصر الانتشار الثقافى
- طرق انتشار الثقافة
- عمليات الانتشار الثقافى ونتائجه
- مواقف الانتشار الثقافى
- الانتشار الثقافى والتبشير وموقف الدعوة الاسلامية
- نظرية المصدر الأساسى للثقافة

أشرنا فيا سبق إلى أن من أهم الأسباب التى تدعو لاستمرار تخلف المجتمعات البسيطة هو انعزالها عن المجتمعات الأخرى بعكس المجتمعات النامية أو المتطورة والتى يحدث بها ما يسمى « الانتشار الثقافى » فما المقصود بمصطلح الانتشار الثقافى ، وكيف تتم هذه الظاهرة الحضارية ، وما أسبابها وعناصر سريانها ونتائجها ؟

مفهوم الانتشار الثقافى :

يقصد بالانتشار أو الذيوع الثقافى تلك الظاهرة التى تنتشر عن طريقها السمة أو النمط الثقافى A Cultural Trait or Pattern من فرد أو جماعة أو مجتمع إلى فرد أو جماعة أو مجتمع آخر وهى عملية تختلف عن التقليد أو المحاكاة حيث يقلد قطاعا

ما من المجتمعات ـ وعادة ما يكون الجيل الناشيء ـ قطاعا أو طائفة أخرى فى المجتمع ويطلق بعض العلماء على هذا النوع من الانتشار مصطلح الانتشار العرضى أى الذى يحدث عن طريق الصدفة by accident وهو غير الانتشار المقصود أو المنظم والذى يتم حدوثه فى المجتمعات بطرق متعددة كأن يغزو مجتمع آخر فيفرض عليه نظمه الاجتماعية ولغته وثقافته وهنا يعتبر الانتشار مقصودا لأنه يتم بشكل مرسوم ومقصود لا بشكل عرضى وهذه العملية تتم من خلال محركات أو وسائل متعددة هى وسائل الاتصالات الثقافية Cultural communication كالتجارة والحروب والتزاوج وتبادل الآثار العلمية والهجرات ووسائل الإعلام العالمية إلى غير ذلك ٠

وتشتمل هذه الظاهرة على عناصر أساسية هى :

أ ـ نقل العنصر أو العناصر الثقافية من مجتمع إلى آخر ٠

ب ـ قبول هذه العناصر بواسطة جماعة أو مجتمع معين تنتقل إليه ٠

ج ـ توافق النمط أو الأنماط الثقافية المنقولة مع عناصر الثقافة السائدة فى هذا المجتمع ٠

د ـ مرور فترة تندمج فيها العناصر الوافدة بالأساسية أو تستقر بجوارها ٠

ويرجع اهتمام الأنثروبولوجيين بهذه الظاهرة إلى القرن التاسع عشر وهو إهتمام نشأ عن تصورهم للثقافة بأنها حصيلة النشاط الانسانى وقبولهم لفكرة تراكم الثقافة واستمرارها عبر الزمن عن طريق التقدم والأطراد، اذ اعتقد ان الثقافة تتقدم بالضرورة من المستوى البدائى إلى المستويات الأرقى فى الحضارة عبر مراحل معينة اختلف العلماء حول تحديد خصائصها ومقوماتها وعددها وأن اتفقت آراؤهم حول مبدأ التطور ذاته بمعنى أن المرحلة التالية أرقى من سابقتها وأن كانت تمهد الطريق لمرحلة أعلى منها وهكذا وازاء نقص المعلومات الأثنوجرافية التى يستندون إليها فى نظريتهم التطورية تلك فانهم لجأوا إلى ما يسمى بالتاريخ الظنى أو التخمينى أو الافتراضى أمثال « مورجان » و« باخوفين »« وماكلينان »« وتايلور » « وجيمس فريزر » « وهنرى مين »« وغيرهم واعتمد افتراضهم على أساس ان الرجل البدائى يمثل طفولة الجنس البشرى مثلما يمثل الرجل المتحضر قمة ما وصل إليه هذا الجنس البشرى من الكمال كما استرعى اذهان هؤلاء العلماء قدرة الثقافة الهائلة على الانتشار والذيوع بين المجتمعات المختلفة بحيث

يتخطى ذلك حدود الفواصل الجغرافية واللغوية والسياسية والسلالية،وكمثال لذلك الثقافة الإسلامية والتى تتمثل فى أنماط وشعائر وقيم واحدة وعناصر سلوكية مشتركة فى عديد من الشعوب الاسلامية والتى يؤلف كل منها وحدة مستقلة عن سواها فى بعض الأحيان على الأقل من حيث اللغة والسلالة وذلك فى بعض السمات الجزئية التى تعبر عن خصوصيات ثقافية كما سبق أن أشرنا وفى نفس الوقت فهى تعكس وحدة العموميات الثقافية ولايقتصر هذا على الثقافات المتطورة وحدها بل يصدق على الثقافات المتخلفة والتقليدية والقبلية مثل ثقافة الهنود الحمر وهم السكان الأصليون لأمريكا الشمالية فقد كانوا وقت نزوح الأوروبيين اليها حوالى ٦٠٠ قبيلة هندية لكل منها أنماطها الخاصة فى المعيشة وفنون الحكم والقيم والشعائر والطقوس والنظم السياسية والاقتصادية ٠٠ الخ ٠ ولم تكن لكل قبيلة ثقافتها المتميزة تماما عن سواها بل كان هناك ٧ سبع أنماط ثقافية تعبر كل منها عما يسمى بالمنطقة الثقافية Cultural Area والمنطقة الثقافية كما يعرفها«سابير» «مجموعة من القبائل المتجاورة جغرافيا والتى تتميز بقدر من العناصر الثقافية المشتركة بجعلها تتميز عن مجموعات اخرى مماثلة»(١)، ولكن هذه المناطق لم تظل معزولة عما سواها وانما قامت بفعل الانتشار الثقافى بدور كبير فى استقطاب انماط ثقافية وجديدة لم تكن معروفة لدى هذه القبائل وقد كان علماء القرن التاسع عشر يرجعون هذا التشابه فى الأنماط الثقافية العامة إما إلى تشابه الظروف الطبيعية ذاتها على أساس أن التفكير الانسانى نفسه متشابه فى كل زمان ومكان أو إلى انتشار السمات الثقافية من مجتمع لآخر نتيجة احتكاك هذه المجتمعات عن طريق الحروب والتجارة والغزوات والهجرة وغيرها ويعرف هذا الاتجاه بالانتشار الثقافى ٠

---

(١) لايختلف تعريف كل من ميرودك Murdock وهوبل A. Heobel عن تعريف سابير فالأول يعرف المنطقة الثقافية بأنها « المنطقة التى تتضمن الثقافات المتقاربة للشعوب المختلفة التى تعيش فى اقليم جغرافى محد » بينما يعرفها هوبل بأنها « المنطقة الجغرافية التى تتشابه الثقافات الموجودة بها ، وفى بعض الجوانب الأساسية ويرى كروبير أن المناطق الثقافية قد تكون تكوينات جاهزة مستقرة تمثل لحظات فى سباق الزمن ، وكلما ازدادت معرفتنا بالتاريخ ازدادت صعوبة عمل تصنيف مقبول للمناطق الثقافية ٠ راجع قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور مرجع سابق ص ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠

ويلاحظ الأنثروبولوجيون انه عندما تحتك ثقافتان مختلفتان فان الأنماط الثقافية المتجانسة فى كلتيهما تميل إلى المرور بسرعة من ثقافة إلى أخرى مبتدئة بالنمط الأبسط والأكثر ضرورة وإذا كانت احداهما أكثر تقدما فان التيار الثقافى الذى يمر من المستوى الثقافى الأعلى يكون أقوى فى الوقت الذى تصطدم فيه القيم الأكثر تناقضا ثم تتصارع .

ويرى جمهور من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع أن الثقافة المادية أكثر ذيوعا وانتشارا من الثقافة اللامادية على أساس أن الأنماط الثقافية الأولى يسهل انتقالها وتداولها بعكس القيم والعقائد التى يصعب انتقالها أو تداولها بنفس السرعة لأنها من الأمور التى تحتاج إلى فترات طويلة من الزمن لرسوخها وتمثلها وانتشارها وينادى بهذا الرأى عديد من علماء أمثال « أوجبرن »«وماكيفر» والفيلسوف«جون لوك»«وسان سيمون» S. Simon وفابلن T. Vablin وسمنر S. Suminer وغيرهم وان اعترض على هذا الرأى سو روكن Sorokin الذى يرى أن العنصر التكنولوجى لم يكن أكثر انتشارا من فكرته وأن العناصر الأيديولوجية التى تتصل بالجوانب اللامادية تنتشر بصورة أكثر من العناصر المادية .

وعلى أية حال فان هناك عناصر أساسية لابد أن تتوافر ليتم الانتشار الثقافى كأن يكون النمط المهاجر أو المنتشر ذا فائدة أو عائد يمهد لانتشاره فى المجتمع المنقول اليه وأن يكون هناك من وسائل الاتصال ما يحقق سهولة نقل العنصر نفسه ، كما ينبغى أن يكون الوسط المنقول اليه النمط الثقافى مستعدا لتقبله وعدم معارضته او النفور منه بالاضافة الى عدم تعارض النمط المنقول مع القيم السائدة فمثلا لوحظ أن ما يسمى بحركة الهيبز أو الخنفسة والتى بدأها بعض الشباب الأوروبى المتبرم بحضارته والتى انتشرت فى عديد من بلدان العالم لم تجد قبولا مالدى الرأى العام فى المجتمعات الاسلامية لأنها لاتتفق مع قيم ومعايير وسمات هذه الثقافة .ـ وعليه فان الدول النامية بعامة لاتستقبل من الأنماط الثقافية الأوروبية الا ما كان متفقا مع قيمها وشعائرها وان كانت هناك ظواهر غير سوية يرفضها المجتمع الإسلامى وبهذا فليس كل عنصر ثقافى غربى قابلا للانتشار فى البلدان الشرقية .

ويقسم الأنثروبولوجيون طرق انتشار الثقافة إلى طريقين أساسيين هما :

١ ـ الطريق العرضى التلقائى :

ويظهر واضحا فى انتشار الثقافة عن طريق الهجرات التى تتم من بلد لآخر بفعل عوامل الضغط الاجتماعى أو عوامل الطرد المادى حيث يحمل الأفراد المهاجرون معهم أنماط ثقافاتهم المختلفة إلى المناطق الراحلين اليها كما حدث فى الهجرات الأوروبية العديدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتى أصبحت لاتختلف ثقافتها اختلافا يذكر عن الثقافة الأوروبية ٠

٢ ـ الطريق المقصود أو المتعمد ٠٠

ويبدو واضحا فى الهجرات الاستعمارية أو التجارية التى تهدف إلى فرض ثقافتها على الشعوب التى تستعمرها وقد كانت بريطانيا فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن من أوائل الدول المستعمرة حيث وصفت حينئذ بأنها الدولة التى لاتغيب عنها الشمس وذلك قبل أن يتقلص نفوذها وتحصل الدول المستعمرة التابعة لها على استقلالها ٠

وعلى أية حال فان عديدا من مظاهر الانتشار الثقافى الذى غزا العالم فى القرن العشرين إنما يعود إلى هجرة الشعوب وانتصار بعضها على البعض الآخر أو إلى تصادم الثقافات المختلفة نتيجة الحرب أو الهجرة فهذا من شأنه أن يؤدى إلى انتشار الأفكار الجديدة لاسيا تلك التى تتفق مع أنماط الثقافة المستقبلة وبالتالى يزيل من صلابة وجمود الثقافة الخاصة بكل مجتمع ٠

عمليات الانتشار الثقافى

هناك عمليات ديناميكية تنشأ عن عملية الانتشار الثقافى من أهمها :

١ ـ الإحلال :

أى أن تحل سمة جديدة محل أخرى سابقة لها وتؤدى نفس الوظائف أثناء حدوث عملية الانتشار التلقائى كأن يحل « الترمس » للاحتفاظ بدرجة حرارة الماء محل « القلة » أو « الزير » وأن يحل المكيف للتدفئة بدل إشعال نار الحطب وهكذا فى مجتمعاتنا النامية ٠

٢ ـ الاضافة :

قد لاتحل السمات أو المركبات أو النظم الجديدة محل العناصر القائمة ولكنها تضاف اليها ، وهنـــا يحدث تغير في البناء الثقافي ، كأن يظل نمط الأكل بالأيدى قائما فى بعض المجتمعات النامية مضافا اليه استخدام الملاعق والشوك والسكاكين ، حسب ظروف ومناسبات تناول الطعام ، وهنا لايلغى الجديد القديم وإنما يضاف اليه •

٣ ـ التوفيقية :

فى عملية التوفيق تلك تندمج سمات ثقافية جديدة مع سمات أخرى قديمة لتشكل نسقا ثقافيا جديدا ، وهنا يكون التغير عرضة لأن يكون ملحوظا ، كلبس الثوب فى دول الخليج مثلا مع لبس الجاكت فى الشتاء ، ولبس البنطلـون تحـت الثـوب ، أو استخدام السيارة فى حمل أعلاف الماشية أو الخضروات والفواكه ، ولم يكن الأمر هكذا قبل •

٤ ـ التفكك الثقافى :

قد يؤدى الأتصال الثقافى إلى فقدان جانب من الثقافة دون حدوث آخر يحل محله ، كأن تؤدى المصانع إلى إحلال سلع تقضى على سلع أخرى قديمة ، مثل حلول صناعات البسط الالية التى تفرش أرضية المنازل بدل تلك التى كانت تصنع بالأيدى لسرعة انتاج الأولى ورخصها اذا قيست بالأخرى فضلا عن جمال مناظرها ، وكذلك صناعة منتجات الألبان آليا بدل تلك التى كانت تصنع بالأيدى لدى الفلاحين •

٥ ـ التجديد :

وتتم هذه العملية بالوصول إلى إختراع سمات وآلات تكنولوجية جديدة لم يكن لها جذور سابقة فى الثقافة الماضية ، وذلك لمواجهة الاحتياجات الجديدة مثل اختـراع الحاسب الآلى «الكومبيوتر» والتلكس والالات الالكترونية وغيرها •

٦ ـ الرفض :

قد تكون التغييرات المطلوب احداثها عديدة وسريعة بحيث لايستطيع عدد كبير من الأفراد تقبلها ، وفى هذه الحالة تبذل جهود ضخمة لمقاومتها ، وفى الحالات المتطرفة يتخذ الرفض سلوكا غير سوى كأن يرتفع معدل الاجهاض أو وأد الأطفال ، وقد يتخذ أشكالا أخرى كالسعى للعودة إلى الماضى أو الانتفاضة المفاجئة أو الحركة الدينية التى تتطلب العون من القوة فوق الطبيعية ٠

وتتم هذه العمليات كرد فعل للاختراعات والتغييرات الثقافية المختلفة أو تنشأ نتيجة للاحتكاك بثقافة مغايرة ، وتلعب دورا هاما فى المجتمعات النامية والصناعية معا ٠

نتائج الانتشار الثقافى

ينشأ عن عمليات الانتشار الثقافى نتائج عديدة أهمها ٠

١ ـ التوحد أو التمثل Identification وفى هذه الحالة يصبح من العسير التمييز بين الثقافتين الأصلية والطارئة لاندماجهما معا ، فهما يشكلان بمرور الأيام ثقافة واحدة ، وهذه الظاهرة تندر بالنسبة للجماعات وان كانت كثيرة الحدوث بين الأفراد ٠

٢ ـ الاندماج : وفى هذه الحالة تفقد الثقافة الوافدة استقلالها ، ومع ذلك تظل قائمة كثقافة فرعية حيث تشكل ثقافة طبقة مغلقة ، أو طبقة أو مجتمعا ٠

٣ ـ الانقراض : قد تفقد الثقافة أفرادها ، وبهذا لاتستطيع أداء وظيفتها ، نتيجة فقدان الأفراد فى الحرب ، أو تفشى مرض عام يقضى على الجماعات ، أو نقل الأفراد من ثقافة إلى أخرى ٠

٤ ـ التكييف : يحقق التوازن البنائى الجديد عملية التكيف الثقافى ، حيث لاتختفى العناصر الأصلية أو الدخيلة ، وانما تظل كل منهما فى توازن بينهما ، وقد يستمر التغير مع هذا التوازن ، وان كان معدله يميل نحو الهبوط ٠

مواقف الانتشار الثقافى :

تنشأ هذه المواقف حين يحدث اتصال بين ثقافتين متناقضتين ، وتتخذ هذه المواقف

أشكالا متغايرة فتتخذ شكل علاقات سيطرة أو تبعية اذا كانت بين ثقافات أوروبية وأخرى بدائية ، أوثقافة المسيطرين على المستضعفين ، أو الغازين للدول المهزومة ، وان كانت هناك جوانب خاصة ظهرت فى التفاعل بين ثقافات المسلمين والوثنيين فى أفريقيا ، والتى تمت على أساس من التلاحم والتقبل للثقافة الاسلامية التى تنص فى جوهرها على المساواة بين الشعوب ، ورفض مبدأ العنصرية فى شتى صوره،كما أن هناك دراسات عديدة ركزت على التغيير الذى يطرأ على المحتوى الثقافى عند حدوث عملية الانتشار الثقافى ذاتها كما حدث فى التغير الناشيء عن استبدال رجل الطب البدائى أو الساحر بالطبيب الحديث أو الممرض ، وانشاء المستشفيات العامة والمتخصصة فى هذه المجتمعات البدائية المتغيرة ، وما صاحب هذا من مراجعة للتصورات والوظائف الاجتماعية للمرض ، وما أدى اليه ذلك من الحاجة الى تقسيم الأرض وتغيير نمط الاستهلاك الناشيء عن زيادة عدد السكان نتيجة انخفاض معدل وفيات الأطفال بسبب الرعاية الصحية فى مظهريها الوقائى والعلاجى بهذه المجتمعات .

الانتشار الثقافى والتبشير

لقد مضى حين من الدهر فرضت الثقافة الغربية فيه على الناشئة المسلمة التعلق بها ومحاكاتها وذلك فى البلاد الاسلامية التى احتلها الغرب واستعمرها فترة طويلة من الزمن، وكان التعليم الغربى بشتى صوره هو أداة تأثر بهذه الثقافة والولاء لها والعمل على نشرها.ـ ورغم أن هذه المعاهد الغربية بعامة والتبشيرية المسيحية بخاصة اخفقت فى ان تخرج ابناء المسلمين عن دينهم وعقيدتهم إلا أنها أثرت فى هؤلاء المستغربين تأثيرا كبيرا ولم يبق من هؤلاء على فهم صحيح وولاء كامل لدينه وعقيدته الاسلامية الا القليل الذين وعوا تماما أن هذه الثقافة الغربية البعيدة عن تمسك المسلم بدينه إنما تحمل السم فى العسل والموت فى الدسم . وعلة الانتشار الثقافى بهذه الصورة هو نظرة الضعيف إلى القوى والمنهزم إلى المنتصر والمغلوب إلى الغالب مما دعا هؤلاء المستغربين إلى المضى فيما اسموه بركب النهضة والتقدم[1] ، متناسين أصالة حضارتهم الاسلامية

---

(١) ابو الأعلى المودورى ، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ١٧٦ ـ ١٨٢

الرائدة للحضارة الاوروبية ولما كان للحضارة الاسلامية أصالتها ورسوخ سماتها وقوة عناصرها فقد قاومت الثقافة الغربية لاسيما فى قيمها التى تتعلق بالدين والشعائر وكان ذلك مظهرا من مظاهر التحرر من السيطرة الاستعمارية ودافعا لتقوية صلة المسلمين بدينهم وفهمهم العميق لمبادئه فهما يتيح لهم السير قدما فى الحياة المعاصرة عن وعى تام وبصيرة نافذة وقدم راسخة فى فهم شريعة الاسلام ومبادئه ٠

بهذا وقفت الثقافة الاسلامية فى وجه الانتشار الثقافى الغربى على أساس أن الثقافة الوافدة تحمل من العناصر ما يناقض الدين الاسلامى الذى يؤمن بالوحدانية الخالصة لله ، ويرفض اية وساطة يمكن ان تكون بين العبد والرب ويحرم الرهبانية فى الاسلام إلى غير ذلك من أنماط ثقافية اسلامية وفى نفس الوقت سمحت الثقافة الاسلامية لانتشار سمات غربية تتعلق بالمنهج العلمى والدراسات الواقعية والنظرة الموضوعية للعلوم الحديثة والأخذ بأسباب التقدم التكنولوجى على أساس أن تلك أمور يدعو اليها الاسلام ويحث عليها بل ان الغربيين أنفسهم ساروا على درب العلماء المسلمين الذين كتبوا فى الفلك والطب والهندسة والكيمياء والجبر يوم كان الغرب يعيش فى عصور الظلمات والتخلف ٠

ومن خلال هذا العرض السريع يمكننا القول بأن الثقافة الوافدة مع الغازى المنتصر ليس بلازم أن تنتشر فى المجتمع المستقبل لها إلا إذا اتفقت عناصرها مع عناصر الثقافة الأصلية فاذا تناقضت معها رفضتها وقاومتها بل أن الثقافة الأصلية القوية تستطيع أن تشكل وتحور المسموحات الوافدة لمنطقتها ففى العام الاسلامى كثيرا ما يستفاد بالتقدم فى فن المعمار الغربى ومع هذا يعدل فيه ويشكل بما يتلائم وطبيعة الثقافة الاسلامية والحضارة العربية وحين تتعرض القيم وتختلف الأيديولوجيات تنطلق اتجاهات سياسية وفكرية عديدة من البلاد الأسلامية تدعو إلى مواجهة تحديات الثقافة الغربية بثبات عقيدة ورسوخ اتجاه وتضع مناهج فى التربية والثقافة والاجتماع والاقتصاد على قاعدة الالتزام بالاسلام والولاء له عقيدة وعبادة وسلوكا ونظاما وروابط وعلاقات وكيانا اسلاميا واحدا يتجاوز منطق التجزئة ورواسب الضعف وآفاق التخلف ويطرح فى حركته الجديدة وهى أصلية فى نشأته ووجوده كل التيارات الوافدة من قومية

واقليمية وغيرها من المذاهب المادية الهدامة وينطلق فى معترك الحياة المعاصرة بعقيدة الاسلام ورسالته فى المجتمع البشرى وهى رسالة الحضارة الخيرة المثلى والسلام الشامل للانسانية على هذه الأرض[1] ٠

المصدر الأساسى للثقافة :

تعددت النظريات حول الاجابة عن هذا التساؤل هل نشأت الثقافة من مصدر واحد ومنه انتشرت إلى المجتمعات المختلفة مكونة الثقافات المتعددة ام نشأت من أكثر من منطقة فى وقت واحد وقد كان أهم هذه الاتجاهات ما يلى :

١ ـ نظرية المصدر الواحد ٠٠ Monogonism

ويذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن الأنماط الثقافية المتعددة نشأت من مصدر واحد ثم انتقلت منه إلى سائر المجتمعات المتعددة لتكوين مختلف الثقافات العالمية ومصدرها وقد هاجرت العناصر الثقافية منها إلى افريقيا وبقية أنحاء العالم محاولا ان يفسر عناصر الثقافات العالمية بردها للمشابهات بينها وبين الثقافة المصرية القديمة وقد اضطر أنصار هذا الاتجاه إلى التعسف فى افتراضاتهم هذه مما لأجل نظريتهم تدخل فى اطار التاريخ الظنى أو التخمينى الذى لايجد سندا قويا يبرره ٠

٢ ـ نظرية المصادر المتعددة : Polygonism

وترى هذه المدرسة ان الانماط الثقافية لم تصدر عن منطقة ثقافية واحدة وانما عن منطقتين منفصلتين عن بعضهما البعض وان انقسم انصار هذا الاتجاه إلى فريقين :

أ ـ فريق يقول بظاهرة المتوازيات الثقافية ٠

حيث ينشأ النمط الثقافى الواحد فى منطقتين منفصليتين ثم ينتشر فيهما ومنهما يمتد إلى مناطق اخرى بشكل متماثل ٠

---

(١) عمر عودة الخطيب لمحات فى الثقافة الاسلامية مؤسسة الرسالة بيروت ٧٧ ص ١٦٥ ٠

ب ـ يرى الفريق الاخر ان المتوازيات الثقافية قد توجد بطريق الصدفة وحدها ولهذا يقول بنظرية التقارب الثقافى •

وهى عملية تتشابه عن طريقها عناصر ثقافية من ثقافات عديدة كانت متقاربة فى الاصل ويفسرون فكرتهم عن التقارب بانه « نشوء مستقل للملامح الثقافية المتشابهة بينما يعرف « هويل » التقارب بانه عملية ديناميات ثقافية تصل عن طريقها ثقافتان او اكثر الى احتواء انساق او انماط سلوكية متشابهة ثم التوصل اليها بصفة مستقلة اى بدون اتصال تاريخى ونحن نرى ان هذا التعريف وسابقة ينطبقان الى حد كبير على مفهوم النمط المتوازى •

وعلى اية حال فان عملية الانتشار الثقافى من العمليات المعقدة التى تحتاج فى تفسيرها الى احاطة تامة بالعناصر الثقافية فى كلتا الثقافتين الوافدة والمستقبلة ومدى تقبل المجتمع المستقبل لهذه العناصر واهميتها بالنسبة له وهل تساير امكاناته المادية او ايديولوجيته المذهبية والفكرية ام تتناقض معها وهل تجمع بين الثقافتين وحدة اللغة والثقافة مثلا كما بين اجزاء الامة العربية حيث تعتبر تلك الجذور والثقافة الاصيلة نقطة انطلاق هامة للاشعاع الثقافى •

الانتشار الثقافى والدعوة الاسلامية

إذا كان التبشير لم يستطع أن يجد حقلا خصبا فى المجتمع الاسلامى لنشر أفكاره ومبادئه ، فان الدعوة الاسلامية ينبغى أن تكون الأساس الذى يتحطم على صخرته أية دعوة مناوئة للاسلام ليس فقط لتثبيت دعائمه وترسيخ تعاليمه القويمة وشريعته السمحة وانما لتمتدّ هذه الدعوة إلى كل ذى فطرة سليمة نقية ينشرح صدره بها للاسلام ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (١) ولهذا فإن على الدعاة أن يوجهوا دعوتهم من خلال المنهج العلمى نقصد المنهج الانثروبولوجى والذى يتيح للداعية أن يكون على وعى تام بطبيعة مجتمع الدعوة من حيث أنماط السلوك وشعائر العبادات وسمات الثقافة وأسلوب الحكم ونظام الاقتصاد والامكانات المادية والعلاقات الأسرية القرابية والخلفية التاريخية لهذا المجتمع ، وبهذا يوظف الداعية دراسته المنهجية فى سبيل هدفه الدينى ،

(١) « الأنعام » الآية ١٢٥

ويتخذ من موضوعية المنهج مقدمة لبرنامج الدعوة على أسس علمية سليمة ، وبهذا لايبدأ الداعية دعوته إذا كانت فى مجتمع وثنى أو مسيحى مثلا بتفسير القرآن الكريم أو شرح تفاصيل العبادات وانما عليه أن يبدأ بافهام مدعويه جوهر الدين الاسلامى وطبيعة فطرته السمحة والفرق بينه وبين عقيدتهم ، وأسس هذا الدين الجديد ولماذا كان خاتم الأديان ، فاذا ما تم الايمان بالدين الجديد أمكن أن يرشدهم إلى تفاصيل عبادته وعقيدته على أن يكون هو نموذجا يقتدى به ، وعلى الداعية أن يتعلم لغة مجتمع الدراسة ويجيد لهجته دون الالتجاء إلى راوية أو مخبر وأن يعيش بين أفراد المجتمع فترة لاتقل عن عام ليلاحظ أنماط الثقافة ونظم البناء الاجتماعى على مدار السنة ليسجل كل مشاهداته وحتى يمكن أن يكون على وعى تام بأفكاره وتصوراتهم من خلال لغتهم ذاتها ، فاللغة « وعاء الثقافة » ووسيلة الاتصال الاجتماعى ، وبهذا يوجد الدعاة الذين يجيدون الألمانية ان كانت دعوتهم بين الألمان والانجليزية ان كانت دعوتهم الى قوم يتحدثون الانجليزية أو يجيدون السواحلية ان كانت الدعوة لدى قوم يتفاهمون بها وهكذا ، يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] وليست هذه الطائفة إلا الدعاة الذين ينبغى أن تعدهم أمة الاسلام اعدادا شاملا متكاملا للدعوة لدين الله . وعلى أن يكون الداعية ملما بالعلوم الانسانية الماما عاما كالانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والتربية والاقتصاد والسياسة والأخلاق ومقارنة الأديان هذا بالاضافة إلى الخلفية العريضة لعلوم الدين الاسلامى التى يجب أن يكون الداعية متخصصا فيها ، فهذا أساس هام فى تكوين الداعية وسلاح له ـ مع سلاح الايمان القويم والخلق الكريم ـ وبهذا يستطيع أن يجيب على كل مايثار من تساؤلات حول أساس الاسلام وجوهر عقيدته ، ولهذا نرى أن تدرس هذه العلوم الانسانية بمعاهد الدعوة وكلياتها فى البلاد الاسلامية حتى يكون الداعية على دراية منهجية بأسلوب الدعوة ومخاطبة الجماهير ودراسة نفسية الجماعات من منطلق

---

(١) « التوبة » الآية ١٢٢ .

علمى منهجى وذلك فى اطار من سماحة النفس ولين الجانب ودماثة الخلق وحسن الموعظة قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم الداعية الأول ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1] وقد نصح النبى عليه الصلاة والسلام معاذا وزميله حين أرسلهما إلى اليمن قائلا « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » رواه مسلم ·

(١) «النحل» الآية ١٢٥

الفصل الثامن

الثقافة والشخصية

- الانثروبولوجيا النفسية (الثقافة والشخصية) ٠
- مفهوم الشخصية فى الدراسات الثقافية ٠
- العلاقة بين الثقافة والشخصية ٠
- الشخصية الاسلامية والثقافة ٠

إذا كانت الثقافة ـ كما سبق أن أشرنا ـ هى الميراث الاجتماعى للإنسان أى كل ماصنعه ويخترعه الإنسان عبر الزمان والمكان أو هى النتاج الاجتماعى العام للانسان بشقيه المادى واللامادى فان الشخصية هى الوجه الآخر للثقافة تدل عليها وتعبر عنها وتستمد منها ٠ ولهذا فالثقافة والشخصية أمران متلازمان لاينفصلان ٠ ويشتق مصطلح الشخصية فى اللغة العربية من الفعل « شخص » أى أبصر ورأى أى ماتراه العين وتبصره ، كما يرجع الأصل الأوربى الى Persona أى القناع الذى يرتديه الممثل ليساعده على القيام بدوره والتعبير عنه أى يستخدم المصطلح للتعبير عما يقوم به الشخص نفسه ٠ أما مفهوم الشخصية Personality فقد أختلف علماء النفس فى

راجع بحثنا « الثقافة والشخصية الاسلامية ٠ دراسة فى الانثروبولوجيا النفسية » كلية العلوم الاجتماعية العدد الثانى الرياض ١٣٩٨ ص ص ٤٢٧ ـ ٤٥٩

تعريفها فبينا يرى ألبورت G.W. Allport أنها « التنظيم الدينامى الداخلى للنظم النفسية الفيزيقية التى تحدد السلوك والتفكير المميزين للشخص » أى أنه يراها نتاجا لتنظيم نفسى فيزيقى متكامل يحدد سلوك وتفكير شخص ما ويطبعه بطابع معين يدل على شخصيته يرى « ستاجنر » Stagner فى الشخصية نمطــا فريدا من الدوافع والمدركات التى تميز شخصا ما أى أنها تنظيم داخلى للدوافع والانفعالات والمدركات والذكريات التى تطبع سلوك وتفكير شخص ما بطابع خاص(١) .

أما الشـخصية فى لمفهـوم الأنثروبولوجـى فانهـا تتعـدى هذا المفهـوم الفـردى السيكلوجى الى مفهوم الشخصية الجماعية التى تحدد أنماط سلوك وأطر تقافة الجماعة ذاتهـا ، ولهـذا تقتـرب إلى حد كبـير من مفهـوم الثقافــة ممــا جعــل العــالمين « كلايدكلوكهوهن » ومـوارى H. Murray يبـديان قلقهما من تعبـير « الثقافـة والشخصية » الذى قد يوحى بأن هناك ثنائية أو تناقضا بينهما كالثنائية بين الروح والمادة أو الجسم والعقل مثلا ، ولهذا فمن الأفضل فى رأيهما أن نتحدث عن • الثقافة فى الشخصية Culture in Personality أو« الشخصية فى الثقافة Personality in Culture (٢)

ويفضــل بعض العلماء استخــدام مصطلــح « الانثروبولــوجيا النفسية Psychological Anthropology بدل « الثقافة والشخصية » على أساس أن الشخصية إنما تنمو وتتكامل من خلال تفاعلها مع الثقافة • وبهذا يمكن تجنب ذكر الثنائية بينهما(٣) .

ورغم هذا فان جمهور الأنثروبولوجيين يؤثرون الإبقاء على اصطلاح « الثقافـة والشـخصية » واستبعـاد الاصطلاحـات الأخـــرى ، ويرون فى الاتجــاه « السيكو أنثروبولوجى » الذى يربط بين الثقافة والشخصية ربطا عضويا وثيقا، اتجاها جديدا

(١) راجع معجم العلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق ص ٣٣٥ •

2. Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds). *Personality in Nature and Culture,* Alfred Knopf, N.Y., 1959, P. 44.

3. Hsu, F. (ed) *Psychological Anthropology.* Approaches to Culture and Personality, The Dossey Press, Inc., Homewood, 1951, P. 8.

يرجع الى نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن ، وبه استطاع الأنثروبولوجيون وعلماء النفس أن يكسروا الحاجز بينهما بحيث لم تعد تدرس الثقافة من خلال قوانين ومبادىء عامة تبعدها عن دراسة السلوك الانسانى بكل أعماقه وأبعاده ، أو دراسة الشخصية من زواياها الفردية بعيدة عما تطبع عليها الثقافة من بصمات بعيدة الغور ، ونتيجة لهذا الاتجاه الحديث لم يعد الأنثروبولوجيون يرون فى الثقافة مجرد حصيلة نشاط اجتماعى لايرتبط بالأشخاص من حيث هم كذلك ، أو أنها مجرد سمات أو مركبات ثقافية تنمو طبقا لقوانين خاصة بها بعيدا عن دراسة الأنماط السلوكية ، كما لم يعد علماء النفس يرون فى الشخصية مجرد تركيب معين من الدوافع والانفعالات والغرائز والمدركات بعيدا عن الثقافة بكل أبعادها وتشعب نظمها ، بل اتجه الباحثون إلى دراسة الثقافة على أنها أمر أكثر تعقيدا وأنها ترجع فى مضمونها إلى الصور المكتسبة من سلوك الانسان وأنماط تصرفاته المختلفة فى اتصالها بالبيئة ومحاولة التفاعل معها والتغلب على مشاكلها أو الرضوخ لطبيعتها وسيطرتها ، وعليه فليست الثقافة سوى أفكار وأعمال كما أسلفنا القول وأننا مهما حللنا الجانب المادى التكنولوجى فى الثقافة فلن يكون فى مضمونه إلا نتيجة أفكار يمتاز بها الانسان عن سائر المخلوقات الأخرى • وإذا حللنا النظم والعلاقات الثقافية مهما كانت أطرها وأبعادها وأنماطها سياسية أو قرابية أو عائلية أو قانونية فلن ترجع فى النهاية إلا إلى تصرفات إنسانية أتاح الله بها للانسان أن يحقق ثقافته •

ويرى « كلوكهوهن » أن فهم الشخصية لايمكن أن يتم إلا بدراسة الثقافة وفهمها على اعتبار أن الثقافة بعد من أبعاد الشخصية ، وإذا توصلنا إلى معرفة الثقافة وأنماطها وسماتها فاننا نحقق كسبا وتقدما هاما فى معرفة الشخصية وأبعادها •

ولدراسة طبيعة الشخصية ينبغى على الباحث تحديد المادة الثقافية لدراسة القيم والمنبهات والدوافع الاجتماعية سواء عن طريق المقابلة المقننة المضبوطة Controlled Interview أو الملاحظة الموجهة •

ويرى جورج سبندلر G. Spendler أنه لايمكن للباحث أن يفصل الشخصية العامة عن الثقافة حيث يعمل كل مجتمع على تدعيم أنماط معينة للشخصية • وبهذا

يمكن الربط بين النسق الاجتماعى Social System فى مجتمع ما والبناء السيكلوجى لهذا المجتمع بما يؤكد الترابط الوثيق بين الثقافة والشخصية ٠[١] وإلى نفس المعنى يشير « ابرام كاردنر » Kardner حين يتناول « بناء الشخصية الأساسية » Basic Personality ويشير إلى ذلك البناء على أنه « مجموعة الخصائص السكلوجية والسلوكية التى تظهر نتيجة الاتصال بالنظم الاجتماعية » وبهذا يظهر الترابط واضحا بين مكونات الشخصية والنظم الثقافية بحيث يتكون بناء الشخصية منها ولا يمكن بحال ما الفصل بينها ٠ فمثلا لايمكن أن نفصل بين الثقافة الاسلامية وشخصية الانسان المسلم ٠ وهو لن يكون مسلما إلا اذا أدى شعائر الاسلام الأساسية ، وقد اختلف الأنثروبولوجيون حول بداية دراستهم ٠ هل يبدأون بدراسة الفرد أم بدراسة الثقافة ٠

يرى « كاردنر » أن تحديد الباحث للبناء Structure والشخصية الأساسية لايتم إلا عن طريق دراسة الفرد أولا لفهم دوافعه ومدركاته وكل مكوناته النفسية بينما يرى « رالف لينتون » R. Linton أنه ينبغى أن نبدأ بدراسة الثقافة لا الفرد إذا أردنا تحديد بناء الشخصية ، وانطلاقا من هذا المفهوم يرى « لينتون » أنه لايلزم أن يتحقق البناء الأساسى للشخصية فى كل عضو من أعضاء الجماعة على حدة بل يكفى أن يتحقق مثل هذا البناء لدى غالبية الأفراد ، وبهذا تكتسب الثقافة شخصيتها وبناءها الأساسى من المجتمع ككل لامن الفرد كعضو بها، وعليه فان البناء الأساسى للشخصية يستمد من الثقافة الكلية لا من الغرائز والدوافع الأولية ٠[٢] ويسير فى نفس الاتجاه كارل مانهايم Manheim حين يتحدث عن البناء العام لنمو الشخصية

---

1. Spendler, G.D. Personality, Sóciocultural System and Education Among the Minomini. in *Education and Culture* — Anthropological Approach. Holt, Rinehart. W.Y. 1963, P. 351.

2. Pidding, R. ***An Introduction to Social Anthropology,*** Vol. II, Oliver and Boyd, London, 1957, P. 607.

على اعتبار أن الانسان حين يؤدى دوره فى المجتمع بوعى أو بغير وعى فان ذلك لايتم إلا من خلال البناء الثقافى العام وليس منفصلا عنه .

وحين يتحدث « مانهايم » عن البناء العام للشخصية فانه يقصد بذلك كل مايتعلق بالأساليب السلوكية والفكرية التلقائية والمكتسبة معا كالمعتقدات والشعائر والممارسات والمثاليات والفنون والآداب السائدة فى مجتمع ما ، ويضرب أمثلة متعددة لاختلاف الأنماط والأطر الثقافية بين المجتمعات المختلفة حيث تعتبر هذه الأنماط من أهم محددات الشخصية ومقوماتها ، فللمجتمعات التى يقال عنها أنها بدائية أنماط وأطر ثقافية خاصة كعبادة البقر التى تنتشر فى عديد من قبائل جنوب السودان وأواسط أفريقيا وما ينشأ عن ذلك مما يسميه الأنثروبولوجيون بمركب الماشية Cattle Complex [1] وما لذلك من أثر كبير فى تحديد نمط الشخصية العامة لتلك المجتمعات ، فاذا كان لحم الخنزير طعاما سائغا لدى المسيحيين لاينفرون منه فانه مما تنفر منه الشخصية الاسلامية وتعده من المحرمات ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وإذا كانت الفتاة فى قبائل « موريا » بوسط الهند أو فى قبائل « الشلك » بجنوب السودان يباح لها العلاقة الجنسية مع من تختاره قبل الزواج ، بل ان فتاة « موريا » تبقى مع صديقها ثلاث ليال فى أثناء طقوس معينة منها الرقص ثم تختار آخر وهكذا . فان مثل تلك الحرية الجنسية تعد جريمة فى معظم المجتمعات المتمدينة بل انها لاحدى الكبر فى المجتمعات الاسلامية يقام فيها حد الزنا ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [3] .

---

(١) يعد مركب الماشية أهم السمات المميزة لثقافة مجموع القبائل التى تسكن فى شرق أفريقيا (يوغنده وكينيا وتنجانيقا) وفى جنوب السودان وبعض مناطق افريقيا الوسطى حيث يؤلف اللبن عنصرا هاما فى غذائهم ، كما يعتمدون على الدم عن طريق قطع أحد شرايين عنق الماشية ثم وضع قطعة من الطين والروث مكان الجرح كما فى ثقافة الناندى NANDI فى كينيا ، ويتمتع اللبن والروث والعشب عندهم بدرجة عالية من القداسة ، وتحيط به كثير من الطقوس والشعائر اذ لا ينتزع العشب من الأرض حتى لايدنس الماشية التى تأكله وان كان لابد من نزعه قامت المرأة بذلك على أساس أنها مخلوق أقل طهارة من الرجل ، ومن الاثم ضرب الماشية بأعواد من العشب فذلك يعتبر اهدار الكرامة العشب معا ، كما أن اللبن مقدس عندهم ، راجع البناء الاجتماعى للدكتور احمد ابوزيد - الجزء الاول ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) المائدة الآية (٣)

(٣) النور الآية (٢) .

وتحدد « روث بندكت » R. Benedict الأنثروبولوجية الأمريكية نمطين مختلفين تمام الاختلاف لشخصية كل من شعب الزونى Zuni وشعب « البويبلو » اللـذين يسكنان « نيومكسيكو » حيث تصف شخصية « البويبلو » بأنها شخصية « أبولونية » تتسم بالاعتدال وتنفر من الرؤى الخيالية التى تتم من خلال ممارسات الصوم وتعذيب الذات ، وتميل هذه الشخصية إلى ممارسة شعائر دينية ، بل انها تنتمى إلى طائفة عقائدية يعمل الفرد على شراء عضويته بها ، ولهذا فان الشخصية العامة لشعب البويبلولا تشغل ذاتها بأى أسلوب متطرف مما يحيلها الى شخصية تتسم بالطابع الآلى ، وذلك بعكس شعب « الزونى » والذى يتسم بالنمط « الديونيسى » اذ يحاول تحطيم كافة الحدود والقيود التى تفرضها عليه حواسه الخمس ، فهو يسعى لتحقيق عواطفه واشباعها حتى الثمالة معتقدا أن طريق المغالاة والافراط هو الذى يقوده إلى مملكة الحكمة ٠

وهكذا تحقق الشخصية ذاتها فى الثقافة عن طريق نمط أساسى تدعوه بالنمط « الأبولونى » أو « الديونيسى[1] » ٠ وقد استطاع العلامة « كلايدكلوكهوهـن » أن يصل إلى بعض القضايا والتعميمات Configurations فى هذا المجال منها أن هناك بعض المحددات التى تبرز سمات الشخصية العامة لكل البشر كالقيم والدوافع الاجتماعية والبواعث الأساسية ، وتلك يمتاز بها الشخص فى كل زمان ومكان ولا يقتصر مفهومها على ثقافة عامة دون أخرى ٠ وفى نفس الوقت هناك محددات خاصة للشخصية يسميها « كلوكهوهن » بالسمات المشتركة Communal Traits وهى التى تميز الشخصية فى ثقافة معينة أو فى « منطقة ثقافية » خاصة ٠ وبهذا تعد هذه الخصائص خصائص نوعية وليست شاملة كلية كالخصائص السابقة ، أما التعميم الثالث فيراه « كلوكهوهن » فيما يسميه بمحددات الدور Role Determinants اذ وراء كل سلوك معين تقوم به الشخصية « دافع » يصدر عن القيم الاجتماعية ٠ فمثلا التزام المسلم بالصدق وشهادة الحق واحترام حقوق الغير انما يصدر عن القيم التى

1. Benedict, R. *Patterns of Culture,* Boston, Houghton, Mifflin, Com., 1937, PP. 78-79.

ينادى بها دينه وتفرضها الشريعة الاسلامية • وبهذا تلعب الدوافع والقيم الثقافية أدوارا تحدد لنا كيفية السلوك العام لشخصية الجماعة أو الزمرة موضوع الدراسة • ويشير كلوكهوهن فى تعمياته إلى أنه رغم تشابه البواعث والدوافع العامة والقيم الاجتماعية التى تحدد نمط الشخصية إلا أن أفراد المجتمع الواحد يختلفون فيما بينهم وتتمايز سمات شخصياتهم على أساس أن هناك مجموعة من السمات النوعية أو المحددات الفطرية Idiosyncratic Determinants وهى تلك التى تتصل بطبيعة كل شخصية وفطريتها ودوافعها وقدراتها ومميزاتها الخاصة بها ، سواء من الناحية الفيزيقية أو السيكلوجية • وهى تلك السمات التى ينشأ عنها مايسمى « بالفروق الفردية » موضوع دراسة علم النفس الفارق ، وبهذا يمكن القول بأنه إذا كان لكل منطقة ثقافية أو مجتمع شخصيته المعينة فكذلك لكل فرد فى المجتمع شخصيته بالتالى ، وتلعب الثقافة دورها الهام والأساسى فى كلتا الشخصيتين الجماعية والفردية معا بحيث يصعب دراسة الشخصية بعيدة عن تلك الثقافة بحال ما ، وينتهى كلوكهوهن فى تعميمه الأخير إلى أنه رغم اختلافات الشخصية الفردية داخل المجتمع الواحد إلا أن هناك « مشابهات » أو متماثلات Similarities بين أفراد مجتمعات تتباين ثقافتها ، ويعزو « كلوكهوهن » ذلك إلى تشابه السمات أو المحددات الفطرية وتجانس سمات البناء الأساسى للشخصية •[1]

ومع هذا فان الدوافع الأساسية والمحددات الفطرية ليست هى كل العوامل فى تحديد بناء الشخصية وإنما تتعدى ذلك الى المؤثرات الخاصة التى يتعرض لها الفرد خلال عملية النمو ، وبهذا يستجيب الفرد للمؤثرات البيئية المتعددة بأسلوبه الخاص الذى قد يختلف عن نفس السلوك فى بيئة مشابهة ، وبهذا تتحدد معالم الشخصية الأساسية[2] • فمثلا فى ثقافة جزر « الألور » فى أندونيسيا تحمل المرأ العبء الأكبر من النشاط الاقتصادى حيث تعمل طوال النهار فى الحقل لزراعة الخضروات دون

---

1. Kluckhohn, C. Cultural Personality in *Social Sciences* — American Anthropologist, Vol. 76, 1944.

(٢) قبارى محمد اسماعيل ـ الانثروبولوجيا العامة ـ منشأة المعارف ـ الاسكندرية ١٩٧١ص ٥١٥ •

اهتمام ما برعاية الأطفال الذين يهتم بهم كبار أشقائهم أو أقاربهم ، الأمر الذى يؤدى إلى ضعف الأنا Ego وتكوين الشخصية التى تصاب بالقلق والحيرة بل وضعف الضمير وسيادة الشك والريبة بين أفراد « الألور » ، وبينما يصاب سكان الملايو أحيانا بنوبة « حب القتل » والتعطش للدماء ، فان الشيزوفرانيا « مرض انفصام الشخصية » ينتشر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الطبقات الدنيا ، بينما تنتشر أمراض الكآبة والهياج بين الطبقات الارستقراطية ، وفى ثقافة « سومطرة » يصاب أفراد الشعب بما يسمى « بجنون الخنازير » وهو من الأمراض التى تؤدى إلى خلل فى الجهاز العصبى .

وتؤكد « روث بندكت » R. Benedict على أن لنمط الشخصية نفسه رد فعل عميق فى تركيبها . ولهذا يطرأ على الشخصية التغيير من خلال احتكاكها بالآخرين أو اثناء تكيف الفرد للثقافة المغايرة وقد تعانى الشخصية من اضطراب أو قلق حاد حين تخفق فى عملية التكيف الثقافى Cultural Adjustment وحين تظهر فى الثقافة بعض الانحرافات التى تؤدى إلى خلق شخصية غير سوية أولا يستطيع الفرد أن يتكيف مع كل سماتها فان الفرد يصبح فى هذه الثقافة «هامشيا» اى لايؤدى دوره الكامل فيها ، وقد يصاب بالأمراض النفسية الجسمية كما يشاهد لدى أفراد الطبقة الوسطى بالولايات المتحدة نتيجة مايعانيه هؤلاء مما يسمى « بالعدوان المكبوت » Repressed Aggression حيث تنتشر بينهم حالات من الكبت تؤدى بعضها إلى أمراض القرحة .

وقد لاحظ الأنثروبولوجيون أن اليابانى الذى يترك الجزر اليابانية ليعيش فى جزر « هاواى » قد يصاب بأمراض الكآبة وانحرافات الشخصية كرد فعل لتأثير سمات الثقافة الدخيلة على شخصية اليابانى الغريب عنها ، وقد تزول هذه الانحرافات عندما يعود اليابانى أدراجه إلى الجزر اليابانية ليعيش فيها متوافقا مع ثقافته الأصلية . ونفس الأمر يحدث لدى الزنوج الأمريكيين الذين يصابون بارتفاع ضغط الدم وهو من الأمور النادر حدوثها بين زنوج أفريقيا ماعدا زنوج روديسيا وافريقيا الجنوبية . ويرجع هذا بالدرجة الأولى إلى تأثير الثقافة على زنوج أمريكا وافريقيا الجنوبية حيث يعيش هؤلاء محاطين بثقافة عنصرية تجعل من الحاجز اللونى نمطا أساسيا فى المعاملات

والعلاقات الاجتماعية بين البيض والزنوج، الأمر الذى يؤدى إلى انتشار الأمراض والانحرافات السيكلوجية بين هؤلاء ، وبالتالى تؤدى شدة ضغط الثقافة البيضاء الى ارتفاع الدم بين أصحاب الثقافة الزنجية ، وحين تتعرض الثقافة للتغير فى بعض أنماطها فان ذلك يعكس أثره على الشخصية حين يحاول الأفراد التكيف لها فعندما طرأ التغير على ثقافة « التانالا » تغيرت أنماط العلاقات بين الأفراد ، وكذلك نظم الانتاج وتوزيع الملكية ، وتخلى الأفراد عن مبدأ الملكية الجماعية ، وظهرت نظم الملكية الفردية حيث اشتد التنافس على امتلاك الأراضى ، وأدخلت نظم جديدة لرى الأرز وهكذا .
كما يمكن القول بأن التغير الثقافى الذى حدث فى دول البترول بالشرق الأوسط كان له أثره فى الشخصية العربية الاسلامية فى هذه الدول من حيث الانتقال من النمط البدوى الى النمط الحضرى ، ودخول عادات جديدة لم تكن موجودة من قبل تتعلق بأنماط الاقتصاد والمواصلات والمبانى واستخدام الآلات والتكنولوجيا الحديثة بشتى أنواعها ، وان استمرت القيم الإسلامية العربية الأصيلة ثابتة ، الأمر الذى يؤكد مدى الاهتمام بالقيم الثقافية العريقة والحفاظ عليها ازاء المد الحضارى الذى تتعرض له الشعوب .

الشخصية الاسلامية والثقافة (١)

يرى العلماء المهتمون بدراسة الثقافة والشخصية أن هناك علاقة وثيقة بين التراث الاجتماعى الشامل الذى يتمثله الفرد ويتقبله وبين التجارب العديدة التى مر بها فى « اطار ثقافته » وأن هذا المزيج من الثقافة والتجارب الشخصية وحدة متماسكة لا انفصام لها بقدر مايتطلبه التفسير والتحليل ، واذا كانت الثقافة تؤثر فى الشخصية ، وتطبعها بطابعها ، فان الشخصية بدورها ذات تأثير على الثقافة ، وان اختلف هذا التأثير المتبادل باختلاف نوع الثقافة نفسها بمعنى أنه يبدو أثر الشخصية فى الثقافة واضحا فى المجتمعات المتطورة ، بينما العكس فى المجتمعات المتخلفة حيث يبدو أثر الثقافة على الشخصية واضحا ، وتعد الثقافة الاسلامية طرازا فريدا بين النمطين السابقين ، فهى ان تمثلت فى مبادىء وتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأساس للنظم الاسلامية برمتها ، إلا أن أثر الشخصية الاسلامية يبدو واضحا من

(١) هذه الدراسة جزء من بحثنا بعنوان « الثقافة والشخصية الاسلامية » المشار اليه سابقا .

خلال اجتهاد علماء المسلمين فالاجتهاد فى الشريعة الاسلامية وضرورة ممارسته واستمراره لكى تواجه الشريعة مايجد من قضايا ومشكلات ، ووجوب فتح باب الاجتهاد وقيام فئة من الأمة به أمر يوجبه كمال هذه الشريعة وخلودها ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، فلابد من الاجتهاد بضوابطه المعروفة فى أصول الفقه ، والركود الفكرى الذى أصاب المسلمين ، وجعل كثيرا من الفقهاء لايمارسون الاجتهاد لعدم قدرتهم عليه مظهر من مظاهر التخلف يجب على الأمة أن تبتعد عنه وأن تهىء فئة منها للاجتهاد[١] .

ولعل أهم ماتتأثر به الشخصية الاسلامية فى عقيدتها هو شمول هذه العقيدة وكمالها معا ، وهذا هو الذى جعل الاسلام العقيدة المثلى للانسان منفردا أو فى مجتمع من حيث كونه « عاملا لروحه أو عاملا لجسده » ، وناظرا إلى دنياه أو ناظرا إلى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه ، أو معطيا حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح أو لأنه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، رهينا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكنه هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .

ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو الميزة الخاصة فى العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تفيا بالجمع بين الشطرين على وفاق[٢] .

(١) عبدالله بن عبدالمحسن التركى ، مقدمة مجلة أضواء الشريعة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الثامن ، الرياض ، ١٣٩٧ هـ ص٥ .

(٢) عباس محمود العقاد ، الإسلام فى القرن العشرين حاضره ومستقبله ، دار الكاتب العربى ، بيروت ١٩٦٩ م ص ٢٧ ، ٢٨ .

ومع أن هذا الشمول الذى يمتاز به الاسلام لايدرك إلا من خلال حقائقه ، وعباداته المقارنة اختلافا واتفاقا مع الأديان الأخرى فى شعائرها وطقوسها التى يتلاقى عليها المؤمنون بها على اختلاف بيئاتهم إلا أنه يمكن ادراك العلاقة بين الشخصية والثقافة الاسلامية من خلال مايقوم به المسلم من أنماط سلوكية يفرضها الاسلام فى حياته اليومية وغير اليومية من خلال عباداته ومعاملاته المستقلة عن الصنم والوثن والهيكل ، فالأرض مسجده ، والقلب مركز صلته بالله تعالى ، وهو مع الله فى كل مكان ﴿ **وأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ والعقل مسخر للنظر فى ملكوت الله واكتشاف آفاق العلم ، وحين يباشر المسلم رموز ثقافته فى صلاته أو صيامه أو حجه فانما يقوم بتلك الشعائر بعيدا عن كل البعد عن أن يحصل من أحد ما على بركة أو نعمة يضفيها عليه ، أو غفران يمنحه اياه ، أو جنة يشتريها منه ، أو كرسى اعتراف يجلس اليه ليبوح بخطاياه أى لا واسطة بين الانسان وربه ﴿ **والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ وحين يذهب الحاج إلى الديار المقدسة فانما يفعل كما يذهب الألوف من اخوانه المؤمنين يؤدون شعائرهم جميعا على سنة المساواة ، وهو حين يؤديها فلأنها فرضت عليه ، وحين يستلم الحجر فانما يفعل لأن الرسول عليه الصلاة والسلام فعل ذلك ، وهو يتمثل ما أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين استلم الحجر وهو يقول « **والله انى أعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك** » ثم ان شعيرة الحج لاتفرض زيارة قبر الرسول فهى ليست من مناسكه وانما هى تحية من الحاج يؤديها غير ملتزم بها ، وتتضح الصورة أكثر حين تقرأ من القرآن الكريم قوله تعالى فى مكان الرسول عليه السلام من الدين ﴿ **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ .

وتتضح سمة الشخصية الاسلامية كذلك لا من حيث ماتقوم به من أعمال فحسب

وانما من خلال النوايا التى تدفع إلى هذه الأعمال ، ويرى شيخ الاسلام الامام أحمد بن تيميه أن العمل يشترط فيه شرطان ليكون مقبولا عند الله عز وجل أن يكون صالحا ، ولا يكون كذلك إلا ماكان موافقا لشرع الله الذى جاء به نبيه ورسوله ﷺ ، وأن يكون لا يراد به إلا الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾(1) قال ﷺ « **انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل أمرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه** » رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبهذا يمكن القول بأن أهم سمات الشخصية الاسلامية الاخلاص لله تعالى وذلك لأن المخلص لله ذاق من حلاوة وعبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره ، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له ، واخلاصه الدين كله لله (2) .

وقد أجريت بعض الدراسات الميدانية فى مجال الانثروبولوجيا النفسية لاظهار الاثر المتبادل بين الشخصية الاسلامية والثقافة ، ومن هذه الدراسات الميدانية التى قام بها « عاطف وصفى » يوضح فيها حالة معايشة واختلاط بين الثقافتين الاسلامية العربية من ناحية ، والمسيحية الامريكية من ناحية أخرى ، وهى الرسالة التى حصل بها على درجة الدكتوراه فى « الانثروبولوجيا الثقافية » من جامعة ولاية « متشجان » بعنوان « المجتمع المسلم فى حى ديربورن العربى ، دراسة فى الامتزاج الثقافى(3) ، وقد أجريت هذه الدراسة فى سنة ١٩٦٣ م .

---

(١) فصلت الآية (٦)

(٢)احمد بن تيميه ، رسالة العبودية ، مرجع سابق ص ٨١ .

3. Wasfi, A. ***Dearborn Arab, Moslem Community*** — A Study in Acculturation P.H.D. Diosbraton, Michigan S. University, U.S.A., 1967.

والاشارة هنا الى الترجمةالعربية التى ساقها الباحث ملخصا لرسالته بكتابه « الانثروبولوجيا الثقافية » دار المعارف ١٩٧٥م ص ١٨٣ ـ ٢٠٨ وتجدر الاشارة الى أن جامعة بيروت العربية قامت بنشر بعض أجزاء هذه الدراسة بعنوان « المجتمع اللبنانى الاسلامى فى الولايات المتحدة الامريكية » .

An Islamic Community in U.S.A., Arab Beirut University, Beirut, 1971.

ويرى الباحث أن دراسته تلك جديدة فى نوعها ، فقد كانت مثل تلك الدراسات تعالج فى محيط الثقافات غير المتطورة أو البدائية ، أما دراسته تلك فبين ثقافتين متطورتين هما العربية والأمريكية ، والتى حدث بينهما مايسمى بالامتزاج أو التمثل الثقافى لدى الجالية اللبنانية التى تدين بالاسلام والتى تعد من أصغر الجماعات التى هاجرت إلى الولايات المتحدة الامريكية والتى لم تكن تتعدى وقت اجراء الدراسة أربعة آلاف نسمة ، فى حين كان سكان الولايات المتحدة حينئذ ١٨٠ مائة وثمانين مليون نسمة ، كما أن الجالية اللبنانية المسلمة لم تكن تمثل إلا أقلية من المسلمين بأمريكا ومعظمهم من الهنود والباكستانيين والأتراك ، ويذكر الباحث أن الجماعة العربية المسلمة التى اختارها تمثل الرواد الأوائل من المهاجرين المسلمين إلى أمريكا اذ هاجرت والمجتمع الأمريكى لم يكن يعرف شيئا تقريبا عن الاسلام ، ولذا قوبلوا بمظاهر التعصب الدينى الذى اختفى تدريجيا ولم يكن يدخل فى اطار التعصب اللونى لأن معظم أعضاء الجالية اللبنانية من الجنس القوقازى والذى ينحدر بعضه من الفرع الاشقر الذى يتفق فى غالب سماته مع الأمريكيين ومعنى هذا أن الباحث كان أمام عينة مختارة ولا تتعدى نسبتها إلى المجتمع الأمريكى ١ : ٤٥٠٠٠ وتختلف عن المجتمع الأم فى العقيدة واللغة والمنافسة الاقتصادية وسيطرة الآلة التى وصفت الأمريكيين بأنهم « شعب الضغط على الزرار » هذا بالاضافة إلى مايفرضه القانون المدنى الأمريكى فى نظام الزواج بالزوجة الواحدة ، ومنع تعدد الزوجات حتى بالنسبة للمسلمين[(١)] ـ ويذكر الباحث أن هناك أسلوبين أخذ بهما مجتمع الدراسة فى حياته الثقافية بديربورن Dearborn الأمريكية أحدهما إجبارى لابد من اتباعه كاحترام قوانين ولاية « متشجان » Michigan التى تنتمى اليها مقاطعة ديربورن ومنها الحاق أطفالهم بالمدارس الامريكية لفترة أقلها عشر سنوات هى فترة التعليم الاجبارى يفرض خلالها على الاطفال استخدام اللغة الانجليزية دون سواها كما يفرض على الكبار استخدام

(١) من الغريب حقا أن القانون المدنى الامريكى مع أنه يحرم تعدد الزوجات أو بمعنى أدق الجمع بين الزوجتين حتى مع المسلمين بالولايات المتحدة الامريكية فانه يكاد لايقف سدا منيعا ولا حتى خفيفا تجاه الاتصالات غير الشرعية بين المتزوجين والمتزوجات وغيرهم مما نشأ عنه كثرة المواليد غير الشرعيين !!

الانجليزية كلغة حديثة مع الأمريكيين ولبس الملابس الأوروبية واستخدام الأثاث والآلات المنزلية الحديثة ، أما الاسلوب الاختيارى فقد وضح فى التغييرات الثقافية التى حدثت فى عديد من أنشطتهم وأنماط سلوكهم ومن أهمها اتساع الوظيفة الاساسية للمسجد الذى أقاموه وسط الحى اذ لم يعد قاصرا على الصلاة فحسب ، وانما أضيفت اليه وظائف اجتماعية جديدة – كانشاء مدرسة يوم الأحد – وهو يوم العطلة الدراسية – فى المسجد لتعليم اللغة العربية ومبادىء الدين الاسلامى لأطفال المغتربين وإقامة الحفلات الاجتماعية داخل المسجد ، كما ازدادت حالات الزواج المختلط بين أفراد مجتمع الدراسة والامريكيات رغم وجود الفتيات العربيات الأصل وان كان ذلك قليلا جدا فى الفترة الأولى من الاستقرار وهى من (١٩٢٠ – ١٩٤٥) ، ثم ازدياد حالات الزواج المختلط تلك فى الفترة التالية من (١٩٤٥ – ١٩٦٣ م) ، كما أظهرت نتائج الدراسة مدى تعلق مجتمع الدراسة بأهداب الدين الاسلامى وان ضعف التدين الى حد ما[١] كما اتضح أن هناك حالات زواج تمت بين الطائفة الشيعية والطائفة السنية وهذا يؤكد مدى التقاء الشخصية الاسلامية رغم اختلاف المذهب فى حالات التغرب أو الاستقرار بمجتمع مختلف العقيدة واللغة والاتجاه ، كما أبانت الدراسة عن حالات زواج تمت بين بعض مسلمات وشبان أمريكيين يعتنقون الاسلام قبل أو فى أثناء مراسم عقد القران ، واقامة جمعيات اختيارية تجمع الشيعة والسنيين معا وتوفق بينهم ، كما أثبتت الدراسة أن هناك مقاومة كبيرة ومعارضة مستمرة تجاه الأنماط الثقافية التى يحرمها الاسلام كالغناء والموسيقا فى المسجد ، وقد عارض ذلك كبار السن من المهاجرين الأوائل الذين أعلنوا أن الاسلام يحرم مثل هذا النمط ورد الفريق المؤيد بأن تلك هى الوسيلة الوحيدة لجمع الأموال اللازمة لصيانة المساجد وادارتها والا تعرضت للاغلاق[٢] . كما ظهرت المقاومة

(١) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٢) أرى ان الحال الان يختلف عما مضى بعد العناية بتلك المساجد وانشاء الرابطة الاسلامية التى تتعهد بيوت الله فى البلاد التى يكون المسلمون فيها أقلية . وجدير بالذكر أنه أثناء كتابة هذا البحث طالعتنا الانباء بأن الرابطة اعتمدت مبلغ عشرة ملايين دولار لبناء أربعة عشر مسجدا بالولايات المتحدة الامريكية للمسلمين .

والمعارضة الى حد القطيعة تجاه زواج المسلمة بالمسيحى الأمريكى أو المسيحى بصفة عامة ، وان أظهرت الدراسة أن تلك حالات قليلة جدا ، وذلك لأن الاسلام صريح فى تحريم ذلك الزواج ، كما أسارت الدراسة الى أن مثل تلك الزيجات تمت بدون موافقة عائلة الفتاة مما أدى إلى انقطاع الصلة تماما بينها وبين عائلتها ، وكان عليها أن تغادر الحى اللبنانى فى « ديربورن » وتسكن بعيدا وكان من نتائج الدراسة أن العناصر الثقافية التى يحرمها الاسلام لم يطبقها المغتربون اللبنانيون وانما أبناؤهم الذين ولدوا فى أمريكا وتشبعوا بالثقافة الامريكية .

وعلى أية حال فقد أوضحت الدراسة أنه رغم وجود تلك الجالية المسلمة فى خضم ثقافة مغايرة ، إلا أنها لازالت وستظل تحتفظ بجوهر الشخصية الاسلامية التى أضافت أنماطا ثقافية إسلامية بالمجتمع الجديد ، ولم تتشرب إلا الأنماط الثقافية الطارئة التى يبيحها الاسلام ، وأنكرت بشدة تلك الأنماط التى يحرمها الدين الاسلامى ويقاومها مع ندرتها .

وفى نفس هذا المجال من الدراسات الميدانية للانثروبولوجيا النفسية أو « الثقافة والشخصية » نشير إلى تلك الدراسة التى أجراها الانثروبولوجيان الامريكيان « كندى » و « فرنيا » بعنوان « مظاهر التكيف الأولية فى بيئة التهجير ، حياة جديدة للنوبيين المصريين »[1] .

وقد بدأت هذه الدراسة بعد أن تم تهجير حوالى خمسين ألف مواطن نوبى من قراهم الأصلية التى كانت تمتد على ضفتى النيل من أسوان جنوبا حتى الحدود المصرية السودانية ، وذلك بعد بناء السد العالى وغرق تلك القرى وتهجيرهم إلى قرى جديدة بنيت لهم فى شمال أسوان وبالقرب من مدينة كوم امبو ، واذا كانت الدراسة السابقة تتسم بالطابع الاتنوجرافى التحليلى الذى يهتم بجمع المادة وتحليلها فى المكان ،

---

1. Kennedy, J. and Fernea, R. ***Initial Adaptations to Resettlement*** — A New life for Egyptian Nubians, Current Anthropology, Vol. 7, No. 3, June 1966 PP. 349-357.

والاشارة هنا الى الترجمة العربية لهذا البحث بكتاب « الانثروبولوجيا الثقافية » مرجع سابق ص ٢٠٩ – ٢٥٤ .

فان هذه الدراسة تتسم بالطابع الاثنولوجى الذى يهتم بالتحليل والمقارنة عبر الزمان ، وبينما تهتم الدراسة الأولى بنمطين مختلفين من الثقافات ، ثقافة اللبنانيين المسلمين المغتربين ، وثقافة أهالى « ديربورن » الأمريكيين المسيحيين فان هذه الدراسة تعالج عملية التغيير الثقافى فى الشخصية النوبية قبل وبعد التهجير باعتباره المحور الأساسى لعملية التغيير ، واذا قام بالدراسة الأولى باحث عربى فى بيئة غير عربية ، فان هذه الدراسة قام بها باحثان غير عربيين فى بيئة عربية اسلامية ٠

لقد استعرض الانثروبولوجيان الامريكيان ردود الفعل الناشئة عن عملية التهجير بالنسبة للنوبيين الذين كانوا يعتقدون أن بلادهم القديمة أرض مباركة وأن الله حباها بأرض ومناخ لامثيل لهما على امتداد وادى النيل كله ، وأن قراهم التقليدية البعيدة عن تأثير العوامل الخارجية هى مثال الأمان والنظافة والهدوء حيث لامثيل لها ـ فى رأيهم ـ بأى مكان آخر فى مصر ، واذا كان هذا رأى كبار السن الذين يتمتعون بميزات اقتصادية معينة فى البيئة قبل التهجير كالمزارعين والتجار والموظفين الحكوميين وأصحاب المراكب ، فان الشباب كان على العكس سعيدا بالمساكن الجديدة المصنوعة من الاحجار والأسمنت مع توقعاته بدخول الكهرباء والمياه النقية قريبا فى كل مسكن بما يحقق طموحه وآماله فى حياة عصرية يتشوق إليها ٠

وقد لاحظ الباحثان أن من الأنماط الثقافية التى شملها التغيير احتفالات الاعياد الإسلامية فبعد أن كانت من أهم عوامل التماسك الاجتماعى فى القرى القديمة لما كانت تحتمه من زيارة جميع بيوت القرية للتهنئة بالعيد أصبحت الزيارة مقصورة على الأقارب فقط[١] وأصبح عامل الجيرة أقوى من عامل القرابة بالنسبة لتحمل أعباء الضيافة فى مناسبات « الموالد » وهى احتفالات سنوية ينظر إليها باهتمام كبير وذلك لوجود عدد كبير من أضرحة المشايخ والأولياء الصالحين فى القرى القديمة ، ورغم هجر تلك القرى إلا أن الاحتفال بتلك الموالد ظل قائما وإن شمل التغيير أسلوب هذه الاحتفالات ٠ اذا اتفقت القبائل فيما بينها على أن يحتفل بمولد شيخ أو ولى واحد كل عام بعد أن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ ٠

كانت الاحتفالات بثمانية موالد كل سنة ، كما شمل التغيير الثقافى اختفاء ظاهرة ظهور أرواح الشيوخ فى أحلام الناس ، كما شمل التغيير كذلك أنماطا ثقافية أخرى تتصل بالمسكن وأساليب الاتصال والتماسك الاجتماعى ونظام الاحتفالات ٠٠ الى غير ذلك مما لا محل هنا لتفصيله ، وعلى أية حال فان هذه الدراسة توضح مدى تأثر الشخصية النوبية بأنماط ثقافية تغاير الأنماط المتعارف عليها لدى تلك الشخصية فى بعض سماتها ، واذا كانت تلك الدراسة تتعرض للتغييرات الثقافية الناشئة من تهجير النوبيين بعامة ، فان هناك دراسة قيمة فى هذا المجال قام بها الانثروبولوجى حسين فهيم بعنوان « تغيير بعض الشعائر الدينية فى قرية نوبية مهاجرة »[١] ، وتمتاز هذه الدراسة « الأنثروثقافية » بأنها تختص بدراسة التغيير فى نمط ثقافى واحد هو الشعائر الدينية ، وبالتالى فهى تبرز أثر الثقافة الإسلامية فى الشخصية النوبية ، معتمدة كالدراستين السابقتين على منهج الملاحظة بالمعايشة فى الأبحاث الميدانية ، وهو المنهج الأساسى فى الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة ، وقد أجريت الدراسة بقرية نوبية اسلامية اختار لها الباحث إسما مستعارا وهو « كانوبا » وتقع فى الاتجاه الشمالى لاسوان حيث تبعد عنها بحوالى ثلاثين ميلا ، وتوضح الدراسة إلى أى مدى يمكن أن تتغير بعض أنواع الشعائر الدينية فى مجتمع إسلامى نتيجة الاحتكاك بثقافة مغايرة للثقافة الأصلية وان اتحدت الثقافتان فى الاطار العقائدى العام وهو الدين الاسلامى وذلك لأن مثل هذه التغييرات لاتحدث فى حالة العزلة وانما ترجع الى عملية التهجير التى تؤدى الى أنماط من التغيير ، وقد نشأت القرية « المتغيرة » فى عام ١٩٣٤ م عندما سكنها المؤسسون لها بعد أن غرقت قريتهم الأصلية بسبب التعلية الثانية لسد أسوان فى عام ١٩٣٣ م وتتحدث الدراسة عن عملية التغيير فى مدى ثلاثين عاما من ١٩٣٤ ـ ١٩٦٤ م وهو تاريخ اجراء الدراسة التى تتحدث عن اعتناق النوبيين للمسيحية فى منتصف القرن

---

1. Fahim, H., *Change in Religion in A Resettled Nubian Community*, Upper Egypt. Middle East Studies 7, London, 1973, PP. 163-177.

السادس الميلادى وظل بعضهم معتنقا لها حتى القرن الرابع عشر الميلادى حين أغارت جيوش المماليك على النوبة فاعتنق الجميع الاسلام ، ومنذ هذا التاريخ والنوبيون يتبعون المذهب المالكى من مذاهب الفقه عند أهل السنة ولايزال هؤلاء يذكرون فى مجال التعبير عن قوة اسلامهم واحتفاظهم بالشخصية الاسلامية المتماسكة قصة بعثة التبشير المسيحية التى وفدت الى النوبة فى القرن التاسع عشر بغية تحويل النوبيين الى مسيحيين ، واستمرت فى جهودها المضنية خمسين عاما ، ولكنها باءت بالفشل الذريع والذى يعد من أبرز دلائل قوة الشخصية الاسلامية اذ لم تستطع البعثة فى خلال النصف قرن أن تحول إلا شخصا واحدا الى المسيحية فى الوقت الذى كانت تملك فيه كافة المغريات المادية التى يمكن أن تزعزع بها عقيدة غير العقيدة الاسلامية ، ولما فشلت فى تحقيق هدفها التبشيرى اتجهت الى تقديم المعونات الطبية للنوبيين المسلمين ، ويذكر الرواة **Informants** أن البعثة نظرت للنوبيين المسلمين بكل إجلال وتقدير لشدة تمسكهم بدينهم واستحالة زحزحتهم عن عقيدتهم بهذه الصورة التى تفصح عن أصالة الشخصية الاسلامية واعتزازها بقيمها ودينها ٠

وقد تعرضت الدراسة لبيان أنماط التغيير التى حدثت فى هذه الفترة وتركزت حول ضرورة استبعاد العناصر الوثنية والبدع التى لا علاقة لها بالاسلام كزيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء والمشايخ ومعالجة الأمراض عن طريق الاحجبة وعن طريق الاطباء الشعبيين المحليين الذين يستخدمون الطقوس الروحية لعلاج الأمراض العصبية كاستخدام « الزار » لطرد الارواح الشريرة التى تحل فى جسم المريض اعتقادا أن هناك أرواحا وأنها هى سبب المرض ، وظلت القرية فى أول عهدها بالتهجير تتبع هذه الانساق من الشعائر حتى شهدت فى نهاية الأربعينات حركة إحيائية إسلامية تزعمها امام المسجد الرسمى للقرية والذى دعا الى استبعاد كافة المعتقدات والطقوس الشعبية غير الاسلامية على أساس أنها بدع لاتمت للإسلام بصلة ما وعلى أساس أن « **كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار** » واستمرت تلك الحركة السنية ينادى بها امام القرية ولكنها قوبلت أول الأمر بمقاومة عنيفة تزعمها زعيم مسيطر ينتمى الى احدى الطرق الصوفية التى تعارض الحركة السنية مدعيا أنه يتمتع

بقوة غيبية ، وبعد جدال وعراك بين الدعوتين انتصرت فى النهاية الحركة السنية خاصة بعد أن غادر الزعيم الصوفى القرية فى عام ١٩٦٠ م واستطاع الإمام السنى أن يقنع المعارضين بأهمية الدعوة إلى تطهير الشعائر الدينية من البدع والخرافات والعادات الشعبية غير الاسلامية ، ومع أن التغيير انتهى لصالح الحركة السنية إلا أنه ظلت هناك معارضة ولكنها ضئيلة ، وترجع الدراسة أسباب نجاح الحركة السنية الى عوامل ثلاثة أولها تعيين الداعى الى الحركة السنية فى وظيفة الامام الرسمى لمسجد القرية ، وهو المسئول الأول عن بث تعاليم الاسلام وتوجيه النشاط الدينى وهى منزلة رفيعة يحيطها الاهالى بالاجلال والتقدير ، ويتمثل العامل الثانى فى ضعف مركز الزعيم الصوفى المعارض اثر موت خليفته مما جعل المعارضة بدون زعيم قوى ، أما العامل الثالث فيتمثل فى اتفاق مبادىء الحركة السنية مع المحاولات الإصلاحية الاجتماعية التى يقوم بها الشباب بهدف استبعاد العادات التقليدية غير المتفقة مع الأسلوب العصرى كاللجوء الى الزار أو استخدام الاحجبة والرقى للتداوى وزيارة الاضرحة ، ومن أمثلة ذلك المحاولات العصرية تشجيع الأهالى للذهاب الى العيادات الطبية بالقرية بدلا من زيارة الاضرحة ، كما أظهرت الدراسة أن نجاح الحركة السنية وانتشار التعاليم الاسلامية الصحيحة ساعد عليه بجانب المسجد وكتاب القرية وسائل جديدة هى المدرسة العصرية ومجهودات المدرسين النوبيين ونادى القرية الذى يعد وينظم المحاضرات والندوات والمناقشات حول التعاليم الاسلامية الصحيحة ومقاومة البدع والخرافات البعيدة عن تعاليم الاسلام .

وتشير الدراسة إلى أنه من الطقوس التى استبعدت حلقات الذكر التى كانت تصاحب الاحتفالات الدينية قبل حدوث التغيير ، كما استحدث التغيير عادة اجتماع المصلين بعد صلاة الجمعة فى ملحق الجامع لتبادل الحديث ومناقشة أمور القرية وحل هذا النسق محل حلقة الذكر التى كانت تلى صلاة الجمعة فى القرية القديمة ، كما اختفت تماما احتفالات النيل وما كان يصحبها من خرافات ، ولما كان الاحتفال الشعبى بذكرى المولد النبى يمثل عيدا فى كل أنحاء مصر فقد استمر الاحتفال به فى مجتمع الدراسة ، وان حدثت به بعض التغييرات التى تتمثل فى تبسيط الاحتفالات وقلة

مايذبح من الحيوانات ، وتنتهى الدراسة الى تأكيد أن التغيير الذى حدث فى الأنماط الثقافية انما يتجه نحو تعاليم الاسلام الأصيلة والبعد عن الأنماط الثقافية الدخيلة عليه ، ويدعم هذا التغيير أهمية التعاليم الإسلامية الصحيحة فى رفع مستوى القرية ، كما اشارت الدراسة فى نتائجها الى دور الحركة السنية فى تطهير الشعائر الدينية النوبية من البدع بهدف تقريبها من التعاليم الاسلامية الصحيحة وتلك النتائج مشابهة للنتائج التى توصلت اليها الدراسات الميدانية فى بعض القرى الاسلامية الاخرى فى الشرق الاوسط والتى أكدت أن الدين الاسلامى لايزال القوة الاساسية بل أقوى النظم المؤثرة فى السلوك مهما حدث من تغييرات فى النظم الاجتماعية والثقافية الأخرى بسبب زيادة الاتصال بأساليب الحياة العصرية .

وبهذا نرى أن الدعوة الاسلامية فى حاجة ماسة إلى مثل تلك الدراسات الانثروبولوجية فى المجتمعات الاسلامية على اختلاف لغاتها ولهجاتها وكثافاتها وجالياتها لتتضح العوامل المؤثرة فى الثقافة والشخصية الإسلامية معا من منطلق علمى موضوعى يكون اساس العون الروحى والمادى لتدعيم تلك الشخصية فى ثقافتها الاسلامية ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾(١)

(١) الشورى الآية (١٥)

الفصل التاسع

الثقافة والفولكلور

- مفهوم الفولكلور ومواده .
- علم الفولكلور .
- العلاقة بين الفولكلور والانثروبولوجيا .
- الأسس الميدانية لدراسة الفولكلور .
- وسائل جمع المادة الفولكلورية .
- دليل العمل الميدانى لدراسة الفولكلور .

اختلف الأنثروبولوجيون وعلماء الفولكلور حول تحديد مفهوم الفولكلور والذى يرتبط فى أذهان الكثيرين بأنه قاصر على دراسة الأغانى الشعبية والموسيقى عند الفنانين الشعبيين فى مجتمع ما ، والواقع أن مفهوم الفولكلور أوسع من هذا بكثير ، فالفولكلور Folklore هو التراث الروحى للشعب خاصة التراث الشفاهى الذى ينتقل من السلف للخلف عن طريق التواتر لا عن طريق الآثار المسجلة المكتوبة ، كما أنه العلم الذى يدرس هذا التراث بكل أبعاده واتجاهاته دراسة علمية منهجية ، ولهذا

فهو ينقسم إلى قسمين :

أولا : مواد الفولكلور[1]

كان مفهوم الفولكلور فى القرن التاسع عشر كما عرفه (وليام جون تومز) W.J. Thomas هو « المعتقدات والأساطير والعادات التقليدية الشائعة بين عامة الناس « أو » آداب السلوك والعادات • وما يراعيه الناس ، والخرافات والأغانى الروائية والأمثال •••• الخ التى ترجع إلى العصور السابقة أى أنه جزء من الثقافة الشعبية بمفهومها الواسع والتى ترجع إلى التراث القديم فى مجتمع ما ، وقد أثار تعريف « تومز » هذا كثيرا من النقاش والجدل حوله من عديد من العلماء المعاصرين له أو الذين أتوا بعده • وترجع هذه التعريفات فى مجملها إلى أن الفولكلور يتمثل فى مخلفات الثقافة القديمة السابقة على حالة التحضر أو أنه هو نفس الرواسب الثقافية Cultural Survivals فى المجتمع المتحضر ، ولهذا يعرفه مش Mish بأنه « الكيان الكامل للمعتقدات والعادات والتقاليد الشعبية القديمة التى ترسبت حتى يومنا هذا بين العناصر الأقل تعلما فى المجتمعات المتحضرة » أو كما يعرفه بوتر Potter بأنه « الحفريات الحية التى ترفض أن تموت » ويقصد بوتر بالحفريات الحية هنا التراث الشعبى الثابت بجذوره العميقة فى وجدان الشعب بحيث أصبح من الصعب التخلى عنه أو الفكاك منه أو التنكر له وذلك بما له من أثر قوى فى الثقافة الشعبية التى تتوارث جيلا بعد جيل وبهذا لم يعد الفولكلور بهذا المعنى محصورا فى مجرد الآداب والسلوك والخرافات والأساطير كجزء من الثقافة الشعبية كما عرفه تومز وإنما يتسع مداه ليشمل البناء الكامل للرواسب الثقافية التى تخلفها الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة ، ويؤكد هذا تعريف ليموان Lemoine الذى يرى فى الفولكلور « كل ما يعرفه الشعب من خلال التراث أى تراث العصور الماضية » ويوضح « ادوار دبيرنت تايلور » الأنثروبولوجى البريطانى هذا التعريف بقوله « الفولكلور هو المواد التى تنتقل تقليديا من جيل إلى

---

(١) راجع مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور • مرجع سابق ص ص ٢٧٩ ـ ٢٩١ •

جيل دون إسناد يعتد به إلى مبدع أو مؤلف معين » ومن خلال هذا المفهوم يستبعد من مواد الفولكلور كل الآثار الفكرية أو الروحية التى انتقلت الى الشعب مسندة إلى مؤلفيها أو مبدعيها ٠

وعلى أية حال فمهما كان اختلاف علماء الفولكلور والأنثروبولوجيين فى تحديد مفهومه فانهم يتفقون على ما تشمله دراسة الفولكلور من تراث شعبى سواء كان ذلك فى أغانى الشعب أو أساطيرة Legends أو رقصاته التقليدية أو معتقداته الشعبية وحكاياته وخرافاته Myths وأمثاله أى أنه يتمثل فى التراث الذى لا يستند إلى أساس نظرى تجريدى أو علمى موضوعى ، وبهذا يستبعد من الفولكلور كافة الفلسفات والعلوم التجريبية المختلفة فى شعب ما ، وإن استند الفولكلور أساسا الى الميثولوجيا Mythology أى علم الخرافة الروائية والتى تتجلى فى الحكايات والقصص الشعبى والألغاز والأساطير والأغانى والتمثيليات والألعاب التى تنتقل عبر التواتر الشفهى لا عن طريق التسجيل الكتابى كما أسلفنا ٠

ثانيا : علم الفولكلور

هو العلم الذى يختص بدراسة الثقافة الشعبية المنقولة شفهيا أى العلم الذى يجمع ويدرس ويصنف و « يمنهج » مواد الفولكلور بطريقة علمية للوصول الى تفسير وتحليل علميين لحياة الشعوب وتراثها عبر العصور المختلفة ، ويرى « هولتكرانس » أستاذ علم الأديان المقارن بجامعة « استوكهولم » أن أول مَن أبدَع مصطلح « الفولكلور » هم العلماء الانجليز على الرغم من احتمال أن تكون الكلمة ترجمة للكلمة الألمانية « فولكسكنده » « فولكلور » منذ سنة ١٩٠٦ ورسخت وتدوولت بعد أن تأسست جمعية الفولكلور فى لندن منذ سنة ١٨٧٧ م ، وقد تعددت المدارس والاتجاهات الفولكلورية نتيجة اختلاف مفهوم « الفولكلور » نفسه وتنوع الأهداف والمناهج المستخدمة فى دراسته ، فقد كان الاتجاه القديم يتصور الفولكلور أقرب مايكون فى طبيعته ومناهج البحث فيه الى الأدب الشعبى وحده مما جعلهم يقصرون دراساتهم على جمع القصص الخرافية والأساطير فى شعوب عديدة ويحاولون ترتيبها وتصنيفها على أساس ما بينها من أوجه الشبه والاختلاف ويقفون عند هذا الحد دون أن يستطيعوا التعمق فى تفسير

وتحليل هذه البيانات التى جمعوها ، بعكس الاتجاه الجديد فى علم الفولكلور والذى يهتم بالدرجة الأولى بالربط بين الفولكلور والاثنولوجيا بخاصة ، وبسائر العلوم الانسانية والاجتماعية بصفة عامة(١)

العلاقة بين الفولكلور والأنثروبولوجيا

لقد أدى الاتجاه الحديث فى الفولكلور الى أن تنطلق دراساته إلى آفاق لم تطرقها بعد فى مجال التراث الشعبى ، فلم تعد مهمة دارس الفولكلور الاقتصار على مجرد تسجيل الأغانى والأمثال الشعبية والحكايات والفنون التقليدية والثقافة الشعبية وميادين العادات والتقاليد بل تعدى ذلك الى اخضاع تلك المواد للتفسير والتحليل الأنثروبولوجى تحليلا علميا موضوعيا ، الأمر الذى جعل دراسة عناصر التراث الشعبى والعلاقة بين الريف والحضر فى ضوء البعد الفولكلورى والتفاعل بين عناصر التراث الشعبى ووسائل الاتصال العام بل ودراسة دور العناصر الشعبية فى تنمية دول العالم الثالث، جعل كل هذا دراسة فى مجال الانثروبولوجيا الثقافية بالدرجة الأولى(٢) .

وقد ظلت العلاقة بين الفولكلور والاثنولوجيا علاقة وثيقة لدرجة يصعب معها وضع خط فاصل دقيق بين الميدانين لاسيا وأن علماء الفولكلور من الأوربيين وأمريكا الجنوبية بالذات اهتموا بدراسة التنظيم الاجتماعى والثقافة المادية ، وهى من الموضوعات التى تدخل فى اطار الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية والاثنولوجيا ، كما أن متاحف الفولكلور فى أمريكا الجنوبية تعد متاحف اثنولوجية لاهتمامها بالعادات والتقاليد الشعبية والثقافة المادية . هذا فى الوقت الذى يهتم فيه الاثنولوجيون من خلال

---

(١) راجع ماكتبه الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد فى مقدمته لقاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ـ المرجع السابق .

(٢) محمد الجوهرى . علم الفولكلور . دراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية « الطبعة الثانية » دار المعارف القاهرة ١٩٧٧م ص ٨ ومابعدها ، ويعد هذا المؤلف من أهم وأحدث الدراسات التى نشرت باللغة العربية فى ميدان علم الفولكلور كدراسة فى مجال الانثروبولوجيا الثقافية .

دراساتهم الحقلية بالأغانى والقصص والرقصات والممارسات السحرية وسائر الأنماط الثقافية السائدة فى مجتمع الدراسة وهى مواد فولكلورية • ـ أما الاثنولوجيون والانثروبولوجيون فى أمريكا الشمالية فقد ظلوا طوال سنوات طويلة يبذلون أقصى الجهد لتوطيد الدراسات الفولكلورية وتدعيمها عن طريق جمع ونشر الحكايات والأغانى وألوان الأدب الشفهى وبخاصة تلك المواد التى تتعلق بفولكلور الهنود الحمر بحيث أصبحت الدراسات المتعددة عندهم فى الفولكلور مسجلة بطريقة أفضل من تسجيل أى فولكلور آخر بالجماعات المتخلفة •[1]

وعلى أية حال فان مجال التعاون وثيق ومشترك بين دراسات الفولكلور والانثروبولوجيا من حيث اهتمام كل منهما بدراسة الخرافات والأساطير والحكايات والفن الشعبى والأدب الشفهى فى المجتمعات المتخلفة والمتقدمة معا • هذا بالاضافة الى دراسة الصناعات والحرف اليدوية ومراسم الأعياد والزواج والوفاة والحفلات الشعائرية فى المناسبات المختلفة لدرجة أن أصبح من الصعوبة ايجاد خط دقيق يمكن وضعه بين مجاليهما ، وان كان هناك ميل عام لترك هذه الموضوعات السالفة للانثروبولوجى لدراستها فى المجتمعات البدائية • ولكنه تحديد متعسف لأن الانثروبولوجيا المعاصرة أصبحت تطرق فى دراستها سائر المجتمعات بما فيها المجتمعات المتطورة • وان كان هناك اتفاق بين الانثروبولوجيين على تفضيل المجتمع المحدود فى الدراسة الحقلية ليمكن دراسته دراسة شاملة كلية •

ولقد كان علماء الانثروبولوجيا الأوائل فى القرن التاسع عشر يتناولون فى دراساتهم نفس مايقوم علماء الفولكلور بدراسته الآن ومن أهم هذه الدراسات ـ والتى كانت نظرية فى جوهرها ـ دراسة سيرجيمس فريزر **Sir James Frazer** الشهير فى كتابه « الغصن الذهبى » **The Golden Bough** حيث يضيف فريزر لعنوان كتابه « دراسة فى السحر والدين » وهو يقصد بالدين معتقدات المجتمع البدائى من

---

1. Thompson, S. *Advances in Folklore Studies* in Kroeber (ed.) — Anthropology Today. Chicago University Press, 1953, P. 587.

خلال أساطيره وفولكلوره ، وقد تحدث بافاضة فى كتابه هذا عن السحر « والطوطم » « والتابو » وأرواح الموتى وما اليها من خلال عرضه للأساطير العديدة ، كما يعتبر ما كتبه « تايلور » عن « الثقافة البدائية » Primitive Culture كتابا فى الفولكلور حيث يعالج مسائل العادات والقيم والتقاليد الشعبية والأساطير والميثولوجيا فى المجتمعات البدائية ·

الأسس الميدانية لدراسة الفولكلور

أصبح اختيار مجتمع الدراسة من أهم الأسس الميدانية فى دراسة كل من الأنثروبولوجيا والفولكلور · وإن كان الانثروبولوجيون يفضلون ـ كما أسلفنا ـ أن يكون نموذج الدراسة مجتمعا محدودا تسهل دراسته عن طريق المنهج الكلى الشامل Holistic method والذى يعتمد على أساس الملاحظة العلمية بمعايشة الباحث لمجتمع الدراسة ، وما يتطلبه ذلك من ملاحظة ومشاركة الأفراد ـ إن اقتضى الأمر ـ فى ممارسة عادة أو تقليد أو نمط ثقافى أو طراز فولكلورى معين ·

وعلى أية حال ينبغى أن ترتبط المادة التى يجمعها الباحث بنوع البحث نفسه ومستواه الأكاديمى ، ولهذا يختلف البحث من حيث كونه مقررا من مقررات الجامعة فى مرحلتها الأولى عن كونه موضوعا لرسالة جامعية عليا كالماجستير أو الدكتوراه وعما اذا كان جمع المادة الفولكلورية لباحث هاو يرغب فى فهم تراث شعبه على أساس علمى موضوعى · وأيا كانت درجة البحث ونوعيته فإن على الباحث بعد تحديده لمنطقة الدراسة أن يعد لبحثه إعدادا بيليوجرافيا يهيىء له قراءة كل مايتصل بمنطقة الدراسة بدءا بالبحوث والدراسات المنهجية المتصلة بالمنطقة إلى التقارير والنشرات المتصلة بالمجتمع فى أى من جوانبه التى تتصل بالفولكلور ·[1]

وعلى الباحث أن يحدد بوضوح بحثه على وجه التحديد · وكيف ينوى إنجازه

---

(١) محمد الجوهرى · مرجع سابق ص ٣٥٨ ·

والدراسات السابقة التى تتصل من قريب او من بعيد بالبحث موضوع دراسته ومتى تم انجازها والميزانية التقديرية لاتمام البحثومداه الزمنى ٠٠ وفى نفس الوقت فان على الباحث عند صياغة مشروع بحثه الاتصال بأساتذته المختصين وبزملائه ممن لهم خبرة فى منطقة البحث ، فان ذلك من شأنه أن يزيد الباحث خبرة فى موضوع بحثه واستنارته بالموضوع وبالتالى تحديد من يراهم يصلحون كمخبرين Informants أى مرشدين من أهل المنطقة ٠٠٠٠٠ الخ ٠

وسائل جمع المادة

ينهج علماء الفولكلور فى وسائل جمع البيانات نفس ماتنهجه الدراسات الأنثروبولوجية وذلك باتباع الخطوات المنهجية التالية ٠

أولا : الملاحظة

على الباحث مراعاة أن تكون ملاحظته عن طريق العيش فى مكان تتركز فيه أنشطة مجتمع الدراسة لاسيا تلك التى تدور حول بحثه الأساسى ، وعلى ألا تقتصر دراسته على مكان وزمان حدوث العادة فحسب بل ينبغى أن تمتد الملاحظة الى طبيعة حياة الأفراد القائمين بها ، فاذا تعلقت الملاحظة على سبيل المثال بالجانب الاقتصادى فى القرية ٠ فلا يكتفى بملاحظة قيام أهل القرية بأعمالهم خارج المنزل بل عليه ملاحظة مايدور من نشاط اقتصادى داخل المسكن وفى الطريق العام للقرية والحقول ٠٠٠ الخ ومن خلال زياراته يستطيع ملاحظة تفاصيل الحياة اليومية دون سؤال ما إلا ماغمض عليه فهمه ، ويمكن أن يدعم ملاحظته عن طريق اتباع نظام رتيب فى ملاحظة العادة كالسير فى شوارع مجتمع الدراسة فى أوقات معينة كأن يكون ذلك بعد الفجر مباشرة أو قبيل الغسق لملاحظة أفراد القرية عند خروجهم للعمل أو عودتهم منه ، وقد تنصب الملاحظة على ظواهر معينة كموكب الجنازة أو عمليات الحصاد أو طقوس الولادة أو عادات الختان ٠٠ الخ وقد يحصل على مايريد من معلومات من خلال زيارة بعض الأفراد له فى محل إقامته وان كان من الصعب القول بأن كل ذلك ميسر للباحث فالأمر يرجع فى النهاية إلى مدى لباقته وحسن تصرفه وثقة المجتمع به ٠

وعلى الباحث الحرص كل الحرص على تسجيل مذكرات يومية تتضمن ملاحظاته وان استحسن أن يكون التدوين عقب ملاحظة الظاهرة مباشرة ، وكقاعدة عامة فان على الباحث ألا يثق بذاكرته إطلاقا وأن يسجل على الفور كل مايرى ويسمع لاسيا تلك الأنماط السلوكية التى يتطلبها البحث ، وتعد الملاحظة أهم الأمور التى ينبغى البراعة فيها ٠

وهذا أمر يحتاج إلى الخبرة والمران الطويل والاجتهاد فى تدريب الذاكرة على الاحتفاظ بالتفاصيل ٠

وعلى الباحث أن يسترشد بدليل العمل الميدانى كموجه لعملية الملاحظة ، ويراعى أن تكون أسئلة الدليل شاملة بقدر الإمكان للأسئلة التى تحمل إجاباتها فهما تاما لأبعاد الثقافة وأنماطها وسماتها ٠

وليس من الأهمية الالتزام بحرفية « الدليل » فعلى الملاحظ أن يتصرف بكياسة ولباقة فى الحصول على المعلومات التى يريدها ، ولا بأس بأن يستخدم التصوير « الفوتوغرافى » كوسيلة من وسائل توثيق الملاحظة أو توضيح صورة الممارسة لنمط سلوكى معين خاصة إذا اتصل بعمل فنى شعبى كصنع الحلى أو الأزياء أو زخرفة المبانى ٠٠٠٠ الخ وعلى البحث أن يراعى قيم وتقاليد مجتمع الدراسة بالتصوير فيبتعد تماما عن تصوير كل ماينفر منه المجتمع أو لايرضى به أو يجد حرجا فيه أو تحريما له كبعض المواقع العسكرية التى لايباح التصوير فيها أو تصوير المرأة فى المجتمعات المحافظة ٠٠٠٠ الخ ٠ وكل هذا يقف عليه الباحث من خلال دراسته الاستطلاعية لمجتمع الدراسة وقوفا على عادته وقيمه وتقاليده قبل بداية البحث المنهجى ٠

ثانيا : المقابلة

تتم المقابلة بين الباحث والاخبارى أو الراوى Informant أى المرشد والذى يختاره الباحث من بين أفراد مجتمع الدراسة ، واذا رأى بعض الانثروبولوجيين ضرورة

أن يكون الإخبارى على قدر ما من التعليم محيطا بتاريخ المجتمع مدركا لثقافته وابعادها فان البعض الآخر يؤثرون أن يكون أميا حتى يجيب عن كافة ما يلقى اليه من أسئلة دون أن يتدخل فيها بالحذف أو الاضافة ، ويتوقف جمع المادة المطلوبة على براعة الباحث وقدرته على إثارة الأسئلة المطلوبة فى الوقت المناسب وتدوينها ، ومهما كانت أسئلة دليل العمل الميدانى دقيقة فان على الباحث ألا يثيرها بنصها وإنما يتصرف فيها حسب الموقف ، وقد تكون الأسئلة غير المباشرة والتى تدور حول الموضوع سبيلا هاما يتيح للباحث الحصول على مايريده من معلومات كأن يلجأ الى تصوير موقف ما يتصل بمشكلة يراد السؤال عنها ثم يترك الاخبارى للتعليق عليها من واقع ما يحدث فى مجتمع الدراسة •

ويمكن للباحث حمل الإخبارى على الكلام بالتفصيل فى موضوع معين معلقا على بعض الأحداث التى تتكرر فى مجتمع الدراسة ، وذلك للوقوف على وجهة نظره هو والتى ينبغى أن يدونها فى الحال ، ويعد كل من فورشون Fortune ومارجريت ميد M. Mend من رواد هذا الأسلوب فى الدراسات الانثروبولوجية ، وهى طريقة ذات أهمية كبيرة فى معظم الأحوال عند جمع مواد الفولكلور والدراسات الميدانية فى الانثروبولوجيا الثقافية •

ثالثا : دليل العمل الميدانى

وهو عبارة عن مجموعة من الأسئلة والاستفسارات المتعددة التى ينبغى على الباحث أن يحصل على الاجابة عنها من خلال دراسته الميدانية حيث تشتمل على تغطية معظم - ان لم يكن كل - السمات والمركبات الثقافية والملامح الفولكلورية الخاصة بمجتمع الدراسة سواء كان مجتمعا بدائيا أو قرويا أومتحضرا ، ومن هذا المنطلق يعد « الدليل » محاولة لضبط الملاحظة الأنثروبولوجية والفولكلورية ملاحظة دقيقة لايتاح للباحث أن يصل اليها باجتهاده الشخصى •

وتختلف الآراء وتتعدد وجهات النظر فيا ينبغى أن يشتمل عليه دليل العمل الميدانى والأسس التى يقوم عليها ولكن لسنا بصدد عرض هذه الآراء وتفصيلها

ومناقشتها ، وحسبنا أن نشير الى أن أهم ما يشتمل عليه دليل العمل الميدانى هو مجموعة من الأسئلة تفتح الموضوع فى ذهن الباحث ، وهى ليست ملزمة بنصها أو هى جامعة مانعة ، فله أن يضيف العديد من النقاط التى يرى إضافتها ولم يرد ذكرها فى الدليل أو حذف البعض منها اذا رأى أنه غير مناسب طرحه بصراحة فى مجتمع الدراسة ، ومحاولة الوصول الى الاجابة بطريق غير مباشر ٠

وعلى أية حال فان الدليل يحتوى عادة على أقسام متعددة أهمها ٠ (١)

القسم الأول : الميلاد ويدور حول موضوعات

(أ) الحمل (العقم ـ الوحم ـ احتياطيات وتجهيزات الحمل)

(ب) الوضع

(ج) الوليد (العناية به وبالأم ـ جنس الوليد وموقف الأسرة منه ـ اعلان الميلاد ـ الرضاعة وأنواعها) ٠

(د) السبوع والتسمية وما يدور حولها من حفلات وطقوس ٠

(ج) تنشئة الطفل (الرعاية الطبية والسحرية والخوف من العين أو الحسد ـ ملابسه ـ تدريبه على القدرات المختلفة كالمشى ـ موقف الأهل حول تسنينه وفطامه ـ كيف يفسر الطفل العالم المحيط به ٠ أغانى الأطفال وألعابهم وموضوعات أخرى) ٠

القسم الثانى : الزواج ـ ويدور حول الموضوعات التالية :

(أ) الخطوبة (الوسيط فى الزواج ـ مراحل الخطوبة ـ حفل الخطوبة ـ دليل الخطوبة ـ العلاقة بين الخطيب والخطيبة ٠ الهدايا التى تقدم ـ مدة الخطوبة) ٠

(ب) الشبكة ٠

(ج) الزفاف (المهر ـ جهاز العروسة ، نوعه ، المشاركة فى الجهاز ٠ عقد القران ومراسمه ٠ موعده ٠ حفل الزفاف) ٠

---

(١) راجع : محمد الجوهرى وآخرون « الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية » مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة ١٩٧٠ ٠

(د) بيت الزوجية • وأين يكون • اعداده •

(د) سن الزواج (الزواج المبكر ، والزواج المتأخر وأسباب كل)

(د) نوعية الزواج ـ (زواج الأقارب ـ غير الأقارب) •

(هـ) الرجل والمرأة بعد الزواج •

(و) موضوعات أخرى •

القسم الثالث : الوفاة ويدور حول الموضوعات التالية :

(أ) المظاهر التى تنبىء بوقوع الموت •

(ب) سلوك المحيطين بالمريض بمرض الموت قبل وبعد الموت •

(ج) اعلان الوفاة •

(د) استقبال الأهل والمحيطين بالميت لنبأ الوفاة •

(هـ) التجهيز والغسل والشخص القائم بالغسل وعملية الغسل نفسها ومتخلفات الغسل •

(و) الكفن والنعش والدفن والجنازة والمراسم والشعائر التى تدور حولها •

(ز) صلاة الجنازة مكانها ـ جماعة المصلين • وقتها •

(ح) القبر والدفن والمشيعون •

(ط) الحداد ـ قيوده ـ مناسبات زيارة القبور ـ مناسبات تقبل العزاء •

(ى) موضوعات أخرى •

الفصل العاشر

المدخل الانثروبولوجي الثقافي لدراسة التربية (١)

- العموميات والخصوصيات والبدائل الثقافية وتطبيقاتها التربوية .
- المدرسة والمجتمع البدائي .
- أسس العلاقة بين التربية والثقافة .
- التكامل الثقافي والنظرية التربوية .

لمعالجة هذا المدخل نرى أن نتناول بالدراسة أولا محتوى الثقافة من حيث عمومياتها وخصائصها وبدائلها .

ويقصد بالعموميات Universals :

المكونات الثقافية أو العناصر التي يشترك في ممارستها كل أفراد المجتمع الناضجين ، وتلك تشمل السلوك العام واللغة والمنازل ، كما تشمل الأنماط الاساسية

(١) هذاالفصل مقتبس من كتابنا « انثروبولوجيا التربية » مرجع سابق ص ٨٠ ، ومابعدها

2. Smith, B.O. and Others. *Fundamental of Corriculum Development World Book,* Co. N.Y. 1957, PP 5-7.

للعلاقات الاجتماعية وطبيعة الولاء والاحترام والتوقعات السلوكية المتبادلة بين أفراد المجتمع أى الأسس التى تميز ثقافة ما عن أخرى ، وتؤدى مثل تلك العموميات الثقافية إلى إيجاد اهتمامات مشتركة بين الأفراد وهذا بدوره يعمل على تماسك الجماعات ووحدة هدفها واكسابها شعور الانتماء والتضامن وبالتالى تجنيبها الصراع والتمزيق ٠

واذا كان الانثروبولوجيون يركزون على إبراز تلك العموميات الثقافية فى اطار بحوثهم الحقلية فان التربويين يضعون تلك العموميات موضع الاعتبار عند وضع المناهج المدرسية فهى أساس إكساب الناشئين قيم وأنماط واتجاهات المجتمع ولا سيما فى المراحل التعليمية الأولى ، وهى المراحل التى تنقل للتلاميذ هذا القدر المشترك من العموميات الثقافية ، والذى يتضمن المستويات والمعارف المختلفة التى تبصر الناشئين بأن يميزوا الصحيح من الخطأ والخير من الشر والجميل من القبيح ، كما تعينهم على دراسة مجتمعهم من حيث اللغة والتاريخ والجغرافيا والفنون والعلوم التى تفسر ظواهر الطبيعة ٠

ولا يعنى هذا أن المدرسة هى وحدها النظام المنوط به اكساب الناشئين كل تلك العموميات فهناك من العموميات مايكتسبه الافراد عن طريق التفاعل الاجتماعى[1] Social Interaction فى إطار عملية التنشئة الاجتماعية والتثقيفية خارج المدرسة ٠

ولما كان لهذا القدر المشترك من عموميات الثقافة أثره فى وحدة الأفراد وتماسكهم فى إطار البناء الاجتماعى ككل فان التعليم فى مراحله الأولى أصبح مجانيا بل وإلزاميا فى كثير من الدول ولا سيما النامية منها والتى تسعى لمحو الأمية كلية كمنطلق أساسى للتغيير الاجتماعى ، وبهذا يتمكن النشء عامة من الالتقاء والتفاعل فى اطار نسق تعليمى مشترك يشعر كلا منهم بالانتماء للبناء الاجتماعى الشامل ٠

أما الخصوصيات الثقافية Cultural Specialists

فيراد بها العناصر الثقافية التى يشترك فيها مجموعة معينة من أفراد المجتمع بحيث

---

1. William, O. Stanley and Others. Social Foundations Education Inc. N.Y. 1956 P. 38.

تتميز بها وتختص جماعات دون غيرها ، وتنقسم هذه الخصوصيات إلى : ـ

(١) **خصوصيات مهنية** : وتلك تستلزم مهارات وخبرات معينة واصطلاحات سلوكية خاصة ، وهى عناصر مفتوحة غالبا لكل أفراد المجتمع وذلك كمهنة المحاماة والطب والزراعة والصناعة والتعليم ٠٠ الخ ، والمجتمع يتيح لأفراده حرية الحركة والتنقل فى السلم المهنى دون أية حواجز طالما تنتشر فيه المساواة كتلك التى يقررها الدين الاسلامى حيث لايجعل هناك فضلا لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ، وهذه الخصوصيات المهنية تنمو وتزداد بازدياد التقدم التكنولوجى فى المجتمع والذى يتيح فرصا أدق لازدياد العمالة من ناحية وانتشار التخصص وتقسيم العمل من ناحية أخرى ، بينما تتضاءل تلك الخصوصيات بل وتكاد تختفى فى المجتمعات البدائية والتى لاينتشر فيها التخصص الا فيما يتعلق بالعمر والجنس كما سبق أن أشرنا ٠

(٢) **خصوصيات طبقية** : وينقسم المجتمع بموجبها إلى طبقات ٠ قال تعالى ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[١] ، ولكل من تلك الطبقات قيمها واتجاهاتها ومعاييرها ،وبمقدار سيادة مبدأ تكافؤ الفرص فى مجتمع مايكون التحرك دخولا وخروجا من هذه الطبقات بمعنى اتاحة المجتمع للفقير أن يصبح غنيا من خلال جهده وعمله وصبره ومثابرته بصدق وأمانة وهكذا ٠

وأهم مايميز الخصوصيات الثقافية بنوعيها انها لاتحمل قدرا مشتركا من المعرفة الواحدة بين كل أفراد المجتمع فالناس إذا عرفوا الطبيعة العامة لعمل الطبيب والمهندس الا أنهم لايعرفون دقائق المهنة فهذا متروك لكل من الطبيب والمهندس ، وهذا هو مايسمى « بسر المهنة » ٠

والتربية فى مجتمع طبقى تضع فى اعتبارها هذه الخصوصيات الى حد كبير بحيث تتنوع المدارس بتنوع المهن من ناحية كالمدارس الزراعية والصناعية والتجارية والنسوية ٠٠ الخ ، وتتنوع بتنوع الطبقات من ناحية أخرى ، ولكن رغم هذه الخصوصيات الثقافية فان سائر أفراد المجتمع يندرجون تحت عموميات ثقافية متجانسة تعبر عن وحدة وتماسك المجتمع ٠

(١) الأنعام الآية (١٦٥)

أما البدائل الثقافية Cultural Alternatives :

فانها تتميز عن كل من العموميات والخصوصيات معا بمعنى أنها ليست عامة بين كل أفراد المجتمع كما أنها لاتخص أفرادا معينين أو طبقات خاصة وانما هى عناصر طارئة تجرب للمرة الأولى فى المجتمع وهى « تمثل استجابات مختلفة لمواقف متشابهة ، أو وسائل مختلفة لتحقيق أهداف متشابهة »[١] ، اذ قد تظهر سمات ثقافية جديدة تظهر فى المجتمع لأول مرة وتكون غريبة عليه بعيدة عن تقاليده وقيمه كظاهرة « الهيبز » التى تنتشر بين الشباب الغربى ، ويميل بعض شبابنا العربى المسلم إلى تقاليدها وهى غريبة عنه تماما وعن قيمه ودينه لأن فيها تشبها بالنساء وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك ، ولهذا فان مثل هذه البدائل تواجه بالقلق والاضطراب من بقية أفراد المجتمع وتعد فى محيط الثقافة الكلية « نشازا » يجتهد المجتمع فى أن يقضى عليه وقد تكون هذه البدائل من الأمور السليمة كأن يظهر لدى الشباب والمراهقين فى المجتمعات النامية ميل إلى الاستقلال بأنفسهم دون الاعتماد على الأسرة حتى وقت متأخر، ومثل تلك البدائل لايرفضها المجتمع مما يجعلها تتحول الى خصوصيات أو عموميات على المدى البعيد . وتنشأ تلك البدائل نتيجة تغير ثقافى أو اقتباس من ثقافة أخرى أو نتيجة احتكاك أو غزو ثقافى أو إشعاع من ثقافة متطورة إلى أخرى أقل تطورا منها كما يحدث فى قبائل جنوب السودان حيث بدأت مجتمعاتها القبلية تقلد ثقافة الشمال من حيث الملبس والعادات والتقاليد والقيم ، كما بدأت سمات الثقافة الشمالية تغزو الثقافة الجنوبية حتى تحولت الى خصوصيات يمارسها المتعلمون من الجنوبيين لاسيما الذين هاجروا من القرى للمدن واستوطنوها .

ويتوقف التغير الثقافى Cultural Change على ازدياد أو قلة عدد المتغيرات أو البدائل الثقافية بمعنى انه كلما ازدادت تلك المتغيرات ازدادت أنماط التغيير الثقافى والعكس صحيح ، وان كانت المتغيرات المتصلة بالجوانب المادية الثقافية يسهل تقبلها

---

(١) منير المرسى سرحان : فى اجتماعيات التربية ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣م ص ١٤٥ .

بعكس المتغيرات التى تتصل بالجوانب اللامادية فكرية كانت أم روحية فتلك تقابل بحذر وتستوعب ببطء وتتقبل عن طريق الاقتناع الذى لايتم الا بعد جهد اعلامى شاق .

ويتمثل دور التربية الرسمية Formal Education ازاء التغيرات الثقافية فى العمل على استقرار تلك المتغيرات أو القضاء عليها طبقا لمدى كفاءة وظيفتها وانسجامها مع النمط الثقافى السائد أو المرغوب فيه .

ومن خلال هذا العرض لعناصر المضمون الثقافى يتضح دور المدرسة كمؤسسة متخصصة فى انتقائها للخبرات الصحيحة والقيم المرغوبة فى الثقافة العامة ، كما يبدو دورها فى الابقاء على الأفضل من المتغيرات أو البدائل الثقافية حتى تحقق دعما فى الخبرة ينهض بالبناء والثقافة معا ويقلل بالتالى من حدة الصراع الاجتماعى . وبهذا تصبح المدارس كما يرى شبمان Shipman كأية تنظيمات أخرى تتميز بمناخها العام الذى يعالج النمط الكلى للحياة Total Pattern of Life من خلال الثقافة السائدة .(١)

ويرى « شبمان » أن اختلاف الثقافات يؤدى إلى اختلاف اساليب الحياة بمعنى أن لكل ثقافة أنماطها الخاصة بها ، والثقافة هى التى تحدد العلاقة بين الأفراد بالنسبة لمواقفهم فى مكان وزمان معينين .

المدرسة والمجتمع البدائى

يرى الانثروبولوجى التربوى ستانلى ديامدند Stanley Diamond أن الانثروبولوجيين أهملوا إلى عهد قريب معالجة المدرسة النظامية Formal Schooling فى المجتمعات البدائية والتقليدية إذ أن المدرسة فى تلك المجتمعات لاتعتبر اكثر من مظهر للتطفل الاستعمارى Colonial Intrusion ثم أنها نظام غير تقليدى فى مجتمع تقليدى مما يجعلها نظاما دخيلا على تلك المجتمعات ، وبهذا يقابلها

1. Shipman, M.D. *The Sociology of the School.* Longman Group, London, 1971, P. 25

البدائيون بحذر وتحفظ شديدين ، ويلاحظ أن المستعمرين فرضوا لغة بلادهم الأساسية كلغة أولى للتعليم فى تلك المدارس ، فمثلا حرص الاستعمار البريطانى فى مدارس الارساليات التى أقامها فى حنوب السودان على أن يكون المنهاج المدرسى فى تلك المدارس خاليا من الدراسات الافريقية والأدب والانسانيات وركز على أن تكون تلك المدارس بؤرة للتبشير المسيحى المفروض على هؤلاء ، ويقول « دياموند » باختصار كانت المدرسة فى المجتمع البدائى أداة خاضعة للمبشرين ، واتحاد التجار والاداريين والضباط مما جعلها بالنسبة للبدائيين نسقا ينظرون اليه بتحفظ ، خاصة وان هؤلاء البدائيين أبعد مايكونون عن تقبل الدين المسيحى الذى لا تربطهم به صلة ما ولا بمن يعتنقونه من المستعمرين الذين فرضوا عليهم اعتناق هذا الدين ، وهم أقرب مايكونون فى المجتمعات الإفريقية —لاسيما فى السودان مثلا — إلى الشماليين المسلمين الذين تربطهم بهم أواصر قربى وثيقة ، أواصر الثقافة والبناء الاجتماعى والسياسى الواحد ، ولهذا فان عديدا من هؤلاء البدائيين قد اعتنقوا الاسلام ودخلوا فى دين الله افواجا والتحموا باخوانهم فى الشمال اخوة فى العقيدة والوطن والثقافة ·

ولا يختلف النسق التعليمى لدى الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية سواء لدى السود Blacks أو الهنود Indians عن النسق التعليمى فى المستعمرات البريطانية ، وان كانت المدرسة لدى زنوج امبركا أكثر تطورا منها فى الشعوب البدائية الخاضعة للاستعمار الأوربى ، ومع هذا فان الباحث الانثروبولوجى يلاحظ تناقضا صارخا بين مدارس الزنوج ومدارس البيض فى الولايات المتحدة ، فبينما لاتحظى المدرسة فى مجتمع الزنوج بالعدد الكافى من المعلمين أو الأدوات اللازمة أو حتى نظرة التقدير للمؤسسة الثقافية فإنها على العكس فى مجتمع البيض والتى يتاح لها كل الامكانات التربوية بالاضافة إلى ما تتمتع به من نظرة تقدير خاصة ، وإذا كان الزنوج فى امريكا أمريكيين بحكم جنسيتهم إلا أنهم ـ كما يصفهم « ديامدند » امريكيون محرومون ·

وعلى أية حال فان النسق التعليمى لدى زنوج الولايات المتحدة يختلف عنه لدى الشعوب البدائية الخاضعة للاستعمار الأوربى بعامة ، فبينما يندر وجود المدرسة فى الشعوب البدائية فانها أكثر انتشارا بين الزنوج الأمريكيين ، وبينما تغفل المناهج

الدراسية فى المجتمعات البدائية أنواعا من المعارف والآداب التى تتصل بالحقوق الانسانية كما أشرنا ، فان مثل تلك التفرقة المنهاجية لاتوجد فى مدارس الزنوج الأمريكيين والذين يضمهم مع البيض مجتمع واحد غير منفصل فى حدوده ، وان كان منفصلا بقيوده ، وإذا كانت مشكلة المدرسة فى المجتمعات البدائية تتركز فى خوف البدائيين منها كأداة لتغيير الثقافة البدائية ، فان مشكلتها لدى الزنوج الامريكيين يكمن فى التفرقة الصارخة القائمة على التمييز العنصرى والتى تتضح فى النظم الاجتماعية المختلفة الأمر الذى ينشأ عنه الصراع الاجتماعى فى أعمق صوره • ـ واذا كانت العملية التربوية فى المجتمعات البدائية عملية تنشئة بمعناها الواسع من حيث هى تدريب على المهارات والمواقف المتعددة فى النظم المختلفة والتى تتكون منها شبكة العلاقات الشخصية فى نسق قرابى معين فإنها بهذا المفهوم تصبح عملية استمرار الحياة نفسها ، أى لايوجد انفصال مابين التربية والحياة الاجتماعية فى المجتمع البدائى وإن كانت المدرسة لدى الزنوج الأمريكيين تعتمد على البناء التدرجى Hierarchically Structured وتهدف أساسا إلى الاعداد للحياة فى مجتمع متطور •

ومن الأهمية أن نشير إلى أن المنهاج المدرسى فى ثقافة ما حين يدرس ويستوعب فانه يصبح بعد تمثله جزءا من الثقافة الاصلية ،[1] ولا يلزم ان تنتقل العناصر الثقافية عن طريق عملية الانتقال الثقافى Cultural Transmission ولكن يمكن أن تنتقل طبقا لعملية التغير الثقافى Cultural Change • فالمنهاج المدرسى بقبيلة الشلك يشتمل على أنماط ثقافية ومعارف متنوعة هى نفس الأنماط والمعارف فى المدرسة بشمال السودان ، وحين يستوعب الجنوبيون الأنماط الثقافية الجديدة من خلال العملية التعليمية فانها ستنتقل إلى أبنائهم بعد من خلال نسق تربوى مغاير للنسق التربوى الذى مارسوه فى نشأتهم ويفسر لنا هذا مايلاحظ من فرق بين تنشئة أبناء المتعلمين من الجنوبيين فى المدن وأبناء الأميين منهم فى القرى ، والفرق هنا فرق الأثر الذى أدى إليه النسق التعليمى من جهة ، والاندماج فى ثقافة الشماليين من جهة أخرى •

---

1. More Clyde B. and William D. Cole. *Sociology in Educational Practice.* Greenwood Press, N.Y., 1952, P. 330.

أسس العلاقة بين التربية والثقافة

لعل أهم مايلاحظ فى العملية التعليمية أن المتعلم فى كلتا الثقافتين البدائية والمتطورة يتأثر لا شعوريا بالانساق والنظم السائدة فى مجتمعه ، فليست الثقافة الا نسيج الأفكار والقيم والمثل والمهارات والأدوات وأساليب التفكير والعادات والمؤسسات التى يعيش فيها الفرد ٠

ومن وجهة نظرنا فان دراسة العملية التربوية فى إطاريها الرسمى وغير الرسمى تعظم قيمتها فى المجتمعات البدائية بالذات لأنها تمدنا بالأسس الأولى لطبيعة هذه العملية ، وإذا كان طالب التربية لايهتم عادة إلا بعملية التربية الرسمية فى المجتمعات التى ارتفعت فوق خط التخلف حيث تكون عوامل التربية بها معقدة لدرجة يصعب فيها التمييز بين الهدف والوسيلة فان طالب الأنثروبولوجيا على العكس من ذلك يهتم بالدرجة الأولى بالأطر المرجعية للنظم التربوية فى الثقافات البدائية لما لها من دلالات هامة فى ميدان البحث الانثروبولوجى ، وإذا كان طالب التربية يسترعى انتباهه الأساليب المختلفة التى يسلكها الناشىء البدائى لاكتساب أنماطه الثقافية فان طالب الانثروبولوجيا يهتم بما وراء هذا السلوك أى بتعليل البدائى لما يدور حوله من ماديات يحيلها إلى قوى غيبية أو روحية ٠

ومن الأسس التى تحكم العلاقة بين الثقافة والتربية فكرة تقسيم العمل والذى يكاد يختفى من الشعوب البدائية بينما يعد أهم أسس الحضارة العالمية الراهنة ، ففى المجتمع البدائى تصبح الأسرة ـ فى حالة اختفاء المدرسة ـ هى الوسط الاجتماعى الوحيد للتربية إذ تقوم بتدريب الطفل على كيفية الحصول على العيش ، وتظهر بوادر تقسيم العمل فى المجتمع البدائى بين الرجل والمرأة حيث يختص الرجل بتعليم أولاده حرفة الصيد أو الزراعة أو الرعى ومهام الحروب للدفاع عن النفس والأسرة والقبيلة معا ، بينما تقوم المرأة بتعليم بناتها إعداد الطعام والبحث عن المأوى والغذاء معا وعملية التعليم هنا تعتمد أساسا على المحاكاة ٠ محاكاة الأطفال لأبائهم ، ويتضح تقسيم العمل فى المجتمع البدائى حين تظهر قدرات خاصة فى صنع الوشم والحراب ودبغ الجلود والغزل وصنع أنواع الغذاء السائد فى القبيلة ، وبهذا تعد التربية البدائية عملية اندماج

الفرد فى الثقافة سواء فى عمومياتها أو فى خصوصياتها إذ تمثل العموميات فى حماية الأسرة للصغار والمسنين وتقسيم العمل بين أفرادها مهما كانت ضآلة هذا التقسيم ، وفى عمل الأسرة معا كوحدة اقتصادية وظهور نظام الزواج كأساس للعلاقات الأسرية[1] ، وان اختلفت نظم ومقومات العلاقة الجنسية كأساس للزواج بين مجتمع وآخر ، وبينما تصل هذه العلاقة أو« الرباط المقدس » إلى قمة انسانيته وكماله فى الديانة الاسلامية حيث يقول الله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[2] نرى أن هناك عديدا من الأنماط المتعددة للزواج وطبيعته وأسسه وغايته فى المجتمعات والديانات الأخرى ، وما يهمنا هنا هو الاشارة إلى بعض مايحدث فى المجتمعات البدائية كنموذج لما يكون عليه الزواج فى مثل تلك المجتمعات ، فمثلا مسألة الاتصال الجنسى بفتاة غير متزوجة أو ماتسميه القبائل النيلية فى السودان الجنوبى « دهونيال » Dhunyal [3] يعد خطأ يجب أن يدفع عنه الممارس أو المخطىء تعويضا لا لأن ذلك أمر يستوجب الزجر أو اللوم من الناحية المعنوية وإنما لفكرة أخرى هى أن الفتاة التى يكثر عشاقها لاتعتبر صالحة للزواج بعد ، الأمر الذى يقلل فرصها فى الزواج ويجعلها عبئا ثقيلا على عشيرتها يوجب التعويض ، ويختلف هذا التعويض من قبيلة إلى أخرى فهو يتراوح فى قبيلة الشلك بين ثلاثة رؤوس إلى خمسة رؤوس من الماشية تبعا لطبقة الفتاة التى ارتكب واياها الخطأ الجنسى ، وتفرق قبيلة « النوير » بين نظام « دهونيال » السابق ونظام « دهونيال دهول » Dhunyal dhul أى إفساد فتاة فى منزل أسرتها فالافساد أو الاتصال الأول خطأ ذو اعتبار اجتماعى بينما الخطأ الثانى جريمة كبرى لما يحمله من نقض لحقوق أسرة الفتاة ، وهذا الاصطلاح يوصف به كذلك هروب فتاة للاقامة مع رجل دون زواج قانونى تعترف به القبيلة ، والجريمة هنا مزدوجة فمع ماتحمله من خطأ جنسى ذى دلالة اجتماعية فانها تعد جريمة سرقة فتاة من ناحية أخرى ٠

---

1. Linton, R. ***The Study of Man.*** PP. 152-172.

(٢) « الروم » الآية ٢١

(٣) محمد عبدالفتاح ابراهيم ـ الجريمة والعقاب فى المجتمع القبلى الافريقى بالانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٦م ٠

وتتحدث الانثروبولوجية الأمريكية « مارجريت ميد » عن نظام « الموتوتولو » Mototolo في جزيرة « ساموا » Samoa حيث يدهن العاشق جسمه بالزيت وهو يتستر في الظلام قاصدا كوخ حبيبته ، فاذا نجح وادرك منها وطرا لاذ بالفرار وتصيح الفتاة ، فاذا قبض عليه أصبح أضحوكة القبيلة كلها ، ولكن نادرا مايحدث ذلك لأن تستره في الظلام ودهن جسمه بالزيت ومغافلة الرقباء كل هذا يسهل له مهمة الفرار من أيدى المطاردين مما يشعره وكأنه حقق نصرا رياضيا رائعا .(١)

وعلى أية حال فان كلا من التربويين والانثروبولوجيين في حاجة ماسة إلى سند من نظريات علم النفس التحليلي والتحليل النفسي معا لما تلقيه تلك النظريات من ضوء على تفسير المواقف الانسانية المختلفة والتي تشير أغلبها إلى الطفولة المبكرة وما يحيط بها من مواقف ومشاعر وانفعالات ودور الثقافة في تحديد وتنميط تلك المواقف مما يجعل الشخصية Personality في النهاية حصيلة للموقفين الداخلي والخارجي أو بمعنى آخر حصيلة للبيئة الخارجية مرتبطة ومتفاعلة مع النزعات والميول الذاتية وفي اطار هذا المفهوم تتحدد مواجهة الانسان للموقف من خلال عملية التوافق لتحقيق هدف معين .(٢)

وقد اختلفت الاتجاهات حول تحديد أصل العملية التربوية ، فمالينونسكي في اتجاهه الوظيفي Functionalism يرى أنه لايمكن فصل الجانب البيولوجي عن الجانب الاجتماعي في العملية التربوية على أساس أن المتعلم Educated Man حصيلة مجموعة من الدوافع البيولوجية مرتبطة أو « معلاة »(٣) بالدوافع الحضارية بينما يعالج « اميل دوركايم » العملية التربوية على أساس أنها ظاهرة اجتماعية مستقلة تماما عن الظواهر البيولوجية والنفسية وأنه ينبغي أن تفسر الظاهرة الاجتماعية بظواهر اجتماعية

---

1. Mead, Margaret. ***Coming of Age in Samoa***. Amentot Cook, U.S.A. 1945, PP. 152-172.

2. Malinowski, B.R. ***The Dynamics of Cultural Change***, U.S.A., 1949, P. 27.

(٣) معلاة أي مشتقة من اعلاء الدوافع .

أخرى من نوعها ، ويرى « مالينوفسكى » ان من الضرورات التى تفرضها الثقافة على المجتمعات البشرية عملية انتقال التراث الاجتماعى من جيل إلى جيل وفى هذا يكمن جوهر العملية التربوية •

ويتطلب الاتجاه الوظيفى فى معالجته للنسق التعليمى البحث فى عدد من الجوانب التى تتصل به لدراسة الحالة Case Study وجماعات اللعب وحفلات التنصيب والتدريب على أنواع الحرف المختلفة •

التكامل الثقافى والنظرية التربوية

يشير معنى التكامل Integration إلى تآزر وتضافر الوظائف الاجتماعية أو الثقافية للابقاء على وحدة الكل كما يتضمن كذلك معنى التغاير بمعنى أن المجتمع المتكامل هو الذى يتحقق به التكامل والتغاير ، ومهما تضمن التكامل من معان متعددة إلا أنه من المفاهيم التى ترتكز على أساسها نظرية متكاملة عن التربية والثقافة معا ، ويستدعى شرح موضوع التكامل بين التربية والثقافة أن نستعرض بعض آراء التربويين والانثروبولوجيين عن موضوع التكامل ،ورغم تعدد وجهات النظر فيما بينهما الا أنها تنحصر فى اتجاهين رئيسيين هما :

أولا : الاتجاه التقليدى

ويرى أنصار هذا الاتجاه أنه ينبغى نقل التراث كما هو من خلال العملية التربوية ، وبهذا يصبح دور المدرسة محصورا فى نقل التراث الثقافى من خلال عملية انتقائية للعناصر المراد نقلها للجيل الناشىء حيث يتعسر نقل التراث برمته ، وبهذا تصبح أهمية المنهاج المدرسى محصورة فى الانتقاء والاختيار للعناصر الثقافية التى تصلح للانتقال من جيل إلى جيل ، وأنصار هذا الاتجاه يدعون بالمثاليين الذين ينادون بسمو الفكر النظرى على الفكر التجريبى وبهذا ينظرون إلى التربية من زاوية المطلق Absolute لا من زاوية الثقافة الواقعية المعاشه ، ولهدف العملية التعليمية على أن تكوين الانسان المثالى وليس المواطن الصالح الذى يحقق تمثل ثقافته من ناحية والعمل على تطويرها من ناحية أخرى •

ثانيا : الاتجاه الحديث

وينظر إلى الاتجاه التقليدى على انه اتجاه عقيم يؤدى إلى جمود العملية التربوية ويجعلها مجرد عملية استاتيكية أى جامدة لا تتطور ، ويرون أن التربية مع أنها عملية إدماج للفرد فى الثقافة إلا أنها من وجهة نظر أخرى عملية اعداد الفرد للاسهام فى تطوير وتغيير تلك الثقافة بما يلائم التقدم الاجتماعى وروح العصر ، ولهذا فان قصر الاهتمام على الدراسات النظرية وحدها لايعنى سوى عزلة المدرسة عن الحياة ومشكلاتها ، كما ان الاقتصار على كتب التراث التقليدية رجعة إلى الوراء ، ولهذا ظهر اصطلاح « التربية الموظفة » والتى تهدف إلى تحقيق التقدم الاجتماعى من خلال اعداد النشء للحياة فى مجتمع متغير •

وحول التساؤل عن كيف تؤدى المدرسة دورها فى المجتمع كمؤسسة اجتماعية

اختلف العلماء فى الاجابة عن هذا التساؤل • فبعضهم يرى أن تركز التربية على الفرد الذى يتعلم ، والبعض يرى أن يكون التركيز على تنمية عقليات ناقدة لدى التلاميذ ثم تركهم أحرارا يعبرون عن مستقبل مجتمعهم وثقافتهم ، بينما يرى فريق آخر أن المدرسة تستطيع القيام بدورها كاملا فى عملية التجديد الثقافى Cultural Innovation فى ضوء فلسفة اجتماعية واضحة المعالم تهدف الى التغير الثقافى •

وأنصار الاتجاه الفردى يعللون اتجاههم بأن المدرسة جزء من المجتمع وظيفتها مساعدة التلاميذ على الاعداد للتغيير ، ولهذا فان أهم أهداف التربية تنمية المبادرة واثارة التفكير الذى يستخدم ماهو مألوف من العناصر للكشف عن الجديد غير المألوف ، وبهذا فالمنهاج المدرسى ينبغى أن لايخضع لحدود ثابتة أو مقررات جامدة بل يكون مفتوحا لمواكبة الجديد واكتشاف الحديث •

أما الاتجاه التقدمى الذى يهدف إلى تنمية عقليات ناقدة حرة تعبر عن مستقبل المجتمع واتجاهاته فانه يتفق مع الاتجاه الفردى فى تأكيد دور المدرسة فى عملية التغيير ويرون أن تكون أفكار« دينامية » لدى الناشئين من العوامل التى تتيح لهم الاسهام بدور فعال فى عالم متغير ، ولهذا فان على الآباء وكبار السن أن يتنازلوا عن سلطتهم

التقليدية وأن يتركوا للجيل الناشىء فرصته فى ممارسة التفكير الابداعى الحر ، وهؤلاء يؤثرون استخدام طريقة الجشطالت Gestalt فى التعليم لما تتسم به من النظرة الكلية للموضوع ، وان تكون مشاكل الساعة لها اعتبارها فى العملية التعليمية من حيث التركيز عليها ومناقشتها تحقيقا لما يسمى بالتعليم الوظيفى Functional Learning

أما الاتجاه الفلسفى الثقافى فيرى ضرورة تحديد أهداف المدرسة فى ضوء فلسفة اجتماعية واضحة تعبر عن متطلبات المجتمع فى الحاضر والمستقبل ، وبهذا لاتصبح التربية عملية منفصلة عن البيئة الاجتماعية أو المحتوى الثقافى ·

ويرى عالم الانثروبولوجيا التربوية ت · بريملد T. Brameld Educational Anthropology أن معظم الاتجاهات التربوية[1] لم تتضح بعد إلى الحد الذى تستطيع معه أن تستوعب ماتقدمه النظرية الانثروبولوجية من نتائج وتعميمات تتصل بالمجال التربوى فى الوقت الذى يوافق فيه رجال التربية على أن الأبحاث الحقلية الانثروبولوجية يمكن لها أن تدعم أبحاث التربية وعلم النفس وتضيف إليها أبعادا نظرية جديدة ، فمثلا ظل علم النفس العام والذى يعد من الروافد الأساسية للنظرية التربوية ـ يتحدث عن نظرية ماكد وجال Macdougall فى الغرائز على أنها حقيقة ، فقد ذكر فى كتابه « قوى الانسان » Energies of Man قائمة بدوافع متعددة اعتبرها دوافع فطرية أو غرائز لاتتكون بالاكتساب وإنما تولد مع الانسان وهى عامة فى كل أفراد النوع ، وذكر من تلك الغرائز حب الاستطلاع والميل للاجتماع والتملك وتأكيد الذات والمقاتلة ، ولكن الدراسات الحقلية الانثروبولوجية فى محيط المجتمعات البدائية أثبتت خطأ نظرية « ماكدوجال » ، إذ أثبتت أن تلك الدوافع ثانوية لافطرية مكتسبة لاتولد مع الانسان ، فدافع التملك مثلا لايظهر بوضوح إلا فى المجتمعات الرأسمالية أو ذات الاقتصاد الحر أى التى تشجع المنافسة وتتيح لأصحاب

---

1. Brameld, T. *The Meeting of Educational and Anthropological Theory in Education and Culture,* Spendler (ed.)

الملكية مراكز اجتماعية خاصة ، وقد ذكر ريفرز Riverz فى دراسة ميدانية بجزر « الميلانيزيا » أن أهالى تلك الجزر لاتظهر بينهم الملكية الفردية بوضوح وأنها ملكية عامة ، تقسم بينهم طبقا لقواعد خاصة كما أن الملكية فى قبيلة الشلك بجنوب السودان ملكية شائعة بسبب اتساع مساحة الأرض الزراعية ، كما أن قبائل غينيا الجديدة ينفرون من الملكية الفردية لاعتقادهم بأنها ملك للشياطين ، كما أكدت الأبحاث الحقلية الانثروبولوجية أن دوافع المقاتلة وتأكيد الذات وحب الاستطلاع ليست دوافع فطرية أو غرائز أساسية لدى الكائن البشرى لانعدام تلك الدوافع لدى بعض القبائل البدائية ٠

واذا كان لاكتشاف النظرية النسبية أثره الهائل فى عالم المادة بخاصة وفى حضارة العالم الراهن بعامة مما دعا لإعادة النظر إلى علم الطبيعة برمته على ضوء النظرية الجديدة ، فقد كان لنتائج الدراسات الانثروبولوجية فى محيط المجتمعات البدائية نفس الأثر الهام والبعيد المدى فى محيط الدراسات الانسانية بعامة وعلم النفس والتربية بخاصة ، اذ دعت تلك الاكتشافات الحقلية إلى ضرورة اعادة النظر فى دراسة الانسان من حيث دوافعه وغرائزه وسلوكه ، وإلى إعادة النظر فى علاقة الانسان بالطبيعة وأثر الحضارة فى السلوك الانسانى ، وأثر البدائل السلوكية فى حياة الانسان الحضرى مقارنة بالسلوك الفطرى لدى البدائى ، ولهذا يرى « بريملد » انه من الأفضل معالجة العلاقة بين النظريتين التربوية والثقافية من زاوية « التكامل الثقافى » وان هناك معايير أساسية يمكن أن تهتدى بها « التربية من خلال مفهوم التكامل الثقافى » وذلك بأن تضع كل مدرسة فى اعتبارها المكونات الاقتصادية والعقائدية السائدة ، وان تقوم المدارس بعمليات تنقية من الشوائب للصيغ الثقافية بحيث تعبر عن طبيعة المجتمع الناضج المتصور وان على الانثروبولوجيين والتربويين ان يمدوا المدارس بنتائج دراساتهم الميدانية المقارنة وذلك للاسترشاد بها عند وضع المناهج الدراسية ما أمكن ذلك ٠

وعلى أية حال فان كلا من الانثروبولوجيا الثقافية والتربية تلتقيان عند خط واحد هو دراسة الانسان فى الحياة واعداده لها على اختلاف مستوى هذا الاعداد الاجتماعى أو الثقافى بالنسبة لنمط المجتمع نفسه بدائيا كان أم متطورا وأن كلا من الميدانين يمد

الآخر بتجاربه التى تثرى فروضه النظرية ، فعن طريق التربية الرسمية ـ لاسيا فى المجتمع البدائى ـ يستطيع الانثروبولوجيون ان يجدوا المجال خصبا لدراسة عملية التغير البنائى والثقافى فى المجتمع البدائى من زاوية جديدة ، وبالتالى يمكنهم أن يصلوا إلى نتائج ايجابية تحدد طبيعة ومجال التغير فى تلك المجتمعات والتى استمزت تدرس على أنها مجتمعات استاتيكية استقرارية ترفض التغير وبالتالى فان استخدام القياس فى محيط تلك المجتمعات كقياس الذكاء أو مستوى الطموح أو الرأى العام ٠٠٠٠٠٠ الخ ٠ لاشك يقدم جديدا ومفيدا فى نطاق البحث الانثروبولوجى ، كما ان الانثروبولوجيا بدورها ومن خلال نتائج بحوثها الميدانية تقدم مساهمتها الفعالة للتربية عند وضع المناهج الدراسية من ناحية ، وفى الفهم العميق للمجتمعات المدروسة من ناحية أخرى كما تسهم الانثروبولوجيا الثقافية اسهاما مباشرا من خلال عرض ثقافة ونظم المجتمعات المختلفة عرضا حيا للطلاب على اختلاف مراحلهم التعليمية وبهذا تتعاون الدراستان فى فهم ثقافة وتربية الإنسان ٠

الفصل الحادى عشر

البناء الاجتماعى والوظيفة

- بين الاتجاهين الثقافى والوظيفى .
- ابن خلدون وفكرة البناء الاجتماعى .
- المفهوم الانثروبولوجى للبناء الاجتماعى (عند كل من رادكليف براون ، ايفانـز برتشارد ، ريموند فيرث) .
- مفهوم الوظيفة وعلاقتها بالبناء .
- بين الوظيفة والغرض .
- المدرسة الوظيفية والاهتمام بحاضر النظم الاجتماعية .

تعرضنا فى الفصل السابق لدراسة الاتجاه الثقافى أو المدرسة الثقافية التى تعد من أوسع المدارس انتشارا فى الفكر الأنثروبولوجى المعاصر ، وقد ظهر هذا الاتجـاه فى الدراسات الأمريكية بصفة خاصة ، ولا يشذ عن هذا الاتجاه فى أمريكا الا بعض الأنثروبولوجيين الذين تأثروا بنظريات « راد كليف براون » الأنثروبولوجى البريطانى والذى قام بالتدريس فى أمريكا فترة من الزمن ، ويعد من أقوى دعائم الاتجاه البنائى الوظيفى ان لم يكن هو مؤسس هذا الاتجاه ، وكذلك الذين تأثروا من الأمريكيين بآراء « اميل دور كايم » مؤسس المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، وإن كان هؤلاء يتضاءلون

رويدا رويدا نتيجة انتشار المد « الثقافى » أمام انكماش الاتجاه الوظيفى البنائى ، ويرجع ذلك فى الوقت الحالى إلى مايتمتع به الأنثروبولوجيون الأمريكيون من إمكانات هائلة ومنح عديدة واعتمادات مالية ضخمة توفر لانشاء كليات العلوم الاجتماعية التى تدخل فى نطاقها أقسام الأنثروبولوجيا وما يستتبع ذلك من منح الدراسات التى تندرج فى اطار الأنثروبولوجيا الثقافية .(١)

والواقع أن الاتجاهين يوجدان جنبا إلى جنب فى سائر الدول التى تهتم بالدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية ، ولهذا فمن المتعسف القول بامكان تقسيم العالم إلى منطقتين يسود إحداهما الاتجاه البنائى الوظيفى بينما يسود فى الأخرى الاتجاه الثقافى أو الاثنولوجى ، وإن كان هذا لا يمنع القول بأن الاتجاه البنائى يغلب على الدراسات الأنثروبولوجية فى بريطانيا بينما يسود الاتجاه الثقافى فى الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية ، وترجع جذور التفرقة بين الاتجاهين الى تلك التفرقة القديمة بين المجتمع والثقافة ، واختلاف آراء العلماء حول تحديد موضوع الأنثروبولوجيا هل هو المجتمع الذى يتمثل فى دراسة شبكة العلاقة الاجتماعية المتداخلة فيما بينها من نظم وأنساق اجتماعية أم أن موضوع الأنثروبولوجيا هو الثقافة المتمثلة فى العرف والقيم والتقاليد وكل ماينشئه الانسان فى مجتمع ما . وهى تفرقة ترجع فى أساسها إلى الظروف الماسة التى واكبت نشأة الأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر فى كل من بريطانيا وأمريكا حين كانت دراسة الأنثروبولوجيا قاصرة على دراسة البدائى حيث اتجه العلماء البريطانيون إلى دراسة المجتمعات القبلية فى إفريقيا والتى كانت خاضعة للاستعمار البريطانى حينئذ فى الوقت الذى اتجه فيه الأنثروبولوجيون الأمريكيون لدراسة قبائل الهنود الحمر فى أمريكا نفسها . وهنا بدأ يظهر الاختلاف فى اتجاه كل منهما باختلاف طبيعة القبائل موضع الدراسة ، فبينما كانت القبائل الإفريقية تعيش فى شبه عزلة اجتماعية واقتصادية عن العالم الخارجى المحيط بها بحكم ظروفها الجغرافية . الأمر الذى جعل القبيلة تؤلف كيانا مستقلا عما عداه من المجتمعات الأخرى وبالتالى اضطر

(١) راجع : عاطف وصفى الأنثروبولوجيا الاجتماعية . دار لمعارف ـ القاهرة ١٩٧٧م ص ٤٩ .

الأنثروبولوجى لأن يركز دراسته فى مجتمع واحد أو مجتمعين وأن تطول مدة دراسته بهما لعام أو عامين كاملين يدرس فيهما سائر النظم والأنساق الاجتماعية للمجتمع المدروس مع اعتباره وحدة متكاملة أى أصبح يدرس المجتمع من حيث بناؤه الاجتماعى المتماسك من ناحية ومن حيث ارتباط أنساقه ونظمه المختلفة ارتباطا عضويا وظيفيا لفترة تتيح له الدراسة المركز المتكاملة من ناحية أخرى • ومن هنا بدأ يظهر الاتجاه البنائى الوظيفى بكل أبعاده ، وعلى العكس فان الأنثروبولوجيين الأمريكيين عند دراستهم لقبائل الهنود الحمر لم يجدوا لديهم مثل هذه العزلة التى تعيشها القبائل الافريقية ، فهناك اختلاط بين قبائل الهنود الحمر من ناحية وبينها وبين المجتمعات الخارجية عنهـا من ناحية أخرى مما دعا إلى تداخل ثقافاتهم بالاضافة إلى أن لهم تاريخهم الثقافى الذى يحتوى على آدابهم وتراثهم وفولكلورهم ، وقد يسر هذا على الأنثروبولوجيين دراسة ثقافات هذه القبائل من حيث العادات والأعراف والتقاليد والقيم والطقوس أى من حيث المدخل الثقافى لا الوظيفى •

ورغم هذا فانه لايمكن التفرقة الحاسمة بين الاتجاهين ، ويعلل ايفانز برتشـارد الاتجاه الثقافى فى الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية بقوله[1] « اما لأن مجتمعات الهنود الحمر التى كان العلماء الأمريكيون يركزون أبحاثهم عليها مجتمعات مجزأة غير متماسكة مما يجعل دراسة ثقافتها أسهل بكثير من دراسة بنائها الاجتماعى ، وإما لعدم وجود تقاليد قديمة هناك يرعونها فى الدراسة الحقلية المركزة التى يستخدم الباحث فيها لغة الناس أنفسهم والتى تستغرق فترات طويلة من الزمن كما هو الحال فى بريطانيا ، مما يجعلهم يفضلون دراسة العرف والثقافة على دراسة العلاقـات الاجتماعية ، واما لأسباب أخرى غير هذه » •

المقصود بالبناء الاجتماعى

إذا كان معظم الأنثروبولوجيين فى كتاباتهم يتحدثون عن البناء الاجتماعى على أنه

---

(١) ايفانز برتشارد • الأنثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة الدكتور أحمد أبوزيد ، الطبعـةالاولى ص ٣٧–٣٨ •

فكرة حديثة العهد فالواقع غير ذلك لأن هذه الفكرة تمتد إلى منتصف القرن التاسع عشر وقد ظهرت فى كتابات « مونتسكيو » فى كتابه « روح القوانين » De L'Esprit des Lois والتى تظهر فيها فكرة النسق الاجتماعى Social System على أساس أن مظاهر الحياة الاجتماعية تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة متسقة ، وذلك عندما تحدث عن القانون وعلاقته بالتركيب السياسى والاقتصادى والدين والمناخ وحجم السكان والعادات والتقاليد والعرف مما يشكل فى جوهره مضمون « البناء الاجتماعى » وقد ظهرت نفس الفكرة فى كتابات كل من « سان سيمون » و « أوجست كومت » و « لويس مورجان » و « ماكلينان » ولكن بدرجات متفاوتة ، وان كانت قد ظهرت بصورة أوضح لدى العالم البريطانى « هربرت سنبسر » حين شبه المجتمع بالكائن العضوى اذ أن هذه الفكرة ساعدت على انتشار فكرة البناء Structure والوظيفة Function فى الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية على أساس أن هربرت سبنسر كان « يؤكد دائما ضرورة وجود التساند الوظيفى والاعتماد المتبادل بين نظم المجتمع فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وأن الغاية التى يهدف اليها هى ايجاد حالة من التوازن تساعد المجتمع على الاستمرار فى الوجود »(١) مما جعل سبنسر يتصور المجتمع كبناء له كيان متماسك ، وقد ظهرت نفس الفكرة عند « اميل دوركايم » الذى أثرت مؤلفاته بصورة أوضح وأقوى فى الدراسات الأنثروبولوجية وبخاصة فى التمهيد للمدرسة الوظيفية Functionalism عندما حدد خواص الظواهر أو الوقائع الاجتماعية Les Faits Sociaux بخاصتى التلقائية والخارجية أى التى توجد خارج عقول وضمائر الأفراد ٠ ولهذا لاينبغى أن تفسر تفسيرا ذاتيا وإنما تفسر تفسيرا اجتماعيا أى بظواهر اجتماعية مماثلة كما أنها نشأت نشأة تلقائية أى تمارس تلقائيا فى المجتمع ، ولها خاصية الجبر والقهر Contraint أى أنها ظواهر تفرض نفسها على الأفراد لأنهم نشأوا فوجدوها فى المجتمع ، وتتجلى جبريتها تلك عند مخالفتها وتعرض المخالف لعقوبات متعددة لمخالفته « النظام » هذا البناء الذى يتسم بثباته

---

(١) ايفانز برتشارد ـ المرجع السابق ٠

واستقراره وتماسكه ، وان اختلفت درجة التماسك والثبات باختلاف الزمان والمكان أى من جيل لجيل ومن مجتمع لآخر ، وان كان البناء الاجتماعى يستمر أجيالا عديدة ، وبهذا لايوجد مع الفرد أو يموت معه وانما العكس هو الصحيح ، أى يوجد الفرد فى البناء ويتركه لأفراد آخرين وهكذا ويظل البناء ثابتا كما هو ، ويرى « دوركايم » أن طبيعة هذا البناء لها صفة الشعور أو الضمير الجمعى La Conscience Collective وهو شعور يختلف تماما عن الشعور الفردى ، الأمر الذى جعله يرفض تماما تفسير الظاهرة اجتماعية بأخرى نفسية ، وبالتالى يؤكد على الفصل التام بين علم النفس وعلم الاجتماع من حيث إن لكل منهما ظواهره التى يختص بدراستها ، ويفسر دور كايم طبيعة حياة الأفراد فى المجتمع على أساس أنهم « يعيشون فى نفس الاطار من النظم القانونية والسياسية والاقتصادية ، وكل هذه الأشياء تؤلف بناء له درجة معينة من الثبات والاستقرار بمعنى أنه يستمر فى الوجود فترات طويلة من الزمن يحتفظ خلالها بأهم مقوماته التى تنتقل من جيل إلى جيل • أما الفرد فانه يمر فقط خلال ذلك البناء الذى يجد نفسه فيه • فالبناء لن يولد معه ولن يموت بموته[١] •

ابن خلدون وفكرة البناء الاجتماعى

نقول • إذا كان الأنثروبولوجيون يسوقون مثل هذا العرض التاريخى عند التحدث عن بداية التفكير فى مفهوم البناء الاجتماعى فاننا نرى أن العلامة العربى المسلم ابن خلدون سبق هؤلاء بحوالى خمسة قرون حيث تناول هذه الفكرة عندما نظر إلى الظاهرة الاجتماعية فى ضوء ماتحدثه من وظائف متعددة فى المجتمع ، وحين تحدث عن الدين من حيث وظائفه الاجتماعية باعتباره أكبر« وازع » للبشر لأنه يراقب الناس فى الجهر والسر ويمتد أثره إلى عالم الغيب بعكس القانون الوضعى الذى لاتتجاوز

---

(١) ايفانز برتشارد ، المرجع السابق ص ٨٤ ، وكذلك

Dutkheim. E. Les Regle de la methode. P.U.F. 1944 Chap. 1.

وقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكاتب بعنوان « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى • مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة١٩٥٠ م •

آثاره فى رأى الناس عالم الواقع ٠ كما تحدث ابن خلدون عن التآلف والتضامن الاجتماعى وذلك فيما يسميه هو « تآلف الكلمة » وذلك عن طريق توحيد قيم ومعايير وأهداف الجماعة المشتركة مستخدما إياها فى دراسة ظواهر عديدة موضحا مدى تفاعل ظواهر الكون المختلفة من طبيعية واجتماعية فى تشكيل معايير الناس وعاداتهم ٠ لهذا فان الانصاف يدعو إلى عرض آراء ابن خلدون فى مقدمته مع آراء المفكرين الآخرين بل قبل عرضها كمقدمات لفكر المدرسة الوظيفية فى الدراسات الأنثروبولوجية ٠ بل يمكن القول بأن ابن خلدون كان أحكم فى نظريته وأصدق موضوعية من كل من « فيكو » و « مونتسكيو » و « جان جاك روسو » و « سان سيمون » و « أوجست كومت » فهؤلاء وان وصلوا إلى بعض الحقائق المنهجية إلا أنها كانت ترمى فى جوهرها إلى تحقيق بعض الغايات المثالية التى لايهدف اليها العلم ، أما ابن خلدون فقد كان يبحث فى ثنايا مقدمته عن القوانين التى تفسر الظواهر وتبين كيف تنشأ وتتطور طبقا لقواعد محددة ، وقد ذكر فى مقدمته مختلف أنواع الظواهر الاجتماعية بل ان تصنيفه ينطبق الى حد كبير على تقسيم علم الاجتماع فى الوقت الراهن الى عدة فروع كعلم الاجتماع السياسى Political Sociology وعلم الاجتماع الأخلاقى Moral Sociology والأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology وعلم الاجتماع الدينى Sociology of Religion وعلم الاجتماع البدوى Sociology of Nomads وعلم الاجتماع الاقتصادى وعلم الاجتماع اللغوى ٠٠٠٠ الخ وهى تحمل نفس الموضوعات التى تعالجها المدرسة الوظيفية تحت عناوين « النسق السياسى » و « النسق الأخلاقى » و « النسق الدينى » و « النسق الاقتصادى » ٠٠٠ الخ ولهذا يرى أن صاحب هذا الفن أى علم العمران أو الاجتماع الانسانى يهدف « إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأمصار فى السير والأخلاق والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ،،، والقيام على أصول

الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونهـا ... » بل ان ابـن خلدون فى نظر المنصفين من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا كان أكثر واقعية من « اميل دوركايم » مؤسس المدرسة الاجتماعية الفرنسية اذا وضعنا فى الاعتبار ضيق النطاق الحضارى فى عصر ابن خلدون اذا قيس بعصر « دوركايم » بالاضافة إلى أن ابن خلدون ظل فى مقدمته عالما موضوعيا يستقرىء الحقائق من مجتمعه بينما كان دوركايم فى رأى بعض العلماء « رجلا أخلاقيا يحدد الواجبات بطريقة اعتقادية متطرفة ، ويريد فرضها على الأفراد بطريق القهر »[1] كما سبق أن اشرنا الى ذلك فى فصل سابق .

اهتمامات المدرسة الوظيفية

تمتاز المدرسة البنائية الوظيفية عن كل من المدرسة الانتشارية والتطورية بعـدم اهتمامها بالماضى كأساس لتحليل وتفسير الظاهرة ولهذا ترفض فكرة التاريخ الفرضى أو الظنى والذى يهتم باعادة بناء الظاهرة للكشف عن تاريخها وتطورها وهو ما انزلق إليه التطوريون فى محاولتهم تفسير « الظاهرة » أو « النظام » وانما تهتم المدرسة الوظيفية أساسا بالكشف عن وظائف النظم الاجتماعية « هنا والآن » أى فى المكان والزمان المعاصرين للدراسة ، ولهذا فان أنصار هذه المدرسة ينظرون للبناء الاجتماعى على أنه نسق اجتماعى Social System تترابط أجزاؤه وتتساند فيما بينها ويعتمد كل منها على الآخر فى تضامن متبادل ليتألف من هذا « البناء الاجتماعى » الذى يعبر عن شبكة العلاقات الاجتماعية التى ترتبط حلقاتها فى كل متكامل لايمكن فصل أى من عناصره عن الآخر ، ولهذا يرى « الوظيفيون » أن تحديد العلاقات الاجتماعية فى هذا البناء الكلى والكشف عن وظائفه وارتباطه وتسانده يؤدى إلى الوصول إلى القوانين أو التعميمات التى تنظم وتحكم الحياة الاجتماعية وبالتالى تؤدى إلى امكانية التنبؤ بما يحدث

(١) محمود قاسم ،مشروعية علم الاجتماع بين ابن خلدون واميل دور كايم . المجلة الاجتماعية القومية المجلد الثامن ، العدد الأول يناير ١٩٧١م من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . القاهرة ص ٩٦ .

من نتائج اذا توافرت الأسباب المؤدية الى ذلك فى البناء الاجتماعى ، ويقصد « الوظيفيون » بالنسق System نوعا من الترتيب والاستمرار والتوازن فى الحياة الاجتماعية بحيث لايتاح للفرد إشباع حاجاته الضرورية أو الثانوية إلا فى إطار هذا الاستمرار والتوازن والترتيب ، وذلك لأن هذا الترتيب يستدعى تجميع العلاقات الاجتماعية فى مجموعات تعبر كل منها عن نظام اجتماعى Social Institution معين كالنظام السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو القرابى ... الخ ، ومن خلال هذه النظم يمارس الأفراد فى « البناء » أو دارا Roles ومراكز Statuses معينة ، وبالتالى يؤدى كل نظام اجتماعى وظيفة اجتماعية Social Function معينة فى الحياة الاجتماعية .(١) .

المفهوم الأنثروبولوجى للبناء الاجتماعى

أشرنا إلى أن البناء الاجتماعى هو الموضوع الأساسى الذى تعالجه المدرسة الوظيفية أو كما يدعوها بعض الأنثروبولوجيين المدرسة البنائية الوظيفية والتى ينتمى اليها معظم الأنثروبولوجيين الاجتماعيين فى بريطانيا وعدد قليل من الأمريكيين الذين تأثروا بآراء « راد كليف براون » وغيره من الموظفين كما أشرنا .

والواقع أنه رغم ظهور فكرة البناء الاجتماعى بالمعنى السوسيولوجى ممثلة فى أفكار كل من ابن خلدون وهربرت سنبسر وإميل دوركايم بمعنى تضامن وتشابك العلاقات الاجتماعية وتساندها مع بعضهاءإلا أن انتشار مفهوم البناء الاجتماعى بالمعنى الوظيفى المتداول الآن فى محيط الأنثروبولوجيا الاجتماعية إنما يرجع إلى المحاضرة التى ألقاها العالم البريطانى « را وكليف براون » فى عام ١٩٤٠ بعنوان « فى البناء الاجتماعى » ***On Social Structure*** (٢) والتى كانت منطلقا للاهتمام بفكرة البناء

---

1. Evans - Pritchard. E.E. Social Anthropology. London, 1952, PP. 78-79.

2. Radcliffe-Brown, A.R. On Social Structure in ***Structure and Function in Primitive Society,*** Cohen and West, 1953, PP. 188-207.

وقد نشرت ترجمة عربية لهذا المقال بعنوان « فى البناء الاجتماعى » ترجمة عبدالحميد الزين ومراجعة الدكتور أحمد أبوزيد مجلة « مطالعات فى العلوم الاجتماعية » صيف ـ خريف ١٩٦٠م ص.ص ١ ـ ١٨ .

الاجتماعى وتشعب دراسته من ناحية وتدعيم الاتجاه الوظيفى من ناحية أخرى وذلك من خلال ما أثاره مفهوم البناء الاجتماعى من جدل ومناقشات منذ بداية الأربعينات ، وقد صدرت فكرة البناء الاجتماعى تلك عند راد كليف براون من خلال تصوره للأنثروبولوجيا الاجتماعية أو كما يدعوها · علم الاجتماع المقارن Comparative Sociology على أنها فرع من فروع العلوم الطبيعية ينبغى أن يستخدم فيه المنهج التجريبى Experimental Method هذا المنهج الذى يستخدم الملاحظة المنهجية وفرض الفروض العلمية التى تتحقق بالوسائل التجريبية المعروفة فى « الميثودولوجى » أى « علم المناهج » وصولا إلى القانون أو التعميم الذى يعد غاية المنهج العلمى ، وان كان ايفانز برتشارد يرى استخدام المنهج التاريخى Historical Method فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية إذا توفرت للباحث الحقائق التاريخية الموثوق بها وهى نظرة لاتتفق مع نظرة راد كليف براون الذى يرى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية ماهى إلا « فرع آخر من العلم الطبيعى سوف يوجه اهتمامه إلى اكتشاف الخصائص العامة لتلك الأبنية الاجتماعية التى تتألف من الكائنات الانسانية »(٢) ·

ويشرح راد كليف براون وجهة نظره فى البناء فيشير الى أنه نوع من الترتيب والتنسيق بين الأجزاء والعناصر التى تدخل فى تكوين « الكل » أو « المجموع » فحين نقول إن المجتمع « بناء» فنحن نشير إلى التنسيق والترتيب الناشىء من عناصر ومكونات المجتمع بحيث يظهر فى وحدة واحدة مترابطة هى التى يقال عنها « البناء » و « البناء » بهذا المعنى يتكون من نظم وأنساق متعددة كالنظام الاقتصادى والنظام العائلى القرابى والنظام الدينى ··· الخ ، ولما كانت هذه النظم لاتنشأ فى فراغ فكذلك البناء المكون لها والناشىء عنها لاينشأ من فراغ وانما يتألف من « الكائنات الانسانية » أى الاشخاص الذين يحتل كل منهم مركزا ودورا ما فى « البناء الاجتماعى » الذى يؤلفونه هم ، وحين يتحدث عن الكائنات البشرية المكونة للبناء فهو

---

(٢) راد كليف براون ، فى البناء الاجتماعى · المرجع السابق ص ٣ ·

لايتناولهم من حيث هم أفـراد Individuals وإنما من حيث هم أشخـاص Persons وهنا تظهر التفرقة واضحة فى رأى « براون » بين « الفرد » و « الشخص » فالفرد كائن عضوى بيولوجى ينظر إليه من وجهة نظر فسيولوجية حيوية ولذا يكون موضوعا لدراسة علم الحياة وعلم النفس الحيوانى ، أما الانسان كشخص فيختلف مفهومه عن المفهوم السابق من حيث كونه مجموعة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة فيما بينها فهو مواطن عربى انجليزى مثلا ، كما أنه طالب أو زوج أو أب ، وقد يجمع بين كل هذه الأدوار فى وقت واحد ، وأيا كان دوره فانه يمارس مهنة معينة فقد يكون عضوا فى جماعة أو نقابة أو هيئة دينية أو سياسية . ويشرح وجهة نظره تلك بقوله « ويمكننا أن نلاحظ أن كلا من هذه الأوصاف تشير إلى علاقة اجتماعية محددة أو إلى مكان معين فى البنـاء الاجتماعـى ، ونحـن لانستـطيع أن ندرس الأشخـاص إلا فى حدود البنـاء الاجتماعى ، كما أننا لانستطيع أن ندرس البناء الاجتماعى الا بالاشارة الى الأشخاص الذين هم وحدات فى ذلك البناء[1]» .

وبهذا فان البناء الاجتماعى فى رأى « راد كليف براون » يعبـر عن العلاقـات الاجتماعية سواء نشأت هذه العلاقات بين الأشخاص من حيث هم كذلك أو بـين « الزمر الاجتماعية » والتى تتألف بدورها من هؤلاء الأشخاص وهى دراسة تعتمد على أساس الملاحظة المباشرة التى يقوم بها الباحث الأنثروبولوجـى من خلال دراستـه الاجتماعية « لبناء » ما من الأبنية الاجتماعية ، وتبدأ هذه العلاقة بالعلاقة الثنـائية Duadic Relation كالعلاقة بين الأب والابن أو الأم والبنت أو الخـال وابـن الأخت ... الخ وتلك علاقات لاتقل فى نظره عن العلاقة بين صاحب العمل والعمال أو بين الدولة والشعب[2] ... الخ .

ورغم أن هذه العلاقات الثنائية والتى يمكن ملاحظتهـا ملاحظـة مبـاشرة هى الأساس الأول لدراسة البناء الاجتماعى إلا أنها ليست الهدف الأخير أو الغاية فى

---

(١) المرجع السابق ص ٧ .

(٢) نفس المرجع

Radcliffe-Brown - OP. Cit., P. 191.

دراسة البناء الاجتماعى وذلك لأنها أمور جزئية ، والعلم لايهتم بالجزئيات وإنما يسعى بمختلف الطرق المنهجية للوصول الى الكليات والعموميات معا أى يهتم بالأنواع والحوادث التى يتكرر وقوعها اذا توافرت لها نفس الأسباب التى تؤدى الى نفس النتائج •

ويرى « راد كليف براون » أن البناء الاجتماعى ليس سوى مجموعة من « الأنساق الاجتماعية » والأنساق هى الأجهزة والنظم التى تتفاعل فيما بينها داخل إطار البناء الكلى الشامل ، والنسق عبارة عن عدد من النظم الاجتماعية التى تتشابك وتتضامن فيما بينها فى شكل رتيب منتظم ، كما أن النظام عبارة عن قاعدة أو عدة قواعد منظمة للسلوك يتفق عليها الأشخاص وتنظمها الجماعة داخل البناء ، ويرى راد كليف براون أن علاقة النظم بالبناء علاقة ذات شطرين •

أ) علاقة النظام بأفراد الجماعة داخل البناء الاجتماعى •

ب) علاقة النظام بسائر النظم الأخرى التى تتعلق بالنسق وبالبناء الاجتماعى •

فمثلا النسق القرابى يتألف من عدد من النظم المتعلقة به كنظام التوريث والنظام الأبوى والنظام الأموى وهكذا ، ومن مجموعة الأنساق القرابية والاقتصادية والسياسية والعقائدية وغيرها يتألف البناء •

أما التنظيم الاجتماعى Social Organization فيشير إلى مناشط الأفراد داخل النظام من حيث مايقومون به من أدوار ومراكز ومواقف وأنماط سلوكية • وبهذا فان أى نظام يحتاج إلى نوع من التنظيم داخل البناء الكلى الشامل والذى يعبر عنه راد كليف براون بتعبير « ميكاينزم » ويقصد بالميكانيزم الدراسة الكلية الشاملة التى تتحقق داخل المجتمع الواحد انطلاقا من نظرته التى تماثل البناء الاجتماعى بالبناء أو الكائن الفيزيقى من ناحية وبضرورة دراسة المجتمع دراسة تكاملية تماثل التكامل العضوى أو الفيزيقى من ناحية أخرى[1] وعليه فان الآداب والأخلاق والقانون والتعليم والسياسة والدين ليست سوى أجزاء داخل « الميكانيزم » المعقد

---

(١) نفس المرجع

1. Ibid. PP. 193-197.

والذى يساعد قيام البنـــــاء الاجتماعى من ناحية وعلى استمراره فى الوجود والبناء من ناحية أخرى ٠

مفهوم البناء الاجتماعى « عند ايفانز برتشارد »

يتفق ايفانز برتشارد مع راد كليف براون فى تعريفه للبناء الاجتماعى من حيث مايحمله من معنى الاطراد والاتساق والترتيب فى الحياة الاجتماعية ، ويعلل ايفانز برتشارد ذلك بأن الناس لايستطيعون أن يعيشوا ويتجاوبوا معا إلا لأن كلا منهم يدرك مضمون السلوك الذى يقوم به الآخرون وكذلك أنواع التصرفات التى يترقبونها من الآخرين ، وبهذا يتم تنظيم النشاط الاجتماعى وفقا لقواعد مرسومة ، وطبقا لقواعد وقيم متعارف عليها ، ولهذا يتحدث عن أفراد البناء الاجتماعى بقولـه « فهـم يستطيعـون التنبـؤ والتكهن بالأحداث وبذلك يمكن ترتيب حياتهم بما يتفق ويساير حياة الآخرين ، ولكل مجتمع صورة أو نمط معين يسمح لنا بأن نتكلم عنه على أنه نسق أو بناء يعيش فيه أفراده وينزلون على مستلزماته واستخدام كلمة « بناء » بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزائه ـ على أى حال ـ إلى الحد الذى يمكن معه تجنـب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف ، وأنه يتمتع بدرجة من الديمومة والبقاء أكبر مما تحظى به معظم الأشياء العابرة السريعة فى الحياة الانسانية »[٣]

وبهذا يرى ايفانز برتشارد فى البناء الاجتماعى مجموعة العلاقات الاجتماعية التى تنشأ بين الجماعات والزمر الاجتماعية التى تتمتع بدرجة عالية من البقاء والاستمرار فى الوجود ، وليس فى تلك العلاقة الطارئة بين شخصين أو عدة أشخاص ، وبهذا فان تعريفه يختلف عن تعريف « راد كليف براون » السابق فى نقطتين أساسيتين هما :

١ ـ رفضه لفكرة العلاقات الثنائية كمدخل لتكوين البناء الاجتماعـى ٠ وذلك لسرعة العلاقات الناشئة من خلالها والتى لاتبقى إلا ببقاء الشخصية ثم تنقـرض

---

(٣) ايفانز برتشارد ـ الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٤٢ ٠

بفنائهما أو بموت أحدهما ، ولهذا فانه يؤكد على ضرورة تواجد العلاقات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والترتيب ٠

٢ ـ عدم اعترافه بالعلاقات التى تنشأ بين الزمر الاجتماعية كأساس لتكوين البناء الاجتماعى كذلك لأنها هى الأخرى معرضة للزوال والاختفاء السريعين ، كالأسرة التى تتألف من جيلين جيل الأبناء وجيل الآباء فهى لاتعد « وحدة بنائية » لأنها لاتلبث أن تختفى كوحدة بنائية متميزة وذلك بموت أحد الوالدين أو زواج الأبناء أو بعضهم ٠

ولهذا فان العناصر المكونة للبناء الاجتماعى تتمثل فى الوحدات والجماعات البنائية الأكبر عددا من الأسرة كالعشيرة والقبيلة حيث تستمر كل منها أجيالا عديدة رغم مايطرأ على مكوناتها من تغيرات كموت بعض أفرادها أو هجرتهم أو انضمام أفراد آخرين اليهم ٠ ـ وقد تأثر ايفانز برتشارد فى نظريته تلك عن البناء بالدراسة الحقلية التى قام بها فى مجتمع النوير Neur بجنوب السودان والذى رأى فيه نموذجا للبناء المغلق Closed Structure اذ يعد عالما منزويا لما يحيط به من القبائل كالدنكا Dinka والشلوك Shilluk والأنواك Anuak أى مجموعة الشعوب النيلية Nilotes ، وقد رأى أنه إذا كان « البناء السياسى » فى « النوير » يتألف من قبائل متعددة إلا أن هناك تأثيرا ثقافيا متبادلا بينها وبين الأبنية التى تقع على حدودها بقبيلة « الدنكا » ولكن البناء الناشىء عن هذا التأثير المتبادل يعتبره « برتشارد » بناء هامشيا Marginal Structure يلاحظ فى الحدود الغربية والجنوبية بين النوير والدنكا وعلى الحدود الشمالية والشمالية الغربية بين الدنكا والشلك ونفس هذا البناء الهامشى يلاحظ فى محيط الثقافة العربية فى مجتمع « السلوم » على الحدود المصرية الليبية حيث يلاحظ الباحث مزيجا من مختلف الثقافات منها المصرية الخالصة والعربية والبدوية بالإضافة إلى عناصر ثقافية من شمال أفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد لاحظ هذا العالم الأمريكى كارلتون كون Carleton. S. Coon حين يتحدث عما يحتويه الشرق الاوسط من عديد من الأبنية الاجتماعية المتعددة والأطر الثقافية المتكاملة ، وذلك فى كتابه « القافلة » Caravan حيث قسم منطقة الشرق الأوسط من الناحية البنائية الوظيفية إلى « بدو » و « سكان حواضر » و « فلاحين »

و « سكان مدن » كما يقسم البدو إلى أنماط ثلاثة هى « البداوة الخالصة » و « البداوة الهامشية » التى تقع على الحدود فتمتزج ثقافتها بالثقافات المجاورة وتتأثر بها[١] ، وهناك النمط الثالث الذى يسميه « بنمط هامشى بالنسبة للشرق الأوسط » وهو مقصور على سهول البروز المساوى لسطح البحر ارتفاعا والواقع فى شمال شرقى إيران ٠ وشمال غربى أفغانستان » ٠

وما يهمنا عرضه هنا هو أن البناء الاجتماعى عند « ايفانز برتشارد » يتكون من العلاقات الدائمة بين الأشخاص من خلال الجماعات أو المجتمعات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستمرار والاستقرار ، ولهذا يصرح بأن « البناء هو علاقة بين جماعات وليس بين أفراد » ويفسر الجماعة بأنها « الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم وحدة متمايزة عن غيرها من الوحدات ، وينظر اليهم أعضاء الوحدات الأخرى بنفس تلك النظرة ، كما تقوم بينهم جميعا التزامات متبادلة بفضل عضويتهم فى تلك الوحدة » وبهذا المعنى يعتبر القسم القبلى والبدنة وطبقة العمر جماعات ، وليس كذلك الأقارب »[٢] ، وبهذا فان مفهوم البناء الاجتماعى يتطلب ارتباطا الجماعات ببعضها البعض تحت وحدة نسق واحد متماسك ومتكامل ، وهذا يعنى أنه إذا انقسم البناء الاجتماعى الشامل الى وحدات أضيق نطاقا منه كالبدنات والعشائر وطبقات العمر الا أنها كلها تنطوى تحت بناء واحد يشملها ، ويتفق مع « ايفانز برتشارد » فى رأيه هذا جمهرة الأنثروبولوجيين الذين يرون ضرورة الاهتمام بما ينشأ بين الجماعات من علاقات ثابتة متماسكة مطردة واغفال العلاقات المؤقتة السريعة التى تقوم عرضا بين شخصين أو عدة أشخاص كما يرى راد كليف براون ٠

مفهوم البناء الاجتماعى عند ريموند فيرث Raymond Firth

يتفق ريموند فيرث فى نظريته عن البناء الاجتماعى مع إيفانز برتشارد حيث يعتبر « البناء » مجموعة من العلاقات المنظمة بين الجماعات بحيث يكون لتلك العلاقات

---

(١) كارلتون كون ـ القافلة ، ترجمة برهان دجانى ص ٣١٧ ٠

2. Evans-Pritchard. ***The Neur*** — A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of Nilotic People. O.U.P., 1950, P. 203.

نصيب من الاستمرار والاستقرار وبالتالى يستبعد « العلاقات المؤقتة » من دراسة البناء الاجتماعى ، ولكن اذا كان « برتشارد » قد تحدث عن البناء من خلال دراسته للنسق السياسى فى مجتمع « النوير » فان « فيرث » يتحدث عن « البناء » من خلال تجربته الميدانية للنسق الاقتصادى فى مجتمع التيكوبيا Tikopia ولهذا يرى أن البناء الاجتماعى يعتمد أساسا على « التخصص المهنى » كأساس بنائى حتى فى المجتمعات البدائية التى يظهر فيها مثل هذا التخصص بصورة ضئيلة بعكس المجتمع المتحضر الذى يعتمد على التخصص وتقسيم العمل بأوسع معانيه ، ويرى « فيرث » أن مهن الأفراد تتباين أهميتها بتباين المجتمعات نفسها ، ففى بعض مناطق أفريقيا يكون الحدادون جماعات خاصة وتحيط بمهنتهم عديد من الطقوس والشعائر التى يقوم بها السحرة ، ولهذا ينظر إليهم فى بعض المناطق أحيانا نظرة التكريم حيث يتأكد مركزهم الاجتماعى بينما يكونون منبوذين فى مجتمعات أخرى فى افريقيا لقيامهم بحرفة وضيعة[1] وبهذا كان للتخصص المهنى أو الحرفى أثره الكبير كأساس للبناء الاجتماعى كما للاختلاف الطبقى أو المرتبة أثره الكبير فى البناء كذلك ، والمرتبة لا يصل اليها الفرد فى المجتمع أى مجتمع التيكوبيا إلا عن طريق الوراثة أو الثروة ٠

وعلى أية حال فانه يمكن القول بأن الانثروبولوجيين يتفقون على مفهوم البناء الاجتماعى من حيث كونه دراسة لشبكة العلاقات الاجتماعية التى تتمتع بدرجة معينة من الاطراد والاستمرار وبالتالى تؤلف كلها سلسلة واحدة متصلة الحلقات وان تفاوتت فى درجات تعقدها ولكنهم يختلفون فى نوع هذه العلاقات الاجتماعية ومدى ماتتمتع به من الاستمرار والاطراد حتى يمكن اعتبارها جزءا من البناء الاجتماعى ٠ واذا كان راد كليف براون يعتبر العلاقات الثنائية القائمة بين أفراد الأسرة تكون جزءا من البناء الاجتماعى فان كلا من « ايفانز برتشارد » و « ريموند فيرث » وجمهور الأنثروبولوجيين يرفضون مثل تلك العلاقة الثنائية كجزء من البناء ويرون أساس البناء فى العلاقات التى تتمتع بدرجة من الاستمرار والثبات والاطراد ٠

1. Firth, R. Human Types - ***Some Principales of Social Structure***. Thomas Nelson., N.Y. 1943, PP. 98-125.

ولما كان البناء الاجتماعى لايفهم منفصلا عن « الوظيفة » فان الأنثروبولوجيين يطلقون على الاتجاه البنائى « الاتجاه الوظيفى » أو « المدرسة الوظيفية » .

مفهوم الوظيفة وعلاقتها بالبناء

لما كان البناء الاجتماعى ـ كما أشرنا ـ هو تعبير عن شبكة العلاقات الاجتماعية المكونة من النظم والأنساق التى تتداخل وتتساند فيما بينها مكونة الكل البنائى الشامل فان الوظيفة الاجتماعية Social Function هى الدور الذى يلعبه الجزء فى الكل أى النظام فى البناء الاجتماعى الشامل ، أى أن درجة الاستمرار والاطراد فى البناء وهى التى تحقق وحدته وكيانه لايمكن أن تتم الا بأداء وظيفة هذا البناء أى الحركة الديناميكية المتمثلة فى الدور الذى يلعبه كل نظام أو نسق فى داخل البناء لأن البناء ـ اذا تصورناه بدون وظيفته ـ لن يكون سوى تجمع أو حشد طارىء مفكك ليس به هذا التساند أو الكيان الدائم الذى تحققه الوظيفة ولهذا فان الوظيفة فى « البناء » هى التى تحقق له مايسمى « بالتكامل الوظيفى » Functional Integration بين أجزائه بحيث يفقد النسق أو البناء الاجتماعى معناه المتكامل لو انتزع منه نظام ما فمثلا لايمكن للبناء الاجتماعى الإسلامى أن يحتفظ بوحدته وكيانه لو انتزع منه النظام الإسلامى المتمثل فى عقيدته وشريعته وعباداته ، اذ معنى هذا انتزاع الوظيفة من البناء أو فصل الدور الذى يلعبه هذا النظام الاسلامى فى البناء الاجتماعى الشامل ولهذا فان الاتجاه الوظيفى يعنى بالضرورة التعرف والوقوف على مدى التشابك والتفاعل القائمين بين النظم التى تؤلف حياة المجتمع ككل ، وعلى نصيب كل من هذه النظم فى المحافظة على استقرار المجتمع وتدعيم كيانه وتأكيد وحدته[١] .

ولا يمكن القول بأن فكرة الوظيفة تلك حديثة العهد بالدراسات الاجتماعية وإنما هى قديمة فى ذاتها إذ ترجع إلى كتابات عديد من علماء القرنين الثامن عشر والتاسع

(١) أحمد أبوزيد ـ البناء الاجتماعى جزء أول مرجع سابق ص ٦٧ .

عشر ممن لايعتبرون علماء وظيفيين بالمقاييس الحديثة ، فقد ظهرت الفكرة فى القرن الثامن عشر لدى مونتانى Montaigne و« مونتسكيو» وفى كتابات بعض علماء القرن التاسع عشر الذين كانوا يرون أنه لايمكن فهم فكرة أو تصور ما إلا بربط ذلك بالمجتمع ككل • ولكن مفهوم الوظيفة بالمعنى الحديث لم يظهر إلا منذ بداية القرن العشرين لاسيما بعد أن اتجه الأنثروبولوجيون لدراسة المجتمعات البدائية دراسة مركزة Intensive تشمل كل أنساق المجتمع ونظمه ومختلف مناشطه كوحدة واحدة لايمكن فهم أى نسق أو نظام به بعيدا عن البناء الكلى الشامل ، وقد تعدى هذا الاتجاه الوظيفى الأنثروبولوجيا الى سائر ميادين العلم • مما أدى إلى ظهور الاقتصاد الوظيفى والقانون الوظيفى والبيولوجيا الوظيفية[1] ، لاسيما اذا أدركنا أن هدف الدراسات الميدانية أصبح تحديد الأنشطة الاجتماعية وبيان وظائفها داخل اطار البناء الاجتماعى وبالتالى مقارنة النظم ببعضها البعض من حيث هى عناصر فى البناء الشامل وليس عقد مقارنات جزئية فيما بينها على أساس أن العلم يهتم بالكليات لا بالجزئيات ، ويستخدم الأخير فى محاولة منهجية للوصول الى القانون الكلى.ومن الأهمية أن نشير الى أنه استخدم مفهوم الوظيفة فى دراسة المجتمع يقوم على أساس المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية .

فكما أن الوحدات الأساسية المكونة للكائن العضوى وهى الخلايا ترتبط فيما بينها برباط متماسك لتؤلف بناء متكاملا هو « الجسم » الذى يصدر عنه السلوك الممكن ملاحظته عن طريق المناشط التى تسهم فى حفظ هذا البناء وهو مايدعى « بالوظيفة » فكذلك البناء الاجتماعى يتألف بدوره من وحدات أساسية هم الأفراد الذين يدخلون فى علاقات متبادلة تؤلف البناء الاجتماعى وبالتالى يسهمون فى حياتهم بمناشط متعددة يسهم كل منها فى حفظ البناء الاجتماعى وتلك هى « الوظيفة الاجتماعية » أى اسهام الجزء فى الكل أو الدور الذى يلعبه النظام فى البناء الكلى الشامل •

---

1. Lowie, R. Harrap, ***History of Ethnological Theory,*** N.Y. 1937, PP. 71-77.

ولكن هذا لايعني أن المماثلة بين الكائن العضوي والمجتمع سليمة أو صحيحة من الناحية العلمية فتلك نظرية لم تعد مقبولة لدى الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع في الوقت الحاضر ، وطالما تعرض العلماء الذين نادوا بتلك المماثلة أمثال ابن خلدون وهربرت سبنسر وراد كليف براون وغيرهم إلى نقد شديد « فراد كليف براون » من العلماء الذين يماثلون في مفهوم « الوظيفة » بين حياة الكائن العضوي والطريقة التي يعمل بها للمحافظة على استمرار كيانه في الوجود وبين البناء الاجتماعي على أساس أنه مجموعة العلاقات المنظمة بين وحداته وأن حياته تتألف من المناشط التي تقوم بها هذه الوحدات التي تكفل استمرار البناء خلال الزمن ، حيث أن وظيفة أي نشاط متكرر في المجتمع كتوقيع عقوبة على جريمة ارتكبت أو ممارسة شعائر جنائزية مثلا انما تعبر عن الدور الذي يلعبه مثل هذا النشاط في الاستمرار البنائي[١] ، فلولا العقوبة ما توفر الأمان ولولا ممارسة تلك الشعائر الجنائزية ماكان التعبير عن الألم العميق للراحل وهكذا ، وكل من هذه الأنشطة الوظيفية إنما تهدف في النهاية إلى استمرار المجتمع وتدعيم وجوده .

والواقع أن هناك نقطتين أساسيتين تنهدم عندهما نظرية المماثلة البيولوجية من أساسها :

أولهما : أنه يمكن ملاحظة البناء الجسمي للكائن الحيواني منفصلا عن وظائفه التي يقوم بها بمعنى أنه يمكن تصور البناء العضوي للكائن أو « مورفولوجيته » بعيدا عن وظائف أعضائه « فسيولوجيته » فنحن نشاهد الانسان ولا نشاهد معه في نفس الوقت قيامه بمختلف حاجاته البيولوجية بينما يصعب ذلك بالنسبة للمجتمع البشري اذ يصعب ملاحظته بعيدا عن تأدية وظائفه الاجتماعية المختلفة فالناس يشاهدون وهم يتحركون للحياة في عملية متصلة الحلقات عبر أنشطتهم الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الدينية وحتى في هدوء الليل فهناك الحراس ورجال الأمن وغيرهم ممن يقومون بأدوارهم في عمليات الضبط والحماية والأمن الاجتماعي ... الخ ، ثم ان معظم العلاقات

---

1. Radcliffe - Brown. OP. Cit. P.120.

الاجتماعية التى تدخل فى تكوين البناء كعلاقة الأب بالابن أو البائع بالمشترى أو جماعة بأخرى لايمكن ملاحظتها الا من خلال المناشط الاجتماعية التى تعكس هذه العلاقات بصورة واضحة ٠

وثانيهما : أن الكائن الحيوانى لايستطيع أثناء حياته أن يغير من الطراز البنائى الذى ينتمى اليه ، فلا يمكن للخنزير أن يصبح فرس بحر ويستحيل أن يدخل الجمل فى سم الخياط أو يتحول الكلب الى غزال ، ومراحل النمو التى يمر بها الحيوان ليست تغيرا فى الطراز وانما هى عملية تسود النوع كله ، وهذا بعكس الحال بالنسبة للبناء الاجتماعى الذى يستطيع أن يتغير فى اطار بنائه ، بل انه يغيره بالفعل ، فليست هناك مجتمعات جامدة لاتتغير ، وان اختلفت سرعة التغير ومداه ونوعه من مجتمع الى آخر طبقا لمستواه الحضارى كما سبق أن أسلفنا ٠

وهذا لايعنى أن هناك بالضرورة وظيفة لكل ظاهرة فقد تكون للظاهرة أو النظام ظاهرة غير واضحة ، وعلى الباحث بأساليبه المنهجية أن يبحث عنها من خلال هذه الوحدة الشاملة التى تنسق عناصر البناء الاجتماعى وتضم أجزاءه تلك الوحدة التى يسميها « راد كليف براون » بالوحدة الوظيفية ٠ **Functional Unity.**

الوظيفة والغرض

كثيرا مايحدث الخلط بين وظيفة النظام أو الظاهرة والغرض Purpose منه ، إذ لا يشعر هؤلاء بالدور الذى يلعبه نظام ما فى المحافظة على استمرار المجتمع أى وظيفته « وأن كانوا يشعرون فى نفس الوقت بأنه يحقق غرضا معينا غالبا ما يختلف عن الوظيفة ، ويفرق « راد كليف براون » بينهما على أساس أن الوظيفة هى « الغرض الحقيقى » بينما الغرض هو « الغرض الظاهر أو المرئى » فمثلا إذا كان الغرض من الشعائر الجنائزية هو الاحترام الواجب نحو أهل الميت ومشاطرتهم آلامهم وتشييع الميت إلى مقره الأخير حيث ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ إلا أن « وظيفة » هذه الشعائر تختلف عن « الغرض » فوظيفة التشييع وشعائره فى المجتمع المسلم انما هى تعبير عن الرضاء بقضاء الله وقدره وامتثال أوامره وتدبر حكمته وايمان بقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ كما تشمل وظيفة الشعائر الجنائزية تدريب المجتمع ومنحه الفرصة لأن يتقبل

تدريجيا الوضع الجديد بعد الوفاة والذى يستمر فى الوجود لاجراء كل الترتيبات التى تتمخض عنه من ميراث وشغل للفراغ الذى خلا بالموت ... الخ ، ويسمى عالم الاجتماع الفرنسى فان جنب Van Gennep الطقوس التى تمارس من مرحلة إلى أخرى فى حياة الانسان باسم شعائر المرور أو الانتقال Rites de Passage أى الطقوس والشعائر التى تمارس عند انتقال الفرد من مرحلة الى أخرى بدءا بالولادة فالفطام فالختان فالانتقال إلى طبقة عمر معينة فالزواج فالوفاة ولهذا فان الوظيفة بهذا المفهوم لاتكون حاضرة فى أذهان كثير من الناس عندما يمارسون العديد من أنماط سلوكهم ونظمهم الاجتماعية بل كثيرا ما لاتكون لديهم فكرة ما عن السبب الذى من أجله يمارسون عاداتهم وتقاليدهم .

المدرسة الوظيفية والاهتمام بحاضر النظم الاجتماعية :

ترفض المدرسة الوظيفية استخدام المنهج التاريخى Historical Method والذى يهتم بدراسة أصل النظم من حيث ماضيها التاريخى دراسة تتبعية للكشف عن أصولها وتطورها وتفسير أسباب حدوثها ، وهذا المنهج ان أمكن تطبيقه فى المجتمعات المتطورة ذات التاريخ المكتوب والمسجل للنظام والظاهرات الاجتماعية إلا أنه لايصلح أساسا فى الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات البدائية بالذات لأن هذا المنهج فى مثل تلك المجتمعات يعد منهجا افتراضيا يحاول اعادة تركيب الماضى Hypothetical Reconstruction التاريخى لهذه القبائل . ولهذا يسمى بالتاريخ الظنى Conjectural History وهو ماترفضه المدرسة الوظيفية رفضا باتا وتستعيض عنه بدراسة حاضر النظم الاجتماعية ، ولا بأس بأن يعتمد الباحث الميدانى فى دراسته على آراء كبار السن فى تطور الظاهرة أو النظام موضع الدراسة على أن يكون هؤلاء الاخباريون أو الرواة ممن يوثق بهم ويطمئن الباحث اليهم ، ذلك لأن دراسة الظاهرة فى الحاضر دراسة بنائية وظيفية يحقق مبدأ التكامل فى الدراسة من ناحية ويبتعد عن تصيد الأدلة غير الممحصة أو الموثوق بها فى دراسة الظاهرة من ناحية أخرى ، وفى هذا يقول مالينوفسكى .» وبدلا من تصيد الأدلة عن

طريق تنسيق عامل الزمن واعتباره فى حوادث الماضى والمستقبل للوصول الى تتبع تاريخى أو تطورى فانه ينبغى علينا تنظيم العلاقات الاجتماعية فى مجموعات « نظم اجتماعية » تعيش كلها متداخلة ومتماثلة معا فى الحاضر وبالتالى يمكن دراستها ككل دراسة ميدانية موضوعية »(١) • ـ وحتى ايفانز برتشارد والذى يعد من أنصار المنهج التاريخى يرى أنه لاينبغى استخدام هذا المنهج بحال ما فى دراسة المجتمعات البدائية لعدم توافر السجلات التاريخية الدقيقة التى تشرح تاريخ النظم البدائية ، ولكنه يرى نظرا لاتساع ميدان الأنثروبولوجيا بحيث أصبح يشمل دراسة المجتمعات القروية والمدن الصغيرة والمجتمعات الصناعية فانه ينبغى عدم اغفال المنهج التاريخى فى دراسة تلك المجتمعات لتوافر السجلات التاريخية الموثوق بها (٢) •

ومن الأهمية ان نشير إلى أن دراسة المجتمع الإسلامى دراسة أنثروبولوجية سواء بالمدخل الثقافى الاثنولوجى أو البنائى الوظيفى تحتاج الى استخدام المنهج التاريخى فى مجال التحليل والتأصيل والتفسير الأنثروبولوجى للظاهرة موضوع الدراسة فى إطار هذا المجتمع ، وذلك لأن للتاريخ الإسلامى وثائقه الأكيدة التى تعطى لدراسة ظاهرة ما كالزواج أو الطلاق أو تعدد الزوجات أو النسق القرابى أو الرق أو الصوم أو الحج أبعادها التاريخية الاكيدة والتى يجد فيها الأنثروبولوجى مادةخصبة لربط دراسته الآنية بأصولها الماضية ، لاسيما عند الاشارة إلى الاثنوجرافيين المسلمين الاوائل الذين درسوا عديدا من هذه الظواهر دراسة علمية موضوعية ، وهذا لايتوافر فى عديد من المجتمعات الأخرى التى يصعب فيها وضوح الرؤية التاريخية • وكان هذا سببا فى اشارة الأنثروبولوجيين الغربيين الى المنهج التاريخى بتحفظ شديد بل ورفضه فى الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمع •

وانطلاقا من هذا المفهوم نرى أن دراسة المجتمع الإسلامى دراسة أنثروبولوجية ينبغى أن تكون من خلال اتجاه تكاملى يلتقى فيه الاتجاه الوظيفى بالثقافى والثقافات

---

1. Malinowski, B. *The Dynamics of Cultural Change,* Yale University Press, 1961, P. 32.
2. Evans Pritchard, OP. Cit. P. 59.

وليدة تاريخها وربيبة ماضيها ، وهى متحركة لاثابتة ، متغيرة لا مستقرة ، ولهذا فنحن نتفق مع الذين يقارنون النسيج الثقافى فى أى لحظة من لحظات الزمن التاريخى بالحرير المتعدد الالوان والذى إن عكس ألوانا تختلف باختلاف وجهة النظر إلا أن العين المدربة هى التى ترى خيوط الماضى وهى تلمع تحت سطح الحاضر ٠

تم بحمد الله

=============

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر العربية

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : الحديث الشريف

ثالثا :

١ ـ ابن بطوطة : « شمس الدين أبو عبدالله » **رحلة ابن بطوطة** دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت لبنان ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ٠

٢ ـ ابن حوقل : « أبو القاسم محمد » **صورة الأرض** ٠ الطبعة الثانية ٠ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ)

٣ ـ ابن جبير : « أبو الحسن محمد ٠ » « **رحلة ابن جبير** » طبعة دار التراث بيروت لبنان ١٣٨٨ هـ ٠

٤ ـ ابن خلدون : « عبدالرحمن بن محمد » **المقدمة** ٠ شرح وتحقيق وتعليق على عبدالواحد فى لجنة البيان العربى ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠

٥ ـ ابن فضلان : « أحمد » رسالة **ابن فضلان** المجمع العلمى العربى ٠ دمشق ١٩٥٩ م ٠

٦ ـ أحمد أبو زيد : « **البناء الاجتماعى** » **الجزء الأول** « **المفهومات** » الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠

٧ ـ أحمد أبو زيد : « **تايلور** » مجموعة نوابغ الفكر العربى ٠ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ٠

٨ ـ أحمد أبو زيد : **البناء الاجتماعى** « **الجزء الثانى** » **الأنساق** ٠ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ٠

٩ ـ أحمد الخشاب : **دراسات أنثروبولوجية** ٠ دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ ٠

١٠ ـ الإصطخرى : « أبو إسحق إبراهيم » **المسالك والممالك** ليدن بريل ١٩٢٨ م

١١ ـ البيرونى : « أبو الريحان محمد بن أحمد » **تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة** ٠ مطبوعات دائرة المعارف العربية رقم ١١ ـ دائرة المعارف الثمانية ـ حيدر أباد ـ الدكن ٠ الهند ١٣٧٨/٧٧ هـ ٠

١٢ ـ البيرونى : **الآثار الباقية عن القرون الخالية** • طبعة أوفست مكتبة المثنى بغداد (بدون تاريخ) •
١٣ ـ المقدسى : « شمس الدين » **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** • الطبعة الثانية ليدن المحروسة مطبعة بريل ١٩٠٩ •
١٤ ـ إميل دوركايم : **قواعد المنهج فى علم الاجتماع** ترجمة محمود قاسم ومراجعة السيد بدوى القاهرة ١٩٥٠ •
١٥ ـ إيفانزبرتشارد : **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** ترجمة أحمد أبو زيد • منشأة المعارف • الاسكندرية ١٩٦٠ •
١٦ ـ بيلزوهويجر : **مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة** • ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى • دار نهضة مصر • مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر • القاهرة ـ نيويورك ١٩٧٦
١٧ ـ رالف لينتون : **دراسة الإنسان** • ترجمة عبدالملك الناشف • مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر • القاهرة ـ نيويورك ١٩٦٤ •
١٨ ـ زكى محمد اسماعيل : **ملامح الدراسات الأنثروبولوجية فى تراث المفكرين المسلمين** • مجلة كلية العلوم الاجتماعية العدد الأول • الرياض ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م •
١٩ ـ زكى محمد اسماعيل : **الثقافة والشخصية الإسلامية (دراسة فى الأنثروبولوجيا النفسية)** • مجلة كلية العلوم الاجتماعية • العدد الثانى ـ الرياض ١٣٩٨ / ١٩٧٨ •
٢٠ ـ زكى محمد اسماعيل : **أنثروبولوجيا التربية (دراسة نظرية ميدانية فى قبيلة الشلك بجنوب السودان »** الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م •
٢١ ـ صالح عبدالعزيز : **تطور النظرية التربوية** • دار المعارف • القاهرة ١٩٦٤ م •
٢٢ ـ عاطف وصفى : **الأنثروبولوجيا الثقافية** • الطبعة الأولى • دار المعارف • القاهرة ١٩٧٥ •
٢٣ ـ عاطف وصفى : **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** • دار المعارف • القاهرة ١٩٧٧ •
٢٤ ـ على أحمد عيسى : **تصور جديد للاتجاهات النظرية والعلمية لعلم الاجتماع فى الوطن العربى** حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى ـ الجزائر ١٩-٢٦ مارس ١٩٧٣ م •

٢٥ ـ على عبدالواحد وفى : **عبقريات ابن خلدون** • دار عالم الكتب للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م •

٢٦ ـ عمر عوده الخطيب : **لمحات فى الثقافة الإسلامية** • مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٧ م •

٢٧ ـ فبارى محمد إسماعيل : **الأنثروبولوجيا العامة** • منشأة المعارف • الإسكندرية ١٩٧١ م •

٢٨ ـ كارلتون كون : **أنثروبولوجيا للعرب** • بحث ضمن البحوث التى قدمت لمؤتمر « برنستون » للثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٠ م بعنوان « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله • مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ نيويورك ١٩٦٢ •

٢٩ ـ محمد الجوهرى : **علم الفولكلور « دراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية »** • الطبعة الثانية • دار المعارف • القاهرة ١٩٧٨ •

٣٠ ـ محمد الجوهرى وآخرون : **الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية** • مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة •

٣١ ـ محمد الخضر حسين : **أثر الرحلة فى الحياة العلمية والأدبية** محاضرات المجمع العربى بدمشق الجزء الثالث • دمشق ١٩٥٤ •

٣٢ ـ محمد عبدالفتاح إبراهيم : **الجريمة والعقاب فى المجتمع القبلى الإفريقى** • الانجلو المصرية • القاهرة ١٩٦٦ •

٣٣ ـ محمد عبدالمنعم نور : **ابن خلدون كمفكر اجتماعى عربى** • أعمال مهرجان ابن خلدون • المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية • القاهرة ١٩٦٢ •

٣٤ ـ محمد عبده محجوب : **الاتجاه السوسيو أنثروبولوجى فى دراسة المجتمع** • وكالة المطبوعات • الكويت •

٣٥ ـ محمد عبده محجوب : **الأنثروبولوجيا السياسية • مقدمة لدراسة النظم السياسية فى المجتمعات القبلية** • الهيئة المصرية العامة للكتاب • الاسكندرية ١٩٧٦ •

٣٦ ـ محمد عطية الابراشى : **التربية الإسلامية وفلاسفتها** • القاهرة ١٣٨٩ / ١٩٦٩ •

٣٧ ـ منير المرسى سرحان : **فى اجتماعيات التربية** • الانجلو المصرية • القاهرة ١٩٧٣ •

٣٨ ـ محمود قاسم : **مشروعية علم الاجتماع بين ابن خلدون ودوركايم** • المجلة الاجتماعية القومية المجلد ٨ العدد الأول • منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية • القاهرة ١٩٧١ •

٣٩ ـ نقولا زيادة : **الجغرافيا والرحلات عند العرب** ٠ دار الكتاب اللبنانى ٠ دار الكتاب المصرى ٠ بيروت ٠

٤٠ ـ هولتكرانس : **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور** ٠ ترجمة محمد الجوهرى وحسين الشامى دار المعارف ٠ القاهرة ١٩٧٢ ٠

المراجع الأجنبية

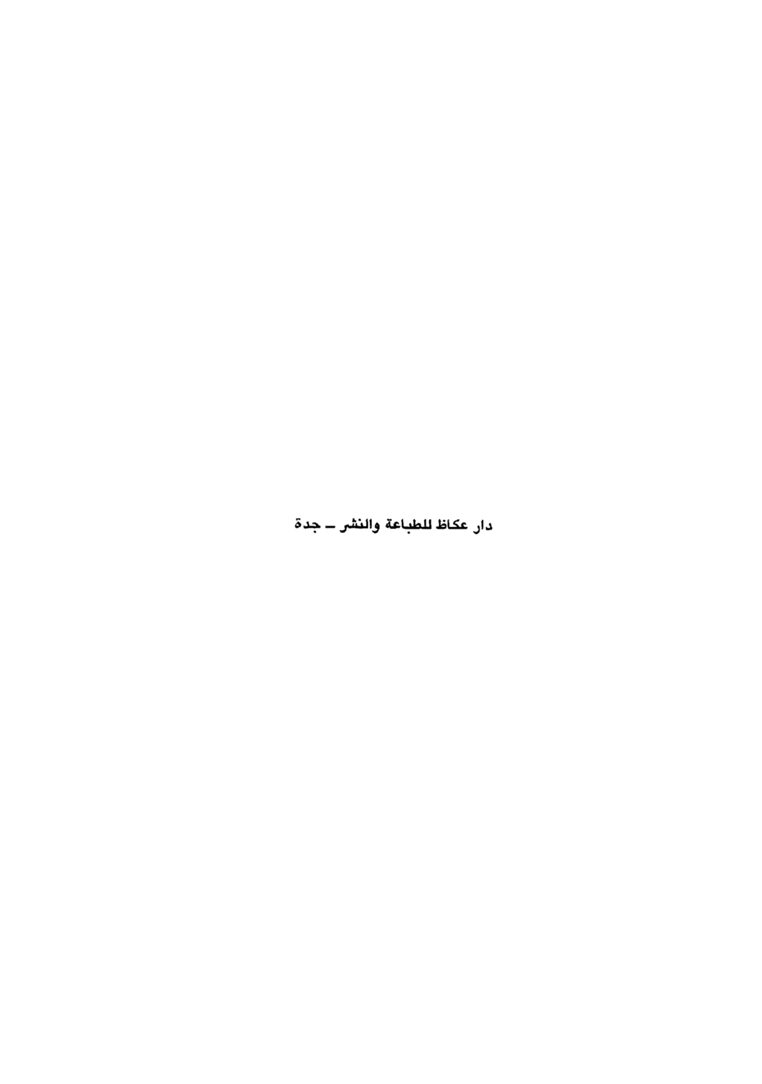
Footnotes

1. Aly, A. Isa., *Social Anthropology*. Dar-El-Maaref, Cairo, 1967.
2. Benedict, R., *Patterns of Culture*. Routledge and Kegan Paul., (W.D).
3. Bonhanan, P., *Social Anthropology,* Holl, Rinehart and Winston, N.Y., 1963.
4. Brameld, T., *The Meeting of Educational and Anthropological Theory* in Spendler (ed). Education and Culture. Holl, Rinehart and Winston, N.Y., 1963.
5. Durkheim, Emil ., *Educaaion and Sociology,* Trans. Free Press, N.Y., 1956.
6. Evans - Prirchard, *Essays in Social Anthropology*. Faber. (W.D).
7. Evans - Prirchard., *The Nuer., Adoscription of Moodes of Livelihood and Political Institutions of Nilotic People.* O.U.P., 1950.
8. Firth, R., Human Types *"Some Principles of Social Structure.* Thomas Nelson, N.Y., 1973.
9. Foucart, George, *Introductory Questions on African Ethnology,* Cairo, 1919.
10. Francis Brown, *Educational Sociology.* N.Y., 1955.
11. Haddon, A., *A History of Anthropology,* London, 1927.
12. Hobel, E. Adamson, *Anthropology, The Study of Man.* McGraw Hill, N.Y., 1966.
13. Hus, F. (ed) *Psychological Anthropology* — Approaches to Culture and Personality. The Dossey Press. Inc. Homewood, 1951.
14. Jessup, Henry Harris., *Fifty-three Years in Syria,* N.Y., 1910.
15. Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds). *Personality in Nature and Culture.* Alfred Knopf., N.Y., 1959.
16. Kroeber (ed) *Anthropology Today.* Chicago University Press, 1953.
17. Kroeber, A., *The Subject of Anthropology*, Fried, M.H., *Readings in Anthropology*, N.Y. 1959.
18. Kroeber, A.L. and Klockhohn. C., *Culture: A Critical Review of Concepts and Definitions,* Social Foundations of Education, W.E. and Cox, R.L. American Book Com., N.Y. 1968.
19. Linton, R., The Cultural Background of Personality, N.Y., (W.D).
20. Malinowski, B.R., *Dynamics of Cultural Change,* U.S.A., 1949.
21. Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific,* Routledge and Kegan Paul, U.S.A., 1950.
22. Mead, M., *Coming of Age in Samoa,* U.S.A., 1945.
    Mead, M., *Our Educational Emphasis in Primitive Perspective.,* Spendler (ed) in Education and Culture, An Anthropological Approach, N.Y., 1963.
23. More Clyde and William D. Cole, *Sociology in Educational Practices.* Greenwood Press, N.Y., 1952.
24. Morgan, L.H., *Ancient History,* Chicago, U.S.A., 1907.
25. Nadel, S.P., *Foundations of Social Anthropology,* London, 1951.
26. Piddington, R., *An Introduction to Social Anthropology.* Oliver Boyd., Edinburgh, London, 1960.
27. Radcliffe Brown, A.R., *Method on Social Anthropology,* Chicago, 1958.
28. Radcliffe Brown, A.R., *Structure and Function in Primitive Society.* Cohan and West, U.K., 1953.

29. Richmond, A., *Social Scientist in Action,* Faslet W. Sciences News, Penguin Books, England, 1963.
30. Sollitz, C. and Others, *Research Method in Social Relations.* N.Y., U.S.A., 1959.
31. Shapero, L (ed), *Man, Culture and Sociaty,* O.U.P., N.Y., 1960.
32. Shipman, M.D. *The Sociology of the School,* Longman Group Ltd., London, 1971.
33. Smith B.O. and Others, *Fundamental of Curriculum Development,* World Book Co., N.Y., 1957.
34. Spendler, G.D., *Education and Culture, Anthropological Approach,* Rinehart, N.Y., 1963.
35. Steward, J., *Theory of Cultural Change.* University of Illinois Press, Urbana, 1957.
36. Tylor, K.E., *Primitive Culture,* London, 1913.
37. Wester Marck, E., *Methods of Social Anthropology,* Royal Institute, 1936.
38. William, O. Stanley and Others, *Social Foundations of Education,* N.Y., 1956.
39. Winck, C., *Dictionary of Anthropology.* Littlefield Adams and Co., U.S.A., 1951.

محتويات الكتاب

صفحة



دار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة

هذا الكتاب

قليلاً .. بل ونادراً ما يشار الى مدى الصلة الوثيقة بين الدراسات الأنثروبولوجية والأثنوجرافية ، وبين إسهامات العلماء المسلمين العرب الأوائل ، الذين كان لهم فضل السبق في معالجة مثل هذه الدراسات ، من خلال كتاباتهم ، ومؤلفاتهم .

والكتاب يعرض الدراسة الأنثروبولوجيا من منطلق إسلامي الاتجاه ، في مجال الشرح والتفسير والتحليل ، كما يعرض الحقائق الأنثروبولوجية لا من حيث اتصالها بالفكر الغربي وحده ، وإنما من حيث اتصال هذه الحقائق بالفكر الاسلامي كذلك ، دون اعتساف ، أو حشو ، أو افتعال .

كما يعنى الكتاب بابراز دور العلماء العرب المسلمين في مجال الدراسات الأثنوجرافية التي سبقوا بها علماء الغرب من خلال ماقاموا به من رحلات عديدة ، أسفرت عن دراسة منهجية لقيم وعادات وتقاليد وشعائر وأنماط سلوك المجتمعات التي رحلوا اليها ودرسوها . تلك الدراسات التي شهد بها المنصفون من الأنثروبولوجيين الأوربيين والأمريكيين أنفسهم . الذين نادوا بأن تكون هناك « انثروبولوجيا خاصة بالعرب » .

ويرجو المؤلف ان يساعد الكتاب على الاستفادة من توظيف المنهج العلمي في أسلوب الدعوة الاسلامية .



دار عكاظ

سعر النسخة : ٢٥ ريالا